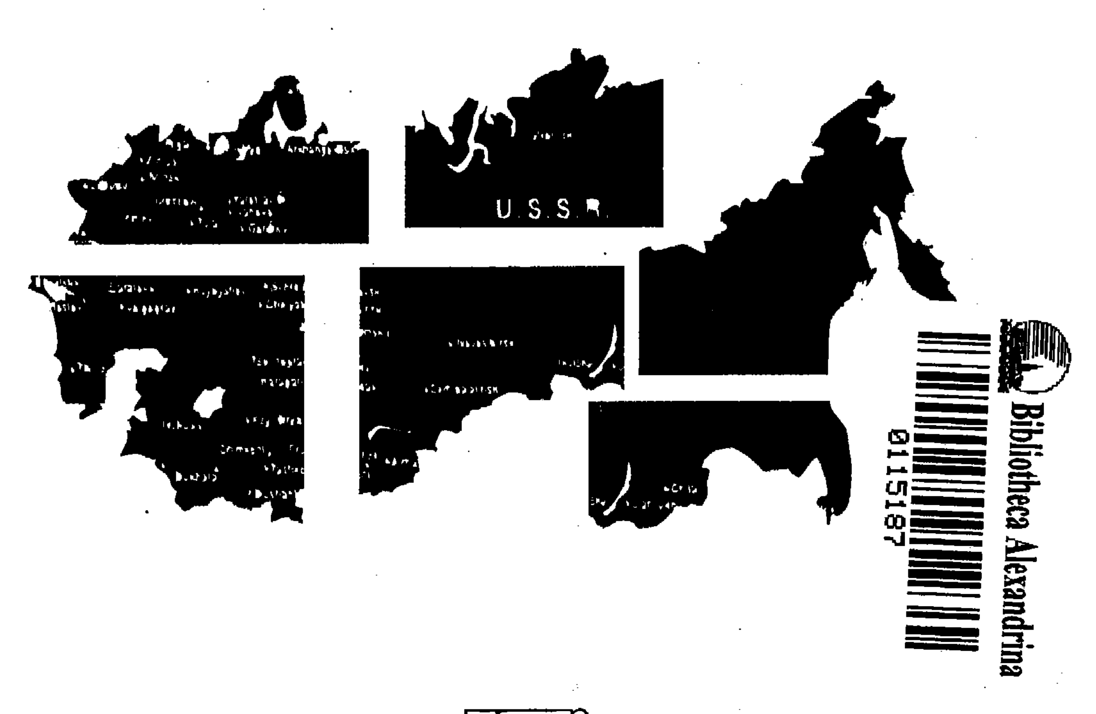
Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

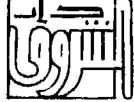
نبيل عمرو

الف يوم في موسكو

١٩٨٨-١٩٩٣



Bibliotheca Alexandrina
0115187




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الف يوم في موسكو


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نبيل عمرو

الف يوم في موسكو

١٩٨٨-١٩٩٣



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

* **نبيل عمرو** : **الف يوم في موسكو**

* الطبعة العربية الاولى - الاصدار الاول ١٩٩٥

* الناشر : دار الشروق للنشر والتوزيع

ص.ب ٩٢٦٤٦٣ الرمز البريدي ١١١١٠

هاتف ٦١٨١٩٠/٦١٨١٩١/٦٢٤٣٢١

فاكس ٦١٠٠٦٥

عمان - الأردن

* التوزيع : المركز العربي للمطبوعات

ص. ب ١٣/٥٦٨٧

هاتف ٨٦٢٩٩٤

بيروت - لبنان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة

الف يوم في موسكو كتاب قيم، ومفيد للقارئ الفلسطيني والعربي على حد سواء، اذ انه يسرد بوضوح وسلاسة دقة احداث فترة تزامنت مع تفكك الاتحاد السوفياتي، وقيام الدول «الخليفة»، وما رافق ذلك من ازمات الوجود للكثير من القيادات و الكيانات السوفياتية/ السلافية، أو السلالات البشرية الأخرى. إن مآل اليه الاتحاد السوفياتي، القطب الذي كان ينافس ويتحدى «القطب الآخر»، كدولة كبرى ودويلات، حدث تاريخي هام، ويكاد يكون فريدا في القرن العشرين، اذ إن التاريخ الحديث لم يشهد تفككا لدولة مترابطة كالاتحاد السوفياتي. من حسن حظ القارئ الفلسطيني والعربي بشكل عام ان يكون له«شاهدا» من اهله على هذا التحول التاريخي، ولكن المؤلف ليس بشاهد عادي، اذ إنه السيد نبيل عمرو الذي يروي هذه «الشهادة» بامانة ودراية، صحفي/كاتب يتحلي بكفاءة وقدرة على العرض الواضح، ولكنه في بآن واحد سياسي/ دبلوماسي محترف، خبرتُ حنكته ودبلوماسيته الذكية وعلاقاته الحسنة مع السوفيات حين استضاف قبيل الانقلاب عام ١٩٩١ وفدا رسميا من المجلس الوطني الفلسطيني للاتحاد السوفياتي كنت من ضمنه. يدرك ما يجري على الصعيد اليومي في دولة كان معتمدا لديها كممثل رسمي لحركة تحرير وطني،له اتصالاته الرسمية والمجتمعية، وكان يولي اهتماما إساسياً لاي تحرك من شأنه إن يحدث تأثيرا في السياسة العامة للدولة الكبرى، والتي لاشك ستنعكس على سياستها الفلسطينية/الاسرائيلية بشكل خاص، والشرق أوسطية بشكل عام. فاذن نحن مع كاتب ملتزم يتفهم الموقف القديم والجديد، ويدرك معنى التحول التاريخي بالنسبة للمنطقة، وهوفي آن واحد «عين» و«اذن» لمنظمة التحرير ينقل لها، وربما يطلعها على تفاصيل في المواقف والسياسات لم تتوفر لوسائل الاعلام.

ولكن يكتسب هذا الكتاب أهمية علمية خاصة لنوعه؛ اذ إنه لم يُكتب كتحليل في الدراسات الدولية، أو في السياسة والحكم في الاتحاد السوفياتي، بل هو أقرب إلى كتب «المذكرات» مع قدر من التقيد والاستفادة من مناهج التحليل العلمي. اذ إن المؤلف يبدأ سرده للوقائع السياسية/ التاريخية في فترة محددة، ويضع القارئ في إطار هذه الحقبة، ويذكرنا بأن الاتحاد السوفياتي الذي كان قطباً منافساً للقطب الآخر، والذي سيطرت عليه قيادة حزبية

محددة، وايديولوجيا واضحة احتل مكانة خاصة في الاوساط الفلسطينية التي اعتبرته «حليفاً اسراتيجياً. الا ان المؤلف يظهر لنا ببراعة كيف ان الاتحاد السوفياتي لم ينظر الينا من منظور التحالف» رغم تأييده لحقوق الشعب الفلسطيني. ثم يستمر المؤلف في عرضه للوقائع اليومية، فيوضح لنا التحولات الأساسية في الأوساط السياسية المختلفة، ومراكز القوى الصاعدة التي شكلت «خطراً» على العلاقات السوفياتية /الفلسطينية/العربية. وهو بسرده هذا يظهر بوضوح تنوع الدعم السياسي، والنظرة السياسية بتنوع القيادات السوفياتية المختلفة – العهد الستاليني، عهد اندربوف والقدماء» إلى إن سيطر غورباشوف على مقدرات الدولة، ثم إبعاده عن القيادة. في آن واحد يبين مدى افتقارنا– خاصة في إمكان اتخاذ القرار السياسي الفلسطيني– إلى تقدير دقيق، ومعرفة إكيدة بالواقع السوفياتي، ومن ثمّ عدم تقديرنا للتحولات الهامة للسياسة الخارجية السوفياتية المتعلقة بالقضية الفلسطينية، والتي أدت فيما أدت اليه إلى التعاون الوثيق بين روسيا الجديدة، والولايات المتحدة لإيجاد حل لقضية فلسطين أكثر تجانساً مع الموقف الأمريكي الثابت.

وبهذا السرد يمكن للقارئ أن يدرك كيف تمكن القطبان من تهيئة الظروف لايصال فلسطين، والدول العربية، وإسرائيل إلى مؤتمر مدريد، وماتلا ذلك من قبول مالم يكن مقبولا سابقا. والقارئ العربي لابد أن يقدر إسهام الكاتب في نقل المعرفة أولا عن مجريات الأمور في ظرف دقيق من ظروف الاتحاد السوفياتي، وفي مناقشاته أمور الاتحاد السوفياتي، والقوى المتصارعة، وفي تفاعلات القيادة الفلسطينية مع القيادة السوفياتية/ الروسية، وأن يستمد كل هذا من وضعه«كمراقب مشارك» للمجتمع السوفياتي. ولكن إسهام الكاتب الثقافي يكمن حقا في كتابة «مذكرات» سياسية تتعلق بعالم أجنبي، وهي نادرة في الأدب السياسي العربي، كما انها كل رصدا لتحول تاريخي سيعيشه المجتمع الدولي إلى حين. لقد شاهد المؤلف هذا التحول تمد على ما قالته الصحافة الاجنبية. ونحن مع القارئ العرب مدينون للمؤلف لأنه وضع بين ا يمكن أن نعتبره «وثيقة» أمينة لهذ التحول التاريخي لدولة هامة ارتبط مصيرنا بتحولاتها بجية. ومع كل هذا فهو كتاب شيق، أصيل، جذاب يصعب على القارئ وضعه جانبا كماله.

إبراهيم أبو لغد
أستاذ العلوم السياسية
جامعة بيرزيت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجزء الأول

ألف يوم في موسكو

تناقل فضوليو الساحة الفلسطينية باندهاش نبأ ترشيحي ممثلا لمنظمة التحرير الفلسطينية في موسكو، كان ذلك في أواخر شتاء العام ١٩٨٨ .

كانت ردة الفعل هذه بديهية تماماً، اذا ما نُظِرَ للأمر من زاوية المفاهيم السائدة آنذاك حول موسكو، فهذه العاصمة، لم تكن بنظر السواد الأعظم من السياسيين الفلسطينيين مجرد عاصمة لدولة كبرى، أو مركزاً للقطب الآخر الذي يشارك على قدم المساواة في ضبط حركة وايقاع الكرة الأرضية وفضائها، بل كانت الى جانب ذلك القائد الأعلى لقوى اليسار والاشتراكية والتحرر ..الخ . . أي انها ببساطة كبيرة الحليف الاستراتيجي البديهي لحركات التحرر الوطني في العالم،وعلى رأسها حركة التحرر الوطني الفلسطيني .

اذن، فإن موسكو كما هي في مخيلة الفلسطينيين، وتحليلهم الخاص بحاجة الى ممثل من نوع مختلف، ممثل يجيد العزف على الآلة اليسارية « الشعبية »، ويحسن الحديث بلغة اليسار الخاصة، والتي تبدأ وتنتهي بالثناء على قدسية التحالف – الاستراتيجي مع موسكو.

لم أكن امتلك هذا النوع من المواصفات، كانت لي رؤيتي الخاصة لموسكو وموقعها في العالم المعاصر، وفي حياتنا السياسيةالفلسطينية والعربية.كنت احاول على الدوام التعاطي مع ظاهرة موسكو بقدركاف من الواقعية، غير إن ذلك لم يكن مقبولا في شارعنا، حيث تظهر الحدود الفاصلة بين الأفكار والمواقف أمضى من حد السيف، كنت يمينياً « مؤدلجا» كما نعتني بعضهم، وفي الوقت نفسه كنت مقاتلاً في جيش ترتدي فرقه الرئيسية كثيراً من إشارات الزينة الحمراء .

في واحدة من دورات المجلس الوطني الفلسطيني « التي عقدت في دمشق، في أوج سطوع دولة المنفى الفلسطيني في لبنان أتيح لي أن أتقدم بمداخلة حول علاقاتنا الدولية،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولقد أسهمت في الحديث عن أهمية تطوير علاقاتنا السياسية مع موسكو بوصفها الدولة العظمى التي تملك فتح أبواب كثيرة أمامنا في العالم، وجازفت بالتحذير من مغبة الإكثار من استخدام عبارة التحالف الاستراتيجي بين الثورة الفلسطينية والاتحاد السوفيتي، ولقد جازفت باقتراح كهذا لأنني سمعت من أحد الرفاق السوفيات تحذيرا بهذا المعنى، فأحببت أن انقله ببراءةالى أسماع أعضاء برلماننا .

ما إن فرغت من مداخلتي، حتى تقدم مني أحد أعضاء المجلس وكان عضواً قياديا في الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين مخاطباً أياي بلهجة مؤنبة« بأنني أفصحت عن انحراف فكري وسياسي، وربما وطني ذريع، إذ إنني شككْتُ في مصداقيةالتحالف الاستراتيجي، وذلك يناقض قراراً من المجلس الوطني يصف العلاقة مع موسكو بالاستراتيجية ».

لم يتح لي الرفيق المتحمس فرصة كافية للدفاع عن موقفي، بل لم يقبل حتى سماع الجملة التالية :

«ليس مهماً أن يشير مجلسنا إلى هذا الوصف غيرالمنطقي، المهم أن نقرأه في أي مخطوطة سوفياتية،أو نسمعه من أي مخلوق، وعلى أي مستوى في الهرم السوفياتي الكبير ».

لا أجازف لو قلت إن رؤية الكثيرين منا لموسكو آنذاك كانت مخترعةوفق رغباتنا ونزعاتنا الخاصة. إذ كانت في حياتنا اليومية هواءً يتنفسه الكثيرون منا،وفي عمق اللاوعي مبعث الأمل في الصمود أمام جبهة الأعداء التي اكتشفنا في وقت متأخر أنها سيدة العالم بلا منازع .

وكانت هذه الرؤية المخترعة حاجة ضرورية لبعضنا، وعدواً لبعضنا الآخر. وفي حمى الاستقطاب الداخلي ذي الآفاق السياسية الساذجة، كان الجدل حول موسكوأشد حرارة من الجدل حول أي شيء آخر .

كان الممثل الشعبي الأبرز لتيار موسكو في ساحتنا هو المرحوم نمر صالح، الشهير بأبي صالح، يقابله على الطرف الآخر ممثل شعبي مناوىء هو السيد منير شفيق رئيس مركز التخطيط الفلسطيني الذي كان يقترح بكين بديلاً عن موسكو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لمنحها الولاء، او الحذو حذوها كقوة دولية كبرى ذات مستقبل حتمي في مرحلة ما. كان الصراع بين التيارين حاداً ويكتسب أحيانا مظاهرعدائية خطرة،وفي فترة زمنية تركز الحوار الداخلي حول هذه المسألة بالذات (موسكو أم بكين)،وأحيانا كانت تتسلل الى هذا الحوار الغريب مقولات تتردد على استحياء من نوع « ماذا عن العرب»، «وماذا عن محاولة ايجاد صيغة للإفادة من موسكو وبكين » كل وفق حاجتنا له واستعداداته لدعمنا .

كانت موسكو بعيدة جدا عن هذه الطقوس البدائية في ممارسة الجدل السياسي والفكري، وكان المنتبهونإلى هذه الحقيقة قليلين، مع أن مؤشراتها وقرائنها كانت صارخة وملحة .

كان مستوى العلاقات الفلسطينية -السوفياتية لا يزال دون الحد الأدنى لمستوى العلاقات بين أي كيان سياسي وآخر، فمنظمة التحرير تحظى بمكتب متواضع في موسكو يتولى مهمة تمثيل الفلسطينيين لدى منظمة التضامن الآفروآسيوي، أي ان الصلة مع الدولة على نحو رسمي كانت معدومة تماماً، وكان شكل التمثيل ومضمونه يشككان واقعياً في مقولة التحالف الاستراتيجي .

غير إن هذا المستوى من العلاقة الرسمية مع الدولة السوفياتية لم يكن لينفي الاحتمالات الممكنة والقوية للتطور، ولكن ضمن مسار منطقي موضوعي،ذلك إن منظمة التحرير بحد ذاتها كانت خاضعة لاختبار دقيق،« ما هي (؟) ماهو وزنها الفعلي عند الفلسطينيين »،« ما هو ثقلها العربي»، ثم أولاً وأخيراً «إلى أي مدى يمكن الوثوق بعمق عدائها للامبريالية» .

كانت الإجابات بما يخص السؤالين الأول والثاني توفر للمنظمةعلامات عالية تستحق تركيز انتباه موسكو حولها، وبذل مزيد من الجهد لبلورة علاقات مفيدة معها، غير إن السؤال الثالث كان في واقع الأمر معضلة ليس فقط لأرباب التحليل في المؤسسات السوفياتية، وانما للعالم بأسره،وهنايحسن إدخال ياسر عرفات الى السياق فهو صاحب اللغز، أوهو بالضبط من كان بحاجة للاكتشاف .

كان جمال عبدالناصر هو أول من قدم ياسر عرفات للقيادة السوفياتية،لقد منح رئيس الفلسطينيين فرصة نادرة وتاريخية، اختصرت عليه زمناً طويلاً وجهداً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عظيماً يتعين عليه بذله لتسلق الهرم السوفيتي من سفحه حتى قمته العالية،ولقد أظهر القادة السوفيات قدراً من العطف على الرقم الجديد الذي يكاد لا يرى من بين أرقام معادلة القوى الشرق أوسطية المثبتة على الخريطة الكونية للدولة العظمى. كان العطف السوفياتي آنذاك نابعا من قرارمواصلة الرهان على جمال عبدالناصر الخارج لتوه من هزيمة ١٩٦٧،والذاهب من جديد الى هدف صعب لايملك قطع بوصة واحدة نحوه دون تأبط ذراع الدب السوفيتي الثقيل. أما السوفييت من جانبهم فقد كانوا، أو ربما كان بعضهم على الأقل، يخالجه شعور بخذلانهم لعبد الناصر في أدق مراحل وجوده السياسي كزعيم لمصر، وللشعوب العربية. لم يكن خذلاناً مقصوداً بأي حال، وانما جاء نتيجة سوء التصرف مع حرب حزيران،حيث التباطؤ السوفيتي الذي جعل الحملة الرادعة في العام ١٩٦٧ تتحول الى احتلال شبه دائم لعشرات اضعاف مساحة اسرائيل من الأرض العربية، كانت موسكو الحريصة على بقائها في الشرق الأوسط بحاجة الى توفير أرض جديدة يستطيع ناصرالوقوف عليها. وحين قدم زعيم العرب مرشحه الجديد لزعامة الفلسطينيين كان لا بد من الاستجابة لمبادرة الرجل،كلفتةٍ موسكوفية ذي مغزى كبير في سياق سياسة جديدة تجاه مصر واخواتها في المنطقة.

لم يكن ياسر عرفات القادم الى المعادلة الشرق أوسطية حاملا بندقية الثورة، وحلم التحول الى رقم فعلي من أرقام المعادلة، مصاباً بتلك الأوهام الرومانسية التي تزين له العلاقة مع موسكو على أنها ذات محتوى عسكري أو ذات أفق استراتيجي بالمعنى السائد آنذاك. إن من حق عبدالناصر أن يفكر بهذه الطريقة، أما عرفات الذي لا يزال في طور بناء الأنسجة الأوليةلتشكيله المقاوم فقد آثر التواضع في فهم موسكو والتعامل معها، غير إن التواضع على هذا الصعيد لم يكن ليلقي ظلالا من اي نوع على يقين عرفات بأهمية الرقم الفلسطيني، تلك الأهمية المكتسبة من موقع القضية الفلسطينية كجوهر حيوي للصراع العربي الإسرائيلي، وكعامل ثمين وقوي تسعى قوى الاستقطاب الرئيسة في العالم لاحتوائه والإفادة منه.

غير أن عرفات «العملي »ذا الغلاف الرومانسي السميك،كان يعرف أن كلمة السر التي تتوقف عليها أهمية الرقم الفلسطيني هي بالضبط « القرار المستقل» . وإن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم تكن القوة المادية لهذا الرقم توفر قدراً كافياً من الاستقلال فإنه بحاجة ملحة للمحاولة .

كانت مساحة الحركة أمام ياسر عرفات آخذة بالاتساع، إذ وفرت هزيمة حزيران ١٩٦٧ نوعا من الفراغات امكن للماءالفلسطيني أن يتسرب من خلالها. لم يكن باستطاعةالمنكوبين بهزيمة حزيران، (أخلاقياً) على الأقل، الوقوف في وجه الوليد الجديد الذي برع في تقديم نفسه للجماهير كاضافة نوعية للعمل العربي المتطلع الى محو «اثار العدوان » أوتحرير الأرض. ومنذ ذلك الوقت وياسرعرفات يتحرك بدأب ومواظبة يحسد عليها. كان يتحرك منذ اليوم الأول وحتى الآن وفق معادلة في غايةالغرابة، إنه يمثل أهم قضية في العصر، ويحمل أصعب حلم، غير إنه، في الوقت ذاته، بعيد على أن يمتلك أرضا تحمل معه اثقال الحلم الكبير .

ولكي يعيش ككائن سياسي، أو كطامح الى بلورة القوة المعنوية الفلسطينية الى رقم مادي فعال في معادلة القوى، كان لا بد له أن يجمع النقيضين في روحه ووعيه، وحتى في حياته اليومية. كان عله ان يجمع بين (الواقعية المفرطة والرومانسية المفرطة) أيضاً .

كانت موسكو في وعي ياسر عرفات هدفاً يستحق النضال من أجل بلوغه،وقد وفر له عبدالناصرهذا الهدف، كما كانت موسكو قوة دعم ضرورية للبقاء على قيد الحياة السياسية الدولية، وقد وفرت له الثورة والقضية ومتطلبات الحرب الباردة هذا الوضع .

وكانت موسكو، أخيراً،واحدة من الضمانات الجوهرية للحل السياسي المحتمل، وعلى مدى المساحة الزمنية الطويلة التي فرضت طبائع الأمورتعاملاً شبه يومي بين عرفات وموسكو، ظل اللغز قائماً، وظل السؤال عن مدى قدرة موسكو على الثقة بعرفات كحليف في معركة المواجهة الكونية مع الإمبرالية بلا جواب دقيق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دولة بيروت وموسكو

في العام ٧٠ وقع الصدام المنطقي بين الثورة الوليدة والنظام الأردني، وأسفر عن إخراج الثورة المسلحة من جميع الأراضي الأردنية مع الاحتفاظ بتمثيل سياسي متواضع في العاصمة عمان، الى جانب تمثيل عسكري من خلال كتيبة لجيش التحرير الفلسطيني تقع ضمن دائرة السيطرة المطلقة للقوات المسلحة الأردنية .

كانت أحداث الأردن ٧٠ -٧١، بمثابة الخروج المبكر للرقم الفلسطيني من كنز الجغرافيا السياسية الأثمن في الشرق الأوسط، ذلك أن الأردن لم يكن مجرد قاعدة ارتكازية للأحلام الجيفارية الفلسطينية المزدهرة،ولم يكن مجرد أرض تواجه إسرائيل. إن الأردن أكبر وأعمق وأكثر ثراءً في واقعه ومحتواه من هذه الأوصاف العامة المستهلكة. إنه بالضبط المكان الاكثر قدرة في الشرق الأوسط على التأثير المطلق في حياة الفلسطينيين من مختلف جوانبها،إنه على نحو أكيد من يستطيع منح الأحلام الفلسطينية بعض الفرص للتحول الى حقيقة. ذلك يصدق تماما لو نظر للأمر من زاوية حلم « الفتنمة»، حيث ساد هذا المصطلح بعض الوقت وبالقدر نفسه يصلح لو نظر للأمر من زاوية الواقعية السياسية، أي التسوية .

لم تكن الثورة الفلسطينية في تلك الحقبة قد امتلكت القدر الكافي من النضج الفكري والسياسي الذي يوفر لها يقينا من هذا النوع حول الأردن، نظاماً وكياناً . كما لم تكن قد اكتسبت بعد خبرةالتعاطي مع الكيانات السياسية من موقعها الاعتباري، كاطار لم يحسم بعد شكله النهائي: ثورة أم دولة، أم تشكيل سياسي يأتلف، أو يتنافر مع الأجرام السياسية الدائرة من حوله .

لست هنا في معرض محاكمة أحداث ٧٠-٧١ في الأردن. إني أشعربعدم أهليتي للقيام بذلك، غيرإني أردت إيراد هذه النقطة بالذات لأنها، كما أراها، بداية الرحلة ذات الملامح السهلة في بعض فصولها، وذات المضمون الانتحاري في كل تفاصيلها .

إن المحطة القادمة بعد الأردن هي لبنان، ويتعين على عرفات أن يختار نقطة المرور السورية بأقل قدر من الخسائر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على نحو ما يمكن استنتاج الأمر التالي :

إن عرفات، المطرود من الجغرافيا الأردنية الثمينة، إكتشف هامشاً يمكن الإفادة منه لمواصلة الرحلة، هذا الهامش أوجده شعور أصدقاء عرفات من الحكام العرب بعجزهم عن حل معضلته الأردنية، فسعى الى الحصول على تعويض ما أمكن له ذلك، اذ حصل على بعض الحظوة في الجغرافيا السورية والمصرية، غير إنه أحسن تقدير هذه الميزة التعويضية فتعاطى معها كميزة مؤقتة يتعين عليه عدم الركون اليها، بل الإنطلاق منها الى أرض أكثر رسوخاً فكان لبنان هو المحطة التالية

وجدت منظمة التحرير في لبنان فرصاً عالية ومضمونه لتواجد راسخ وطويل الأمد، كانت الآلاف الفلسطينية المنتشرة على كل جزء من الأرض اللبنانية تتوثب، وتفتش عن حلقات اتصال مع الثورة الوليدة، وكان السأم من معادلة النظام الطائفي قد بلغ مداه لدى القوى الكامنة في أحشاء المجتمع اللبناني، وكان الصراع الداخلي المحتدم يرفع، وبوتائر متسارعة، أسعار السهم الفلسطيني في البورصة اللبنانية النشطة. كل ذلك وتحته ملايين التفاصيل الداخلية والخارجية انشأ على نحو شديد الوضوح كياناً شبيهاً بالدولة على أرض لبنان يتربع على عرشه سدنة أطلقوا على أنفسهم اسم حراس الزواج الكاثوليكي اللبناني الفلسطيني . في تلك الحقبة ظهرت مصطلحات خاصة بهذا الوضع الذي بدأ بالنسبة للعالم كظاهرة استثنائية يصعب التعامل معها، بالقدر ذاته من صعوبة تجاهلها. لمع في سماء الشرق الأوسط نجمان جمعهما تحالف مصلحي عميق: ياسر عرفات رئيس الثوار الفلسطينيين، وكمال جنبلاط رئيس التقدميين اللبنانيين. كان الاثنان متحدين في أمور لا يمكن البوح بها مع انها الأعمق، كانا يتحدان في الشعور العميق بالاستحالة، إذ ان كمال جنبلاط زعيم أصغر طائفة في لبنان، والذي يمتليء يقيناً بجدارته في أن يكون الرجل الأول على هرم السلطة اللبنانية، يدرك استحالة ذلك بحكم الدستور على الأقل .

وياسرعرفات، الذي يمتليء بحلم الزعامة الشعبية للأمة العربية، يدرك استحالة تكريس هذا الوضع، ولو على شبر من أرض مخيم في المنفى. كان طبيعيا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن يتحد المستحيلان في تجربة واحدة سيكشف لنا التاريخ حجم المغامرة فيها،إلا انها كانت اكثر المغامرات المعاصرة جدية في حياة الشرق الأوسط،وأعمقها تأثيراً في مساراته الراهنة .

وعلى تربة التحالف الفلسطيني – اللبناني المخضب بالدم نما ذلك الشعار الذي دخل الى أدبياتنا كقرار برلماني، الا وهو شعار التحالف الاستراتيجي بين المنظومة الاشتراكية، وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي، وبين حركة التحرر العربية، وعلى رأسها الثورة الفلسطينية المتحالفة مع الحركة الوطنية اللبنانية .. الخ ..

كانت الأمور هكذا في بيروت، أما في موسكو فكان التمثيل الفلسطيني على حاله، مكتب متواضع يعمل فيه بعض الموظفين الفلسطينيين والعرب، ويديره من الجانب السوفيتي موظف متوسط الشأن يعمل في قوام كادر اللجنة السوفياتية للتضامن الأفروآسيوي.

خلال السنوات العشر التي عاشتها دولة الفلسطينيين على أرض لبنان،تكرست منظمة التحرير كقوة اقليمية لا يستهان بها، صارت عضواً أصيلاً في جامعة الدول العربية، وفتحت لها الممثليات على مستويات عدة في معظم أنحاء العالم، ونما حوار فلسطيني – أمريكي شبه رسمي .

وتطور الوعي الفلسطيني ليبلغ نقطة الاستعداد للحوار مع القوى الديمقراطية اليهودية أولاً، ثم مع أي يهودي يقبل الحوار مع المنظمة، وعلى أرض لبنان، شمالا ووسطا وجنوبا، تمركزت البؤرة الحقيقية المحركة للوضع العربي بمداه الشرق أوسطي الأوسع. كانت حرباً أهلية تتداخل مع حرب أقليمية تشتعل تارة، وتخبو تارة أخرى ليصبح لبنان العربي الفلسطيني الدولي الإسرائيلي مجمع الأعصاب الشرق أوسطي الأكثر حساسية ودقة وتأثيراً .

لست هنا في معرض التأريخ للحقبة الفلسطينية في لبنان، ولكن لا مناص من ذكر هذه العناوين التي تساعد على فهم مغزى، وأفق القفزة النوعية الطويلةوالعميقة والمكتظة بالاحداث المفصلية في مجرى العلاقة الفلسطينية السوفياتية.

كانت حرب١٩٧٣، ومجمل العمليات العسكرية الخارجية التي نفذتها فصائل منظمة التحرير، وابرزها آنذاك منظمة أيلول الاسود حافزاً لتنشيط الجهود

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السياسيةالجدية الرامية، أولا، الى حل الصراع العربي - الاسرائيلي على جبهاته الرسمية، وثانياً استبدال المسدس الفلسطيني - صانع ميونيخ الرهيبة - بسفارة وعلم واشياء أخرى كثيرة تصب الشمع الأحمر في جوف المسدس ...

ومنذ الشهور الأولى التي تلت حرب ٧٣ ...... بدأت منظمة التحرير محاولة ادخال جملها الثقيل في ثقب الأبرة المفضي الى نادي الشرق الأوسط. كان الجميع بحاجة الى هذا النوع من التطور، وأولهم الاتحاد السوفيتي الذي لم يكن مستعداً لتطوير علاقاته مع منظمة التحرير وفق منطلقاتها، وشعاراتها الكبيرة التي كانت توصف همساً في موسكو،باللاواقعية واللاعقلانية،وكانت استعدادات المنظمة المتتالية للدخول في المعادلة السياسية تشجع موسكو على التفكير جديا في اخذ مقاولة الفلسطينيين على نحو أكثر جدية من ذي قبل. وهنا انفتح الباب الموسكوفي على مصراعية امام المنظمة المعتدلة، وصار عرفات ضيفا مقربا لقادة الكرملين، ونشرت على نطاق واسع صورته وهو يعانق برجنيف في فناء ضريح الزعيم الخالد فلاديميير ايليتش لينين في قلب موسكو .

وفي بيروت كنت تشاهد في تلك الحقبة نجوماً سوفياتية ساطعة في سماء السياسة والأدب والفن. كانت تأتي للتعمد في ماء التحالف المقدس بين الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية، والمنظومة الاشتراكية، وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي. كان شهرَ عسلٍ طويلاً، ومتمادياً واحتفالياً، وكانت قاعة جمال عبد الناصر، في جامعة بيروت العربية، بمثابة مركز ثقافي شعبي دائم النشاط للإحتفال بالأيام السوفياتية، حتى حين ارتكب بريجنيف غزو افغانستان. كانت بيروت الوطنيةوالتقدمية هي المنبر الأكثر جسارة للاعلان عن شرعية هذه الخطوة، ومدى ضرورتها لتحجيم القوى الانعزالية في لبنان، ودحر القوى الصهيونية من الشرق الاوسط.كان كل شيء سوفياتي مبعث احترام وتبجيل دون تدقيق.ومع ذلك كانت موسكو البيروتية تختلف كثيراً عن موسكو الروسية أو السوفياتية. كانت المبالغة المشرقية عندنا أقوى من قدرة الرفاق على فهمها وتحملها. لقد احتاج مراسل نوفوستي في بيروت الى زجاجة من الفودكا كي يقول لنا في عشاء عمل في منزل الشهيد (ماجد أبو شرار) إنكم تغالون كثيرا في تقديم الاتحاد السوفياتي لشعبكم.

إننا نعطف عليكم، وندعم قضيتكم، ونقبل زعماءكم ضيوفا، ونقبل طلابكم في جامعاتنا، كل ذلك لا يسمى تحالفا استراتيجيا مقدساً .

غير إن هذه المبالغة لم تكن لتنقص في الجوهر الحجم الحقيقي للنمو المطرد في العلاقة مع موسكو. كان في الأمرعامل سياسي أكثر عمقا ورقيا من الصخب الاحتفالي. كانت موسكو بحاجة الى رقم شرق أوسطي ذي زخم نوعي مؤثر، فكانت المنظمة مرشحة لذلك، وكانت المنظمة من جانبها بحاجة الى قطب دولي يكسبها مصداقية الدخول الى المعادلة السياسية، وكانت موسكو مستعدة لتوفير ذلك، غير إن موسكو كانت في الوقت نفسه راغبة في رؤية منظمة مطيعة، وان امكن سهلة القياد والموالاة .

كان الفلسطينيون المستعدون لتسديد فاتورة موسكو، كاملة دون نقاش، بعيدين نسبياً عن مركز القرار السياسي الفلسطيني. كانوا موجودين في كل مكان الا ذلك المكان الذي يفرض اتجاها كهذا. كان ياسر عرفات حريصاً على ان يحتكر العلاقة مع الرفاق .

وإذا كان هنالك عشرةآلاف شخص يتحدثون عن موسكو، ويرتدون أزياءها، ويرفعون شعاراتها، ويزورون مصحاتها ولجان شبيبتها وتضامنها، فلم يكن في واقع الأمر سوى شخص واحد يتحدث مع موسكو. كان هذا الشخص هو ياسر عرفات. لم يكن الأمر مجرد امتثال للقاعدة الوقائية المألوفة، وهي الحرص على جمع الخيوط كلها في قبضته، ولكن لأن السوفيات أنفسهم كانوا راغبين بذلك. كان من الصعب على أي قائد فلسطيني في بيروت أن يلتقي السفير سولداتوف دون إذن من عرفات .

كان عرفات من جانبه يرعى جميع الاحتفالات السوفياتية في قاعة جمال عبدالناصر في بيروت، وحتى في قاعة اليونسكو حين يكون الأمر بحاجة إلى إضفاء طابع استثنائي عليه. كما كان حريصاً على ان يلتقي بأي سوفياتي مهما كان وزنه، أو موقعه في الهرم الأكبر، الا إنه كان في الوقت نفسه دائم البحث عن مداخل الى شبكة الدماغ السياسي لسدنة الكرملين. كان شديد التوق الى تلك اللحظة التي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يستطيع فيها الإفصاح لموسكو عن هدفه السياسي العملي،الا وهو قيام موسكو من موقعها الكوني الراسخ بإبرام صفقة شرق أوسطية تكفل للفلسطينيين مكانة حقيقية فيها.

لقد وفرت الأحداث فيما بعد اختباراً حقيقياً أفرز نتائج جوهرية واضحة تحدد حجم ومحتوى وسقف العلاقة الفلسطينية السوفيتية. كان ذلك حين قامت إسرائيل عام١٩٨٢ باجتياحها الواسع النطاق للبنان . . وتوقفت دبابات ايريل شارون على أبواب بيروت الغربية بعد أن أحكمت إغلاق البر والبحر على عرفات، وحلفائه في آخر معقل إستراتيجي يمارس فيه حركة مستقلة. كانت حرب شارون من أقسى وأشرس الحروب التي شهدها العصر ضد مدينة معزولة. لقد تلقت بيروت على مدى أسابيع قليلة قذائف من البر والبحر والجو تكفيْ لتمهيد إحتلال دولة كبيرة. ويعفيني عن ذكر مزيد من التفاصيل حول هذا الأمر إعلان إسرائيل عن أنها ألقت على بيروت الغربية مئتي ألف قنبلة في عشر ساعات. كانت غابة الاسمنت والرجال ومجمع أعصاب الطموح الثوري العربي قد تحولت بفعل استباحةالعالم لها الى حقل تجارب لأحدث التكنولوجيات الحربية الأمريكية والغربية .

وقتذاك كانت الرسائل موسكو تأتي بين حين وآخر على هيئة احتجاج مرير ضد ما يجري. كانت صورة موسكو في الحرب مستمدة من تلك الصورة المرسومة على ساحات القتال عبر إمكانيات ووسائل المتحاربين. كانت طائرات أمريكا تحارب، وبنادق الاتحاد السوفيتي تدافع. كانت صواريخ موجهة بالذبذبات تدك حصون المحاربين الفلسطينيين واللبنانيين، بينما صواريخ سام المحدودة العدد والكفاءة تلاحق طواحين الهواء في فضاء لبنان، إذ لم يكن بمقدورها سوى اللحاق بالبلونات الحرارية التي تقذفها إحدى الطائرات الأمريكية لاستقطاب النار. مع ذلك كان المقاتلون الفلسطينيون واللبنانيون يواصلون المواجهة، ويوقعون، في العدوان التكنولوجي الخارق القدرة، خسائر حقيقية لم تستطع اسرائيل تقديرها قبلاً، أو تجاهلها .

حينذاك صدرت إشارة من موسكو فهم منها المحاصرون أن معجزة توشك على الوقوع، وإن الرهان على الحليف الاستراتيجي كان في محله تماما. لقد أعلن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ناطق سوفيتي عن أن ما يجري على أرض لبنان من عدوان وقح يستهدف الشعب الفلسطيني واللبناني . . . انما يشيع التوتر في منطقة تقع على الحدود الجنوبية للاتحاد السوفيتي، لذا يتعين على اسرائيل وقف العدوان .

على نحو فوري توقفت آلة الحرب الاسرائيلية عن العمل، وتنفس المقاومون الصعداء، إذ لم يكن هنالك من مخرج سوى هذا المخرج. كان ما يفعله شارون قبل (ما اعتبر) على انه إنذار سوفياتي هو سباق مع الزمن ينتج بحكم الضرورة موتاً جماعياً ودماراً شاملاً .

إن توقف العدوان عند هذه النقطة كان بنظر الكثيرين منا نصراً يستحق التهنئة، حتى أن أحد قادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين السيد أبو ماهراليماني عانقني في أحد شوارع بيروت قائلاً: «مبروك النصر» .

كان خيط من الشك في نفسي يحرضني على فعل شيء ما للتأكد، فخطرت ببالي فكرة أن أقوم بزيارة لمقر وكالة الأنباء السوفياتية (نوفستي) .. لم يكن بعيداً على أية حال، وكنت أعرف مديره السيد الكسندر سيمرنوف. وصلت وصديقي زياد عبدالفتاح مدير وكالة الأنباء الفلسطينية الى كورنيش المزرعة، وهناك رأينا ما لم يكن بالحسبان. كان الرفاق جميعا يقفون على حقائبهم المشدودة بإحكام ... إستعدادا لمغادرة بيروت ...

سألنا صديقنا المشترك ساشا: .. ما الذي يحدث ..؟

طمأننا الرجل طويل القامة الى جدية الإنذار السوفياتي، ووصفه بالحاسم. كان ذلك آخر ما سمعناه من الأصدقاء في بيروت .

كان توقف الآلة العسكرية الاسرائيلية عن العمل لمدة ثمان وأربعين ساعة بمثابة تريث للتأكد من مدى صدقية الانذار السوفيتي، وحين استؤلف القتال، ولم يعد يأتي من موسكو سوى رسائل جوابية على رسائل عرفات شبه اليومية الى بريجينيف .. فجّرَ من كانوا يقدمون أنفسهم على الساحة كخط سوفياتي قنبلتهم الشهيرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد تنادوا الى اجتماع، وأصدروا بياناً مطولاً خلاصته جملة مفيدة واحدة .. إن موسكو الصهيونية انتصرت على موسكو الشيوعية، وأن قائدة القوى التقدمية في العالم تنصلت من مسؤولياتها، ونكثت بعهودها تاركة منارة الاشعاع الثوري في الشرق الأوسط تحترق تحت لظى النار الأمريكية الغاشمة.

كنت آنذاك مديراً لاذاعة منظمة التحرير في بيروت، بلغني استدعاء القائد العام لمقابلته في أحد المقار السرية، وكان المقر يحمل رقم ٦٠ على ما اذكر، ذهبت الى حيث المكان المحدد، وبعد اجراءات تمويهية وجدت نفسي في القبو الفسيح والمظلم، لم تكن الشموع كافية لاضاءة المساحة الواسعة .

كانت رائحة الشمع الممزوجة برائحة الرطوبة تبعث في نفسي شعوراً بالضيق. كان ياسر عرفات يجلس وراء مكتب صغير وأمامه صندوق معدني يشكل عصب الاتصال الداخلي بعد ان أجهزت الطائرات الاسرائيلية على وسائل الاتصال الحديثة والسهلة، وكان الى يمينه العميد سعد صايل « ابو الوليد»، وجميع زملائي مسؤولي أجهزة الاعلام الفلسطينية في بيروت. كان الغرض من الاجتماع مناقشة بيان الإدانة الصادر بحق موسكو « الصهيونية» وكيفية سحبه من وسائل الاعلام .

في ساعة متأخرة من الليلة ذاتها، حضر الى مقر الاذاعة ياسر عرفات،اختلى بنفسه في احدى الغرف،وحين طالت فترةخلوته تسلل الزميل طاهر العدوان لينظر من النافذة الزجاجية، ثم طلب مني بنبرات هامسة « تعال انظر »

توجهت الى النافذة الصغيرة،فرأيت ياسر عرفات يجلس القرفصاء على حافة أحد الاسرة، يضع سرواله في حجره ويحاول رفوه على ضوء شمعة ضئيلة النور .

أكمل عرفات عمله، وعاد للجلوس معنا في الصالون الفسيح. كانت جلسة هادئة من تلك الجلسات النادرة التي كنا نقتطعها من أيام وليالي بيروت الخطرة. تحدثنا حول بيان الرفاق ضد الرفاق، وكان تفسير عرفات للموقف على النحو التالي:

« لم يكن لائقاً إصدار بيان كهذا .. ولا يصح الموافقة على مبدأ الاساءة للعلاقات الفلسطينية السوفياتية، إنهم لم يعدوني بتدخل عسكري حال تعرضي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لموقف كهذا. نعم أنني أشعر ان باستطاعتهم فعل ما هو اكثر من التضامن السياسي، ولكني لا استطيع البوح بما اشعر به إن موسكو مهمة بالنسبة لنا الآن، وفي المستقبل، والمهم في المقام الأول المحافظة على شعرة معاوية، إذ إنها بالنسبة لنا الصلة الجدية وربما الوحيدة مع قمة العالم » .

كنت أنتمي الى هذا التحليل في فهم موسكو، وكيفية التعامل معها وبعد ان أُخرجنا من بيروت،وقدر لي أن أرافق ياسر عرفات في رحلة الى موسكو للمشاركة في تشييع جنازة (بريجنيف). امكن لي ان اطلع على فصل عملي من فصول العمل الفلسطيني الرسمي مع القيادة السوفياتية.

كان وفد على مستوى أعضاء اللجنة التنفيذية قد سبق عرفات الى موسكو، واجرى اتصالات مع الخارجية والحزب،وخلص الوفد الى إن موسكو تنظر بارتياب لموقف المنظمة الوسطي من مشروع ريغن، وكذلك الى تنامي العلاقات السرية مع مصر والعلنية مع الاردن. ولقد استمعت وانا في حضرة السيد عرفات الى عبارة «إن لم تتدارك الامر فاننا نندفع الى مأزق في العلاقات مع موسكو » .

كان رد فعل عرفات هادئاً، اذ انه قال سأوضح الموقف للرفاق، وسأطلب منهم التوسط مع سورية لتنقية الأجواء. كانت استخلاصات الوفد التمهيدي غير دقيقة، وغادر عرفات موسكو دون تنازلات عن توجهاته الرئيسية،بل إنه أفصح عن إن القيادة السوفياتية أبدت تفهما عميقا لخطواته السياسة .

لقد انتهى شهرالعسل العاطفي بين عرفات والسوفيات منذ اللحظات الأولى التي ووري فيها جسد بريجنيف التراب. كانت الأمور في حيزها السوري الفلسطيني تتفاعل بإتجاه عاصفة داخلية حتمية تنبئ بانشقاق وشيك في جسم الحركة الفلسطينية المثقلة باعباء الانتصار المفجع في لبنان، وأقول المفجع لان ثمنه على الارض اللبنانية كان باهظاً، أو لأن ثمنه فيما بعد، كان أبهظ بكثير. كان انتصارا من نوع غريب، وبوسع الشعراء ان يستلهموا منه معلقات، وصوراً إبداعية مدهشة، وبوسع ياسر عرفات البراغماتي أن يستفيد منه لتكوين رصيد جدي بعد ذلك الرصيد الذي التهمته نار الحرب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد خرج عرفات من بيروت قاصداً أثينا ولسان حاله يقول : « إنه بهذا الاختيار سيقض مضاجع الضمير العربي الواقع تحت وطأة تأنيب مرير » (ا). وحين وصل للمشاركة في قمة فاس، كان الجميع، جميع الملوك والرؤساء في استقباله باستثناء حافظ الأسد، لم يكن بالامكان توقع، أو تخيل وجود الرئيس السوري ضمن مستقبلي عرفات على ارض المطار المغربي، ذلك ان للأسد قراءة خاصة به لانتصار عرفات في لبنان. كان الرئيس المحنك يشعربألم عميق لوقوعه تحت مفارقة غاية في الغرابة والايذاء، مفارقة تقول إن العزيمة اللبنانية والفلسطينية صمدت وانتصرت، وإن الآلة العسكرية السورية في لبنان تحطمت، وإن رمز هذه المفارقة الساطع هو ياسر عرفات الذي لا يكف عن الإشارة الى انتصاره المدوي كان الاستحقاق المؤجل «لانتصار لبنان » هو الانشقاق،ولست هنا في معرض التوسع في هذا الامر إذ اني حريص على عدم مغادرة الساحل السوفياتي المحيط بالبحيرة الفلسطينية .

شعرت موسكو، الحريصة على تقوية نفوذها في الشرق الأوسط من خلال البوابة السورية، بأنها تواجه مأزقاً في الاختيار . . كانت مرتاحة الى الظرف الذي وفر لها قدرة على الامساك بالنقيضين السوري والفلسطيني في قبضة واحدة، وكانت حريصة على تفادي الاختيار الحاسم بين هذا وذاك. كانت سوريا بالنسبة لموسكو مشروع تعزيز استراتيجي لنفوذها المتآكل في الشرق الاوسط بعد الضربة المصرية، وكانت منظمة التحرير، كرمز لحركة التحرر العربية، توفر بجدارة عالية الغطاء المعنوي الضروري لحملة العودة الى الشرق الأوسط، او على الأقل الحفاظ على ما تبقى من مواقع سوى ان هذه المتطلبات السوفياتية كانت، وعلى نحو بديهي، عرضة للإصطدام مع احتياجات دمشق اللامتناهية، سواء في الحفاظ على سيطرتها الفعلية على البلد المجاور – لبنان، أو في تحقيق طموح ملء الفراغ الناجم عن عزلة مصر وانشغال العراق في الحرب مع ايران، لم تكن سوريا مشروعاً بسيطاً بأية حال، فضلاً عن أن للأسد لعبته الخاصة التي يحتاج من أجلها إلى سياسة خاصة تستفيد من دعم موسكو، وتسعى، في الوقت نفسه، الى كسب رضى واشنطن كانت موسكو ضرورة استراتيجية، وواشنطن ضرورة تكتيكية، ولا مكان غير سوريا، ولا رجل غير حافظ الأسد يستطيع اختراع لعبة كهذه بين هذين الحدين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت موسكو تراقب بقلق التطورات المأساوية المتسارعة على الجبهة السورية الفلسطينية. لقد وجدت لنفسها، بادىء الأمر، دوراً معقولاً من طراز الأدوار التي كان يخترعها ياسر عرفات لنفسه حال نشوء خلاف بين طرفين صديقين الا وهو الوساطة، غير ان السوريين كانوا حاسمين في امرهم تجاه الساحة الفلسطينية، وكانوا حريصين بشدة على ان ينزعوا غطاء موسكو عن رأس عرفات .

توصل السوفيات الى صيغة مناسبة في تحديد مستوى العلاقة :

« اندفاع ضخم باتجاه سوريا يتناسب مع حجمها في حيز الطموح السوفياتي الشرق اوسطي، وتخفيض حرارة العلاقة مع الفلسطينيين الى ادنى مستوى ممكن ».

غير ان موسكو في الوقت نفسه منحت الفلسطينيين مأثرة عدم الاعتراف بالمنشقين، وكان ذلك اقصى ما فعلته لعرفات في محنته الصعبة، والتي كانت الثانية بعد بيروت .

خرج ياسر عرفات بأعجوبة من طرابلس، بعد الحصار الثاني الذي وقع اثر تكريس الانشقاق، وفي احتدام المعركة بشأن الجغرافية السورية. كان الرئيس المصري صاحب الفضل في خروجه الآمن من جوف النار الى شاطئ الأمان. في ذلك الحصار لم يستطع الصديق السوفياتي تقديم أي معونةجدية للقائد المحاصر في ميناء صغير على حافة المتوسط. كان عرفات، ووزير خارجيته قد طلبا من القيادة السوفياتية أن ترسل ولو موظفا ثانوياً من موظفي سفارتها في بيروت لتغطية انتقال عرفات من غرفته في الميناء الى ظهر السفينةالراسية في عرض البحر، ولقد إعتذر السوفيات عن ذلك، وسمع وزير الخارجية الفلسطينية آنذاك عبارة شبيهة بتلك التي سمعها عرفات في حصار بيروت :

« دبر حالك» .

وبالفعل دبر المحاصر شؤونه. وبوسع أي دولة أو أي فرد في العالم أن يدعي مساعدة عرفات في الخروج من طرابلس باستثناء الأصدقاء السوفيات .

كان بديهياً ان تلقي باخرة عرفات مراسيها على شواطيء مصر وان يحدث ذلك اللقاء المثير بين سيد عاصمة (كامب ديفيد) حسني مبارك، ورمزالمعارضة الشديدة لها آنذاك ياسرعرفات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم تكن زيارة عرفات لمصر كما قدم لها في حينه مجرد لفتة اخلاقية تجاه رئيس وبلد ساعداه على الخروج من فم الموت، وانما كان في حقيقة الأمر ووفق ما تم البناء عليه فيما بعد خياراً سياسياً أقدم عليه الرئيس المنكوب بفقدان جغرافيا الصراع المسلح مع اسرائيل من اجل توفير مكان في جغرافيا الحل مع اسرائيل. لا مكان انذاك لهذا النوع من الفتوح سوى مصر التي وفرت لياسر عرفات، ولو على نحو مؤقت وغير ناضج تماماً تعويضاً مجزياً عن الخروج من الفردوس السوري، وامتداده اللبناني. إن عرفات يستطيع من القاهرة امتطاء قطار الشرق الذهبي الذي يعبر الرياض وعمان وبينهما بغداد،وربما على نحو ما الى ما هو ابعد من ذلك بكثير

كانت موسكو أندروبوف قد دخلت حالة من الرقاد بحكم احتجاب سيد الكرملين، ثم اعلان وفاته فيما بعد. وبحكم قدوم عجوزمريض هو المرحوم شيرنينكو ظلت العلاقة الفلسطينية - السوفياتية على حالها من البرود الى أن جاء غورباتشوف حاملاً معه وعود التغيير الشامل، وتواضع الدولةالعظمى، وأحجامها عن حشر أنفها في أمور الأخرين بمن في ذلك الفلسطينيين. في هذه الفترة حضرت الى موسكو وبدأت العمل .

الزيارة الاخيرة

موسكو في ربيع العام ١٩٨٨، تتألق تحت شمس ساطعة، وتتلون بخضرة حجبها الشتاء القاتم والطويل. لقد حضرت الى هذه المدينة الكبيرة للمرة الثالثة، الأولى بمناسبة حزينة وهي تشييع ليونيد بريجنيف الذي خلع عليه فيما بعد لقب رجل الجمود، والثانية في مثل هذا الوقت من العام ١٩٧٨ كرئيس لوفد فلسطيني متواضع دعي للمشاركة في احتفالات لجنة التضامن والصداقة بمناسبة يوم الأرض. في المرتين السابقتين لم يخطربيالي انني سآتي يوماً من أجل الإقامة الطويلة في هذه المدينة الكبرى. وصلت عند الساعة الثانية والنصف صباحاً على طائرة الايروفلوت القادمة من تونس في نهاية اذار، ولقد تعرفت منذ اللحظة الأولى على نموذج من نماذج المتاعب في عاصمة القطب الآخر من الكوكب. لقد تأخرت طائرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الايرفلوت ست ساعات. كانت مهمتي العاجلة كممثل لمنظمة التحرير في موسكو تتركز في التحضير للزيارة الوشيكة التي سوف يقوم بها رئيس اللجنة التنفيذية. لم يكن هنالك موعد محدد لهذه الزيارة، ولقد حاولت الحصول على اشارة تقريبية لوقت الحضور الاّ إنني لم اوفق في ذلك. مضى اسبوعان على وجودي في موسكو، حاولت خلال هذه الفترة التعرف على المدينة والناس. كنت اقيم في فندق يخص اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وكنت أشعر باغتراب انساني مروع. كان كل مايحيط بي ينبيء عن قحل اجتماعي مؤرق، غيراني اهتديت الى جزيرة خضراء صغيرة هي بيت فلسطيني وادع يعيش فيه اربعة اشخاص: طفلتان هما (منى ومي ووالدهما سعيدابو عمارة وأمهما انتصار). لقد تسنى لي في صحبة هذه الاسرة قضاء وقت لطيف ما زلت اذكر تأثيره العميق في نفسي. في ذلك البيت الصغير حدث أول لقاء بيني وبين أحد المسؤولين من جهاز اللجنة المركزية للحزب. أبلغني قبل ان تبلغني وزارة الخارجية بان زيارةعرفات قد تقررت، وان آخر الموافقات الرسمية عليها قد صدرت من الحزب صباح اليوم. الزيارة اذن ستبدأ مساء غد ويتعين على ممثل منظمة التحرير الفلسطينية ان يعرف بعض الامور، وان يعرضها على رئيسه قبل بدء المحادثات من اجل ان تكون الامور واضحة بالقدر الكافي .

قدم لي المسؤول الحزبي عرضاً شاملاً وتفصيليا للوضع السياسي الداخلي في البلاد. ومع ان ما قاله يندرج « الآن » تحت بند البديهيات، الا انه في ذلك الوقت بدا جديا ومخيفاً، لا أود هنا ان اعرض نسخة لمحضر اللقاء، ولكني اكتفي بايراد عناوين افكاره .

فيما يخص الحزب الشيوعي افصح المسؤول الحزبي عن ان جهات عديدة ومتنفذة تشدد الضغط الاعلامي والتعبوي ضد التجربةالاشتراكية،وهذه الجهات اختارت، تكتيكيا، ستالين وسياساته القمعية كمدخل لهجومها المركز، استخدم عبارة «اليوم ستالين، وغدا لينين، وبعد غد من يدري لعل الحزب كله يكون الضحية ». اننا نندفع حاليا وبسرعة قصوى نحو مواجهة حادة مع الشارع، وحين لا يكون باستطاعة الحزب ان يثبت وجوده مستخدماً كل وسائله السلطوية فذلك يعني اننا سنخوض معركة شاملة ذات عشرات المحاور، معركة مع النزعة المتنامية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للحرية المفتوحة ومعركة مع الالحاح الشعبي بضرورة تجربة طريق اقتصادي آخر، ومعركة مع المسيحيين لاستعادة الكنيسة والتراث، ومعركة مع المسلمين لإستعادة المسجد والثقافة، ومعركةمع اليهود على نفس الأساس، ناهيك عن المعارك التي لا بد وان يفتحها لنا الامريكان والغربيون عموما .

إن أوساط الحزب متخوفة من كل هذا، ولكن يتعين عليكم، فلسطينيين وعرباً، ان تعرفوا مبكرا بأن موسكو القديمة آخذة منذ قدوم غورباتشوف بالتغير. بوسعكم ان تستفيدوا من بعض الجوانب، وان تدفعوا ثمناً لبعض الجوانب الأخرى. بوسعكم الاستفادة من عزل الايديولوجيا عن السياسة كمبدأ اقره الحزب والدولة، وهذا من شأنه ان يخفف سطوة بعض الاوساط السلطوية في موسكو على قراركم السياسي. كذلك بوسعكم الافادة من الاتجاه المتعاظم هنا للتعاون مع الغرب، وبشكل خاص مع الولايات المتحدة لحل المشاكل الاقليمية في جميع انحاء العالم. لا اخفي عليك ان افغانستان تحتل بالنسبة لنا أولوية ملحة، ولكن في الوقت نفسه لا تنس ان كثيرا من فرص الحل في الشرق الاوسط ضاعت بحكم احتداد الاستقطاب بيننا وبين الامريكان. ان التعاون الوليد بيننا وبين الادارةالامريكية لا بد أن يؤدي في نهاية المطاف الى انفراج شرق أوسطي .

ولكن هناك أثماناً لا بد ان تدفع، لن تعود موسكو مثلما كانت محطة لكل من يرغب، أو يرى مصلحته في محاربة الغرب تحت أي منطلق كان. قد تكون «فاتورتكم » على هذا الصعيد هي الاقل قياسا لفواتير اشقائكم العرب الذين تعودوا على موسكو كداعم مطلق لهم، ولسوف تدفعون أيضاً ثمناً ملموساً لحرية الصحافة المتكرسة في هذا البلد لأنكم تعودتم ان يكون الاعلام السوفياتي كله لكم. ان هذا الامر لم يعد ممكنا في عهد البروتسترويكا والغلاسنوست. يتعين عليكم ان تعملوا كثيراً من اجل المحافظة على مواقعكم في موسكو، او على الاقل التخفيف من خسائركم المحققة على أرضها. وهنالك امر اخر يجب ان توطنوا انفسكم عليه مبكرا وهو كيفية رؤية موسكو للحل الشرق أوسطي، وللعلاقة مع اسرائيل، وللوسائل التي ينبغي انتاجها لكسر جمود الوضع في الشرق الاوسط .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سوف يسمع عرفات من محادثيه نفيا صريحا لاسلوب الدبلوماسية السوفياتية القديم الذي قادة اندريه غروميكو، ازاء الشرق الأوسط في حقبة الحرب الباردة، والذي يمكن اختصاره بمفردة واحدة « نييت» أي «لا» بالعربية. إن هنالك توجها جديا نحو الحلول الوسط، اي إن مبادرات موسكو الشرق أوسطية لن تعود بنودها كما كانت في السابق شروطا للبحث، او التفاوض، او الحل، وانما ستكون مجرد مرتكزات للسياسة السوفياتية تنطلق منها الى نقطة الحل الوسط. ان تأييد فكرة المؤتمر الدولي ليس لأنه اساس موّقفها الشرق اوسطي، ولكن لانه الوسيلة العملية لحل النزاع، وهنا أحب ان تفهم شيئا انه في حال اقتناع موسكو بوسيلة اخرى غير المؤتمر الدولي من شأنها ان تحقق هدف السلام، أو الاستقرار فسوف تمضي في هذا بلا تردد. اذن افهموا الموقف الجديد، وضعوا سياستكم على اساسه، هنا استخدم عبارة « اذا كنت تريد السفر الى بلد ما فما هو المهم أكثر الوصول، أم الطائرة ؟

إن اجتماعنا هذا ليس رسميا على أيةحال، ولكني اعتبر كل كلمة قيلت شبيهة الى حد بعيد بالمحادثات الرسمية. هنا يريدون سماع عبارة محددة جاهزون للموافقه على قرار ٢٤٢ .

لم يكن الكلام الذي سمعت به شبه رسمي، كان رسميا تماما، ولكن طريقة ابلاغي به هي التي يمكن ان تتيح للمسؤولين الرسميين فرصة أفضل لزرع رغباتهم في حقل الوعي السياسي الفلسطيني، هذه هي طريقة موسكو في التأثير على الاصدقاء والمحاورين، او لنقل الطرف الآخر.

أستدعيت الى وزارة الخارجية لتقديم اوراق اعتمادي الى السيد يولي فورونتسوف النائب الاول لوزير الخارجية. لم يكن ممكناً التشرف بتقديم اوراق الاعتماد الى الوزير ادوارد شيفارنادزه بحكم غيابه آنذاك عن موسكو، ولم يكن ممكنا التطلع الى الكرملين لان العلاقة آنذاك كانت محصورة بوزارة الخارجية. وهنا اشير باختصار الى عناوين مستوى علاقاتنا مع موسكو، في عهد عبدالناصر، حينما اصطحب عرفات معه لأول مرة، وكان ذلك سنة ١٩٦٨. يمكن تسمية تلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفترة بفترة الاتصالات المحدودة. بعد ذلك اتفق على ان يتم التمثيل على مستوى لجنة التضامن الأفروآسيوي، ثم تدرج الأمر بعد ذلك الى تمثيل دبلوماسي أقل مستوى من تمثيل الدولة، ذلك قبل ان تتخذ القيادة السوفيتية قرارها الاخير القاضي بالاعتراف بدولة فلسطين، ورفع درجة التمثيل الدبلوماسي الى مستوى السفارة .

التقيت هناك بالدبلوماسي السوفيتي الشهير والكفوء فورونتسوف، وكان معه، في مكتبه الواقع في الدور السابع في مبنى وزارة الخارجية السيد فلاديمير بولياكوف، المعروف جيداً في منطقتنا على الاقل لانه كان رمز الانهيار الدراماتيكي للعلاقة المصرية -.السوفياتية، حيث كان السفير السوفياتي الوحيد الذي طرد من مصر في حقبة كامب ديفيد. كان هو الوحيد الذي عاد الى مصر كسفير للاتحاد السوفياتي في القاهرة، ثم سفيراً لروسيا الاتحادية في القاهرة ذاتها. كان محط انظار اقدار ملفتة .

تعرفت على السيد فورونتسوف. سألني كثيرا عن الفلسطينيين والعرب ليس من اجل التعرف على معلومات جديدة، ولكن بدافع من ذلك الانقطاع الطويل الذي ضرب العلاقة الفلسطينية السوفياتية، وكذلك العلاقة المصرية السوفياتية. وفي حال انقطاع كهذا يصبح من الصعب القول ان معلومات موسكو الشرق اوسطية كانت سليمة. رحب بي الرجل، ووعد بتقديم كل التسهيلات. لم يكن حديثه كما شعرت به مجرد كلام دبلوماسي مثل ذلك الذي يقال في مناسبات كهذه. كان يظهر درجةلا بأس بها من العطف ربما لكونه يجالس شابا صغيراً يمثل قضية كبيرة، وشعباً تطحنه المآسي والكوارث. ابلغني النائب الأول لوزير الخارجية ان طائرة الرئيس عرفات سوف تحط قرابة السادسة مساء غد في مطار شيريميتيفوادين، وسوف تبدأ المحادثات الرسمية صباح اليوم التالي عند العاشرة في مقر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي في وسط موسكو. الخامسة بعد الظهر لقاء مع الوزير ادوارد شيفارنادزة في وزارة الخارجية، اما اللقاء مع الرئيس غورباتشوف فلم يحدد بعد، او على الاقل كما ابلغني؛ هو لا يعرف .

خرجت من المبنى الضخم الى الشارع المكتظ بالصخب والفوضى. الاف السيارات والشاحنات تسحق بقايا الثلج المتسخ. والمبنى الكبير الذي غادرت، هو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

احد الشواهد الصارخة لعهد ستالين الطويل، والمليء بالمنجزات الكبرى والمآسي الفظيعة، انه واحد من العمارات السبع التي امر القائد المنتصر في الحرب العالمية الثانية، الالمان ببنائها في اماكن متفرقة من موسكو، لتكون شهادة لا يمحوها الزمن على انتصار كلف الشعوب السوفياتية عشرات الملايين من القتلى. ولا اغالي لو قلت انه كلفها مصيراً مؤجلاً بالانهيار. هذا المبنى الذي تدار منه الدبلوماسية السوفياتية في جميع انحاء العالم، ويعج بالاف الموظفين والخبراء، اصبح الآن يحمل اسم وزارة خارجية روسيا الاتحادية، واصبحت من ابرز مهماته ترتيب علاقات مفيدة مع أولئك الذين بنوه، وهم في قاع انهيارهم، مع الالمان الذين يستطيعون الان بعد عشرات السنين القول انهم هم الذين ربحوا الحرب العالمية وليس ستالين .

توجهت الى مطار موسكو في الظهيرة لاستقبال الوفد التمهيدي المكون من نصف اعضاء اللجنة التنفيذية، وبعد وصوله بساعات قليلة، سوف يصل وزير خارجيتنا فاروق القدومي. يتعين علي استقبال الجميع وتوفير اقامتهم الهادئة والمريحة في كنف الضيافة السوفياتية المغدقة. لقد خصص السوفيات لأعضاء وفدنا أجنحة فاخرة في فندق اكتيابر الانيق الذي يشي لونه الاحمر بقدرةالاشتراكيين على محاكاة الرأسماليين في البذخ والفخامة .

يقع هذا الفندق على حافة اكبر شارع في موسكو يسمى ليننسكي بروسيكت. لست هنا في معرض الحديث عن الفندق بلغة سياحية، ولكن اود ان أقول ان الفندق محروس بادق وارقى وسائل الحماية الالتكرونية. لم يكن سهلا على أي كائن بشري لا يحصل على تصريح من الحزب دخوله، واحيانا التوقف بسيارته على بعد مئة متر منه. كان مهيبا ومخيفا، وكانت صورة لينين وهو يحيي جموع الشغيلة تزين قاعاته الفسيحة.

وكنت ترى في الممرات وحجرات الادارة والقاعات رجالا كبيري السن تبدو على وجوههم اما علامات المرضى، أو علامات الشفاء من مرض. كان هؤلاء هم قادة الاحزاب الشيوعية في العالم الثالث. كان بعضهم يمكث بضعة أشهر في

هذا الفندق الذي تكلف الحجرة المماثلة لحجرته في الفنادق الغربية اكثر من ٥٠٠ دولار في الليلة الواحدة ، وكانت الخدمات التي تقدم لهم تفوق تصور اي مؤسسة فندقية في العالم، وكان ضيوف الدولة ممن يحظون بعطف الحزب الشيوعي يقيمون فيه – وبعد فترة وجيزة فتح هذا الفندق ابوابه للاستثمار، وحين اضطررنا الى محاولة اسكان ضيوفنا الفلسطينيين البارزين فيه في وقت لاحق قيل لنا : «آسفون جدا كانت لدينا غرفة وسبقكم اليها الممثل العالمي شين كونري ».

في اليوم التالي وعند الخامسة والنصف مساء تجمع وفدنا الضخم مع المستقبلين السوفيات في قاعة الشرف الكبرى بمطار شيريميتيفوادين. كان اناتولي دورينن على رأس المستقبلين السوفيات،ولا بأس من التوقف قليلاً عند هذه الشخصية الشهيرة التي امضت سنوات طويلة في واشنطن لهندسة العلاقة السوفياتية الامريكية في احقاب التوترالدولي، والتطلعات الواهية نحو الوفاق. انه اشهر سفير في العالم طويل القامة (متران)، ضخم الجثة يظهر ولعاً متحرراً بالتحدث باللغة الانجليزية، ويفتعل قهقهات متصلة بدا لي انها لمجرد التدليل على انه امضى فترة طويلة في واشنطن. كان معه أركان دائرته في الحزب التي تحمل اسم « دائرةالعلاقات الخارجية »، وكان معه ايضا اركان وزارةالخارجية يتقدمهم يولي فورونتسوف، وممثلون عن الكي جي بي، ولجنة التضامن الأفرو–آسيوي .

توجه موكب الزعيم الفلسطيني الى تلال لينين، حيث يستضاف هناك زوار موسكو الكبار،ومن فوق الروابي الخضراء يطل الساكن في القلل الانيقة على موسكو كلها، يرى نهر موسكو وقد كسر طبقة الجليد المتراكمة طيلة الشتاء الطويل ومضى في جريانه الأزلي. ومن هناك يرى الساكن قباب الكرملين، وابراج كنائسه الذهبية التي أنشأها القياصرة في عهد تحالفهم الراسخ مع الكنيسة، ويرى ذلك السور الأحمر الذي يطوق اجمل بقعة معمارية في الكون، ويعزل مباني الكرملين الهائلة عن الساحة الحمراء حيث يرقد لينين، وحيث تدق اقدام العسكرية السوفياتية ارضها بقوة في كل عام .كان ذلك منذ انتصار ثورة اكتوبر قبل سبعين سنة، وحتى الانهيار الأخير. انني اكتب هذه السطور وكل هذا المشهد بروحه ومعانيه وايقاعاته ينتمي الى ماض سحيق يبدو، وان كانت مساحته الزمنية قليلة، الا انها في العمق لا متناهية .

قبل ان ينفض (الخيتار) عن نفسه غبار السفر سأل عن الخط الاحمر، انه بحاجة ماسة الى مكالمة مع تونس. لقد انقطع عن مقر قيادته ساعات طويلة، انه دائم القلق على ما يجري وراءه، هنالك الكثير مما يحتاج الى الاطمئنان عليه. سألنا مضيفنا عن الخط الأحمر، أجابونا وماذا يعني الخط الاحمر ؟كلف أحد اعضاء السفارة بانجاز الأمر مع المضيفين، اعتذروا عن توفيره هذه الليلة على الاقل ، كان هذا الاعتذار كفيلا باثارة الرجل الذي يجاهد بصعوبة للحصول دائما على وضع الرئيس في تعامل الآخرين معه، لقد غضب عرفات لعدم وجود الخط الاحمرفي فيلته وكاد الامر ان يتطور الى أزمة بروتوكولية سوى انني استطعت بمجهود ان اعلق الامر برمته على شماعة البيروقراطية السوفياتية لاتفادى شبهة الظن بأن في الامر بعض استخفاف برئيس الفلسطينيين .

مثلما ابلغنا من قبل وزارة الخارجية فلا عمل رسمياً هذه الليلة ، عشاء وراحة، وبوسعنا الافادة من الوصول المبكر للسيد عرفات بتنظيم اجتماع داخلي اعرض فيه ما حصلت عليه من معلومات امام الوفد، بعد العشاء الذي شاركنا فيه رجلان لم اكن اعرف الى اي جهاز ينتميان. طلب الرئيس عرفات من اعضاء الوفد السماح له بخلوة مع هذين الرجلين، استغرق اللقاء قرابة ساعتين، ولو ان ضابطي الكي جي بي لم يعتذرا من اجل اعداد تقريرهما لبقيا مع عرفات في الاجتماع المغلق حتى الصباح. كان عرفات يعرف ان موسكو لم تكن ذات مزاج موحد تجاهه، هناك من كان يدعو بشدة الى التعاون معه ومساعدته، وهنالك من كان يحارب بشدة لابعاد المناضل الفلسطيني عن دائرة الحظوة الشيوعية الدافئة . كان معروفا على نطاق ما ان الشخصيات ذات المواقف السلبية من عرفات تجتمع غالبا في جهاز اللجنة المركزية للحزب . اما اولئك الذين يملكون معلومات كافية، واولئك الذين يحتكون بالعالم الخارجي، وبخاصة رجال وزارة الخارجية كانوا يرون في عرفات مفتاحا للفلسطينيين الذين هم بدورهم مفتاح مهم في الشرق الاوسط. كان عرفات عارفا بالتحريض المنتظم الذي كان يمارس ضده في العديد من دوائر موسكو والذي كان يسهم فيه على نحو فعال بعض الفصائل الفلسطينية التي صدّقت نفسها في لحظة ما ان باستطاعتها الاطاحة بعرفات تحت ضغط الشعارات الكبيرة، ومن ضمنها شعار التحالف الاستراتيجي مع موسكو. كذلك كان عرفات يعرف ان العناوين البارزة لانتقادات جهاز اللجنة المركزية له هي من النوع الاعلامي، او التعبوي غير الجدي في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجوهر، اذ ان المواقف السلبية منه، كانت في الاساس، نابعة من عدم تيقن اقطاب الحزب، المتعاطين مع الشرق الاوسط من ولاء عرفات الراسخ والمضمون لموسكو، في كل الظروف، الى جانب ان الموقف السلبي من عرفات، كان على نحو ما، اشارة ضرورية لسوريا .

عقب مغادرة رجال الكي جي بي مقر عرفات اجتمع الوفد، وامكن لي ان اعرض باسهاب ما لدي من معلومات واستخلاصات ، كان كلامي يبدو غريباً لدى بعض الذين يحفظون موسكو القديمة عن ظهر قلب. اما البراغماتيون وكان من ضمنهم، ويا للمفارقة، الشاعر الشهير محمود درويش، فقد تفهموا ما قلت وايدوه .ان محمود درويش الذي انتخب عضوا في اللجنة التنفيذية من اجل تعليق وردة ثقافية على صدر القيادة السياسية لم يكن مجرد شاعر، او رجل يتعاطى الثقافة والابداع الادبي، انه شاعر عاطفي ذو خيال وأفق، وفي نفس الوقت سياسي براغماتي قلما وجدت حالة شبيهة بحالته على صعيد نجوم الثقافة والابداع. عند التاسعة من صباح اليوم التالي حضر الرفيق بروتنس مساعد الرفيق دوبرينن للمشاركة في ما يسمى بافطار مع ياسر عرفات ، كانت مهمة بروتنس، مثلما بدت واضحة في لحظتها الاولى، مهمة استطلاعية لمعرفة ماذا يريد عرفات من موسكو، وبروتنس هذا رجل ذو مزاج حاد، ولا أظنه ممن يكنون حبا عميقا للزعيم البراغماتي ياسر عرفات. مع ذلك كان لا بد من ان يقوم بدور المضيف المهذب ويسأل ضيف موسكو بشكل مباشرماذا يريد من غورباتشوف ؟ ان ياسر عرفات لا يحب اسئلة من هذا النوع، وبالتالي هو دائماً لا يجيب كما ينبغي على هذا النوع من الأسئلة. عرض ياسر عرفات ما لديه بطريقته الخاصة . ايقن بروتنس ان قائد حركة التحرر الوطني الفلسطيني ليس في وارد طلب مساعدات مثل الاسلحة والدورات، وما الى مثل هذا النوع من الطلبات التي كانت تلبى في موسكو فيما مضى ، والتقط من حديث عرفات خيوطاً كافية لنسج موقف سياسي متعاون مع التوجهات الجديدة لموسكو. انسحب بروتنس بعد ثلث ساعة من حديثه مع عرفات، وتوجه الى اللجنة المركزية لوضع رئيسه دوبرينن في صورة اللقاء .

وصل عرفات ووفده الضخم في العاشرة الا خمس دقائق، الى مقر اللجنة المركزية، عبر غرفة السكرتارية في طريقه الى جناح القائد السوفياتي ،استوقفته

السكرتيرة، هنا بدا الامر ليس مجرد عمل وظيفي تقوم به سكرتيرة حرفية ازاء شخصية كبيرة وصلت قبل الموعد بخمس دقائق، كان الباب موصدا باحكام والرفيقة السكرتيرة تمارس عملها الوظيفي بميكانيكية شيوعية مألوفة، لم يكن دوبرين يعرف ان ضيفه قد وصل، وانني على ثقة من ان عرفات لو شعر بأن مضيفه تعمد موقفا كهذا، او انه عرف وتغاضى لغادر المكان، او انه انهى الزيارة. للمرة الثانية وجدت نفسي اعلق خطأ واضحاً على شماعة البيروقراطية السوفياتية، وسمعت من عرفات عبارته المكابرة التي يطلقها في مواقف مماثلة «من اجل فلسطين يتعين علينا ان نتحمل».

لم يكن ولع دوبرينن بالتحدث بالانجليزية والمبالغة في اظهار اللكنة الامريكية في تصرفاته التفصيلية، وحدها المؤشر الحقيقي إلى التوجه الجديد لموسكو. حين دخلنا مكتب سكرتير اللجنة المركزية طالعتنا ومن خلف واجهة زجاجية، صورة تزين غلاف مجلة امريكية يظهر فيها ميخائيل غورباتشوف في حالة عناق مع رونالد ريغان وفي خلفية الصورة تداخل بين العلم الامريكي ذي النجوم الخمسين، والعلم السوفيتي الاحمر.

طلب المضيف من عرفات ان يبدأ الحديث، وكعادته حلّقَ عرفات في فضاء الشرق الاوسط اللامتناهي مفرداً المساحة الاوسع في الحديث لموضوعه المفضل – لبنان – تحدث عرفات آنذاك عن الطوفان الذي انطلق من لبنان، ولا احد يعرف أين يتوقف، واستعرض صورا بطولية تشي بعبقرية الاداء الثوري في مواجهة العدوان الاسرائيلي – الامريكي، وتحدث عن خذلان الآخرين . منذ الدقائق العشر الأولى لم يُخفِ المسؤول السوفياتي ضجره من الحديث حول امر يبدو ثانوياً جداً في سلم الاهتمامات السوفيتية الشرق اوسطية الجديدة. ثم ما علاقة رجل عمل زهاء ربع قرن سفيرا لبلاده في واشنطن بمعركة ناجحة خاضها الابطال في عين بعال مثلا، هكذا كانت ملامحه وحركاته الظاهرة تعلن. لم يكن عرفات مكترثاً لعدم تحبيذ مضيفه الخوض في الشأن اللبناني. كان يقرأ بدقة انفعالات دوبرينن، الا انه خلال عرضه المستفيض لم يغفل بث بعض الشراك من اجل ان يوصل فكرة، او يستدرج تعقيباً. وصل عرفات في تحليقه المتمادي اخيرا الى النطق بكلمة ...... اما فيما يخص الشرق الاوسط، وهنا انتفض دوبرينن ليقول بحماس هذا ما يهمنا .

لم يأت عرفات على اي جديد دراماتيكي. لقد حرص على تحديد الاستعداد للتعاون مع أي جهة تستطيع فتح ملف الشرق الأوسط من جديد. انعدام الجديد في عرض ياسر عرفات. كان مبعثه الحذر من الطرف الأخر. كان يعرف ان موسكو تتغير، وكان حريصا على ان يدخر استعداداته للمساومة حول اشياء كثيرة الى ما بعد اتضاح الملامح الرئيسية لسياسة موسكو في عهد البيرسترويكا.

الجديد كله جاء هذه المرة على لسان دوبرينن، اذ كانت افكاره الرئيسية على النحو التالي :

– هناك تفاهم امريكي سوفياتي مبدئي على التعاون من اجل حل المشاكل الاقليمية في العالم، ومنها بالطبع مشكلة الشرق الأوسط .

لا تغيير في منطوق مبادرة بريجينيف تجاه الشرق الأوسط، التغيير في كيفية العمل. هنا اشار دوبرينن الى ضرورة التوصل، مع الامريكيين والاسرائيليين، الى نقطة وسط، وقال بصيغة تكاد تكون حاسمة : « لا حل دون حل وسط، وموقفنا يهمنا نحن ولا نستطيع باي حال ان نطالب احداً بالالتزام به» .

– من الصعب ايجاد حل خارج اطار قرار ٢٤٢، ومن الصعب على أي طرف ان يشارك في عمليات التسوية دون الموافقة على هذا القرار .

كان دوبرينن يعرض الموقف السوفياتي بطريقة تجنح، في كثير من الحالات، الى اسلوب الاملاء حتى أنه، وفي مرات عديدة، تجاهل بعض المحاولات، من جانب اعضاء الوفد، لاستجلاء بعض الامور الغامضة. لم يكن لقاءاً سلساً بأي حال، لقد بدا لي، وقد كنت على اطلاع كاف، على مدى قلة شعبية عرفات في اوساط اللجنة المركزية للحزب الشيوعي انذاك، ان طريقة تصرف دوبرينن كانت بفعل توجيه معين من جانب بعض مستشاريه الذين لهم باع طويل في التشويش على عرفات، واظهاره كرجل مراوغ، واكثر من ذلك كرجل لا يصح ان يوثق به من قبل موسكو . مع ذلك، فان الافكار التي طرحت، رغم كونها تشكل ابتعادا عن الأسس النظرية، والتطبيقية، للدبلوماسية السوفياتية في عهد غروميكو، كانت ملائمة تماما لياسر عرفات، اذ انه كان يتطلع الى فتح الملف أولا، والنأي بالشأن الفلسطيني عن دفع ثمن لعبة الاستقطاب الدولي ، ومحاولة الافادة من المزايا قدر الامكان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد كان عرفات سعيدا بالكثير مما سمع، واضيف انه ربما كان اكثر سعادة باستنتاجه لما بين السطور. كان موضوع الشرق الاوسط من المحرمات الامريكية، ومن غير المسموح ان يقترب السوفيات منه. كان غروميكو اكثر العارفين بهذه القاعدة البديهية والراسخة، لذا كان حريصا على اختصار الطريق بكلمة لا ..، لا لكل ما هو امريكي من مبادرات او اقتراحات، ولم تكن « لا » غروميكو كما كان يصورها الاعلام السوفياتي المتخلف، مظهرا من مظاهر الدبلوماسية السوفياتية المتجمدة، وانما كانت في حقيقة الامر خطاً ضرورياً للدفاع امام الاستحواذ الامريكي، وحاجة موسكو في الوقت نفسه الى تجنيد أنصار فاعلين يساعدونها في تحقيق حلم تواجد آمن في الشرق الاوسط.

كانت الدبلوماسية السوفياتية جاهزة لمرونة هائلة، ولكن في سياق اكثر شمولية من حيزالشرق الاوسط، وايضا في حال ظهور بوادر تشجيع امريكية، ومن ينسى بيان فانس – غروميكو الشهير، الذي اوشك ان يكون بداية لتفاهم دولي فعال، يؤدي الى حل شامل لمشاكل الشرق الاوسط. كان عرفات سعيداً بنبأ التفاهم الاولي بين الامريكيين والسوفيات حول التعاون في المسائل الاقليمية.

رغم كل ملاحظاته المريرة على السوفيات وضعف استجاباتهم الفورية، لاستغاثاته، ابان الازمات العاصفة التي كانت تواجهها المنظمةعلى الدوام، فانه كان شديد الثقة بجدارة الدولة العظمى بأن تكون مفاوضا اميناً باسمه امام الامريكيين، وخاصة في مرحلة الاغلاق الامريكي المطلق عليه .

لقد وضع في جيب غروميكو ورقة الاستعداد الفلسطيني للموافقة على قرار ٢٤٢ في وقت مبكر، وابلغه انها ورقة ثمينة جداً بالنسبة للفلسطينيين، وقال له: إن حصلت ايها الرفيق الصديق على ثمن مجزٍ لها فبوسعك التصرف باسمنا، وان لم تحصل على شيء بوسعك حينئذ ان تعيد الورقة الى اصحابها « ولا مين شاف ولا مين دري ». على ضوء هذه الواقعة السريةصدر البيان الامريكي – السوفياتي الشهير الذي سحب في اليوم التالي، فاعاد غروميكو للفلسطينيين ورقتهم دون ان تحترق، او تفقد مفعولها في عمل تكتيكي رفيع المستوى مع الامريكيين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان عرفات سعيدا بحكاية الحل الوسط، ليس لمجرد ولعه بالوسطية، وانما لان اعتناق السوفيات لفكرة الحل الوسط تنطوي على امر حيوي، الا وهو ولادة مساحة للعب والحركة خارج دائرة « لا » غروميكو الشهيرة. ان الذهاب الى حل وسط يعني جهداً سياسيا واقتراحات مضادة وتحفظاً فلسطينياً، ثم موافقة، ثم نهاية المطاف حركة جديدة جدية باتجاه الحل . ومن خلال هامش كهذا لن يعدم عرفات امكانية اكتشاف منافذ، ومسامات يتسرب منها الى جوهر العملية برمتها .

وكان عرفات سعيدا بحكاية ٢٤٢، اذ اعتبر عرض دوبرينن بمثابة اقتراح اكثر جدية من اقتراحات اصدقاء اخرين اقل وزنا من القطب السوفياتي، فضلاً عن انه اقتراح لم يأت في معرض تجنيد الفلسطينيين لمصلحة الموقف السوفياتي. كما كان يحدث في الماضي، وانما جاء في سياق آخر هذه المرة الا وهو التفاهم الامريكي – السوفياتي، الأمر اذن يستحق المجازفة، يستحق التفكير جديا في ايجاد مخرج من المأزق الذي وضع الفلسطينيون انفسهم فيه حين بالغوا في مهاجمة القرار ٢٤٢، واكثر من ذلك، حين اعتبروا مجرد قراءته، او بحثه شيئا يلامس حافة الخيانة الوطنية.

وهنا اسمح لنفسي ان اسجل نقطة تتعلق بهذا القرار، وكيفية تعامل عرفات معه حين لم يعد هنالك من مفر سوى الموافقه عليه، او على الاقل تخفيف حدة رفضه، والابتعاد عنه، ذلك حدث حين كان المجلس الوطني الفلسطيني يبحث في امرالبيان الختامي الذي سيصدر عنه في اي دورة من دوراته. كان لا بد ان يتضمن البيان لعنا ساخطا على القرار التآمري. لم يكن عرفات بقادر على تحويل الدفة تجاه هذا القرار بنسبة كافية، لذا ادخل على النص عبارةاضافية هي بالضبط : إن منظمة التحرير الفلسطينية ترفض القرار ٢٤٢ لانه يتجاهل الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني . ان كلمة (لأنه)تعني فتح الباب لقبوله معدلا، وحاول الفلسطينيون تعديل القرار، ولكنهم لم يحققوا تقدما يذكر على هذا الصعيد، ذلك ان قرارات مجلس الأمن ليست قابلة للتعديل، بل ان استصدار قرار جديد يحمل معنى مختلفاً يكون اكثر سهولة. اذن بدأ عرفات يفكر منذ تلك اللحظة بصيغة القبول العلني بـ (٢٤٢). بدأ يفكر بالحصول على تذكرةدخول الى النادي الشرق اوسطي ، الذي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما زال محكم الاغلاق ضده، وحين تتولى الدولة العظمى الثانية مقاولة من هذا النوع فان الفرص تكون اعلى واجدى .

عقب الغداء طلب الرفيق فلاديمير بولياكوف الاختلاء بالسيد ياسرعرفات لمدة دقيقة واحدة، فأقترحت عليه ان تتم هذه الخلوة القصيرة قبل مغادرته، فلقد حرصت على الا اثير شهية الفضول الفلسطيني لو اتخذت الخلوة صفة الاجتماع المغلق . واثناء ارتدائه معطفه قبل المغادرة قال بولياكوف لعرفات لقد جرى تعديل على البرنامج ، سوف يستقبلك الرئيس غورباتشوف الساعة الرابعة، أي بعد ساعتين من الآن، واردف قائلا انه راغب في لقائك على انفراد، والترتيبات على النحو التالي: بعد وضع اكليل الزهور على ضريح لينين تتوجه بمفردك الى الكرملين ، اما باقي اعضاء الوفد فسوف اصطحبهم الى مبنى وزارة الخارجية انتظارا لانتهاء اجتماعكم مع الأمين العام، حيث سيكون هناك لقاء مع الرفيق ادوارد شيفارنادزه بعد لقاء الامين العام. كان التعديل المفاجيء لبرنامج الزيارة مبعث حرج شديد لياسرعرفات ، وكانت رغبة الأمين العام باجتماع منفرد تعني استبعاد باقي الزعامة الفلسطينية عن اللقاء التاريخي. لم يكن لدى عرفات وقت كافٍ لمعالجة الموقف على طريقته المألوفة .

إن وفود منظمةالتحريرغالبا، وربما دائما تكون سببا لارباك المضيف، وفيما يتعلق بموسكو آنذاك فان الحاضرين ليسوا وفداً بالمعنى المتعارف عليه، بل انهم قيادة مكتملة، انهم ممثلو الفصائل جميعاً، أي ان وفدنا يجب ان يضم سبعة أعضاء من اللجنة التنفيذية كحد ادنى، ونظرا لضخامة العدد كان المضيفون أحياناً يبدون رغبة تشبه الاشتراط بالاكتفاء بعدد محدد لحضور المحادثات .

إن مشكلة تأليف وفد فلسطيني للبلاد المهمة منذ زمن بعيد، وحتى الآن بغير حل مثلما يكون ايجاد وفد متواضع لزيارة دولة نائية وثانوية، مشكلة اكثر تعقيدا، وحين يصر المضيف على ان المحادثات يجب ان تتم بوفدين متماثلين في العدد بما يعنيه ذلك من استبعاد بعض أعضاء الوفد الفلسطيني، فان ازمة لا بد ان تحدث لان بعض الاعضاء، وخاصة من يمثلون فصائل معينة في اللجنة التنفيذية يعتبرون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

استبعادهم عن المحادثات مساسا بجدارة تمثيلهم لفصائلهم. لم يكن عرفات مستعدا لمفاجأة من هذا النوع، لقد تعود ان يرضي اعضاء وفده باجتماع من اجل التقاط الصور مع المضيف، وبعد ان يتم ذلك يتحول الاجتماع الى جلسة مغلقة بينه وبين المضيف، وبذلك لن تكون مشكلة، غير ان الامر هنا بدا مختلفا الى حد بعيد فليس بولياكوف من يستطيع محادثة غورباتشوف باهمية حضور ممثل الجبهة الديمقراطية مثلا الى اجتماع في الكرملين . رحب عرفات بالتعديل وابلغ بولياكوف بانه سوف يصطحب معه فاروق القدومي وزير الخارجية .

مع غورباتشوف ١٩٨٧/٩/٢١

كانت التقديرات تتجه الى ان غورباتشوف سيجتمع بعرفات لمدة نصف ساعة على الاكثر، اما المحادثات فلا بد لها، في حالة من هذا النوع، أن تقتصر على العناوين. ان ميخائيل غورباتشوف قد تريث في استقبال ياسر عرفات رغم مرور شهور طويلة على طلب الزيارة لاسباب عدة، منها ما يخص طريقة العمل على قمة الدولة العظمى ، اذ يتعين على اي مشروع لقاء من هذا النوع ان يبحث من قبل جهات عدة وان يحظى بموافقة هذه الجهات جميعاً، وهي دوائر الشرق الاوسط في وزارة الخارجية، والحزب، والكي جي بي .

كانت وزارة الخارجية اكثرحماسا لاتمام اللقاء، كان صرح ادوارد شيفارنادزة، شقيق غورباتشوف في مجازفة البروسترويكا، يعيش آنذاك حالة تحول متسارع باتجاه انفتاح شامل على العالم وعلى قضاياه، وكان أعضاء جهاز وزارة الخارجية، حتى من كان منهم منتميا الى الحزب الشيوعي، اكثر دراية من غيرهم بموضوع القضية الفلسطينية في الشرق الاوسط، وبموقع الفلسطينيين ايضاً، وبموقع ياسر عرفات ، لذا كانت الموافقة الاولى من الخارجية. وسبق ان قلنا كيف كان موقف الحزب من عرفات لنعرف لماذا كانت الموافقة الاخيرة من اللجنة المركزية . كان غورباتشوف معنيا باجابة دقيقة على السؤال التالي :

– ما هي منظمة التحرير بالضبط؟ ما هي علاقتها بالانتفاضة، وما هو وزنها في الشرق الاوسط وما هي ضرورتها للحل ؟ وكما عرفت فيما بعد فقد كلف عدد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من الخبراء والمختصين بالاجابة عن هذا السؤال، وحين وصلت الانتفاضة الى شهرها الخامس كانت الاجابات المطلوبة قد اكتملت، ويمكن اختصارها بجملة قصيرة : ان منظمة التحرير جديرة بالتعاون مع موسكو.

وضع ياسر عرفات اكليل الزهور على ضريح فلاديمير ايليتش لينين ... ادى بخشوع كبير التحية العسكرية لمؤسس الدولة العظمى .. وفي دقائق معدودات .. حيث باستطاعة رجل البروتوكول تجاوز الطقوس المقدسة عند الحاجة . . وجد عرفات نفسه في جوف سيارة الزيل السوداء، والى جواره وزيرخارجيته فاروق القدومي، اما نحن – باقي الوفد –فقد بدونا للحظة كاشخاص يغادرون ساحة عرس انتهى . .

عبرت سيارة الزيل المهيبة باب السور الذي تخرج منه عادة وحدة تبديل حرس الضريح بينما انطلقت سيارات الفولفو السوداء محملة باعضاء الوفد مخترقة شوارع موسكو في طريقها الى مقر وزارة الخارجية .

اخذنا بولياكوف الى قاعة الاجتماعات . . ملأ فراغ الانتظار بان قدم لنا معلومات مفيدة عن وزارة الخارجية . . وعرفنا ان المكان الذي نجلس فيه هو المكان الذي يجتمع فيه مجلس قيادة الوزارة المكون من حوالي ثلاثين عضوا، والمكلف بالاشراف على عمل امبراطورية الخارجية التي تضم – في جميع انحاء الدنيا – زهاء اربعين الف موظف .

بعد ساعتين من وجودنا في تلك القاعة، اعلمنا بضرورة الانتقال الى قاعة اخرى حيث سنلتقي بعد لحظات برئيسينا العائدين من الكرملين . .

كم تمنيت في تلك اللحظات . . لو سمح لي بمرافقة الرئيس ياسر عرفات خلال اجتماعه مع سيد البريسترويكا . . لو امكن لي ذلك آنذاك. لكانت بداية عملي في موسكو افضل بداية . . ولحصلت فعلا على ميزة رؤية أولئك الذين يتربعون على القمة السوفيتية . . وجها لوجه وفي وقت مبكر .

كان لقاءاً عاطفياً . . كما عرفت فيما بعد . . انه أفضل وأعذب بكثير من ذلك اللقاء الشاق الذي تم في الصباح مع سكرتير اللجنة المركزية لشؤون العلاقات

الخارجية اناتولي دوبرنين، ذلك اللقاء الذي كان بمثابة كاسحة الالغام الضخمة التي تمهد الطريق لسيارة الدبلوماسية الهادئة والناعمة..وعلى العموم فإن اللقاء في الحزب لا بد أن يكون اشد قوة من اللقاء « في الدولة»، فهناك يظل العاملون اكثر تأثرا بالاعتبارات المبدئية من زملائهم في الاجهزة الاخرى . . واحياناً اكثر تحررا من القيود المفروضة على المفردات. وهنا تجدر الاشارة الى العلاقة التنافسية التي ربطت، ولأمد طويل دائرة العلاقات الخارجية في الحزب مع وزارة الخارجية – وكما قال لي احد العارفين ،ان الامور لم تأخذ مجراها الصحيح الا حين اصبح اندريه غروميكو عضوا للمكتب السياسي، حيث صار باستطاعته الافلات من دائرة العلاقات الخارجية التي كان رئيسا لها يحتل مكانة حزبية أرفع من مكانة وزير الخارجية .. كانت دائرة العلاقات الخارجية في الحزب تعمل على فرض نفوذها على وزارة الخارجية من موقعها الايديولوجي .. التنظيمي . . وكانت الوزارة المعززة بكادرات ذي خبرة عميقة في القضايا الدولية . . تجد نفسها في احيان كثيرة .. قليلة القدرة على فرض رؤيتها الموضوعية لعلاقة الدولة العظمى بالآخرين .

كان رجال الخارجية يتذمرون علنا من الطرق الفظة التي كان رجال الحزب يفرضون نفوذهم عبرها .

استقامت الامور جزئيا حين احتل غروميكو موقعه في المكتب السياسي ليشكل بذلك درعا واقية للخارجية . . اما في عهد غورباتشوف – شيفرنادزي فقد بدا واضحا منذ البدايات ان قادة البريسترويكا قرروا منح دائرة العلاقات الخارجية في الحزب اجازة طويلة الامد . . كان ذلك حين أقر مبدأ عزل السياسة عن الايديولوجيا . . كان لقاء دوبرينن بعرفات ..استطلاعيا . . اذ كان ملائما للقيادة السوفياتية ان تبدأ مع الفلسطينيين على مستوى حزبي بوصفهم لا يزالون في اطارحركة تحرر وطني. .

استمع عرفات من غورباتشوف الى تحديد مبكر لاسس وعناصر السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي . . وهذه النقطة كانت قد حفظت عن ظهر قلب خلال الساعات التي امضاها الضيف في موسكو . .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما استمع الى ثناء حاد على الانتفاضة السلمية . . التي وصفها غورباتشوف آنذاك بالبريسترويكا الصغيرة في الشرق الاوسط . . ودعا بالطبع الى ان تتحلى منظمة التحرير بالمرونة والواقعية . . لان ذلك هو الطريق الاسلم لايجاد مكانة لها في العالم الجديد . . حيث كان ميخائيل سيرغيفتش يتحدث عنه بعبارات يقينية كما لو أنه «داتشاريفيا» يوشك البناء على اكمالها بين لحظة واخرى . لقد اعجب القائد السوفيتي باستعدادات عرفات المخلصة للتعاون من اجل فتح الملف الشرق الاوسطي، والافادة من حالة الوفاق التي يبشر بها غورباتشوف مع القطب الاخر كحقيقة لا جدال فيها ولا رجعة عنها . .

استمر اللقاء في الكرملين زهاء ساعتين . . وما ان غادر عرفات بوابة السور الاحمر . . حتى امطر الإعلام السوفياتي زخات كثيفة من الاخبار والتعليقات اشارت الى ان صفحة جديدة من تاريخ العلاقات السوفياتية الفلسطينية قد فتحت، وان سطورها كتبت بافضل الكلمات . .

حين وصل عرفات متأبطا ذراع شيفارنادزة الى وزارة الخارجية قرأنا جميعا اشارات الرضى والارتياح على الوجوه . . وعلى مدى ساعتين امكن لنا ان نضع مع الوزير وطاقمه اسس التعاون المشترك للمرحلة الراهنة . . لقد غنم الفلسطينيون سندا دوليا ذا شأن بعد ان كانوا خسروه جزئيا خلال الاعوام القليلة الماضية . . اما انا المكلف بمتابعة الامور مع اجهزة الدولة العظمى فقد غنمت تعارفا مبكرا مع الوزير اذ قدمني اليه ياسر عرفات في المصعد قائلا . .

سيظل هذا الشاب عندكم وتحت رعايتكم .

كان ذلك هو الاجتماع الاول الذي شاركت فيه مع وزير الخارجية الاشهر إدوار شيفارنادزة . . كان واحدا من تسعة لقاءات تمت على مدى السنوات الخمس في عملي بموسكو . .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدورة التاريخية

التسوية :

كان الفلسطينيون، كما هم على الدوام، اول من يستشعر اتجاهات الرياح الدولية، واول من يتعين عليهم معرفة المتغير السياسي في محيطه العربي، ثم في محيطه الدولي الاوسع، وذلك ليس بحكم الخبرة أو التميز المعرفي عن الآخرين، .وانما بحكم شيء شبيه بالغريزة، إذ ان الفلسطيني (كي يبقى على قيد الحياة السياسية) لا بد ان يعرف عن الغد اكثر من الآخرين وأسرع من الآخرين .

كانت الانتفاضة تطوي ايامها واسابيعها وشهورها ماضية بتصاعد مستمر، وكانت المسؤولية الوطنية تحتم انتهاج سياسة واقعية توفر مردوداً حقيقيا لهذا العمل الشعبي ذي السمات العصرية المتفردة، لقد وضعت الانتفاضة الوعي السياسي الفلسطيني امام حتمية الإقدام على خيار محدد فإما ان تكون الانتفاضة حافزاً لفتح مدى جديد للجري غير المتناهي وراء الأحلام الفلسطينية ، واما ان تكون رصيدا يصلح للتداول السياسي، واحراز النتائج، أو بتعبير اقرب احراز المكاسب الملموسة .

لقد فرضت الانتفاضة نوعا من الجدل الداخلي الفلسطيني بالغ الصعوبة ، وذلك لأن الانتفاضة تصلح لدعم النقيضين . « الاعتدال والتشدد» .

كان المعتدلون، وهم في زخم بداية الحدث الكفاحي اقلية عددية، يرون في الانتفاضة ارضا يمكن البناء عليها لبلوغ الهدف الوطني المُقَر من قبل المجالس الوطنية. الا وهو «تقرير المصير، واقامة الدولة المستقلة المتحدة كونفدراليا مع الاردن ». كانت المجاهرة بسقف كهذا في حمى الشهور الأولى لولادة الاعجاز الشعبي الجديد أشبه بمن يحاول وضع العصى القوية في العجلات المتسارعة . .

أما المتشددون، وقد ارتفع عددهم بعد ان انضم لهم فريق مهم من المعتدلين تقليديا فقد رأوا في الانتفاضة قاعدة انطلاق جديدة لرفع سقف المطالب الوطنية،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ورفع السقف يعني، في اكثر التقديرات اعتدالاً، اقامة دولة مستقلة دون قيد او شرط، وحتى التحرير الكامل والشامل لجميع الأراضي الفلسطينية .

لقد ذهب بعضهم الى شطط احتفالي من نوع « لم يعد ضروريا الحديث عن مؤتمر دولي، ولم يعد لازما مواصلة التمسك ببرنامج النقاط العشر » .

كان واضحاً ان المحرك الجوهري لهذا الشطط الاحتفالي، هو تلك الروح الجديدة التي دبت في اوصال الفلسطينيين بعد ان وصلت منظمة التحرير الى حافة الموت اثناء مؤتمر قمة عمان. كانت المنظمة قد وصلت الى حالة لم يسبق ان وصلت الى مثلها منذ مطلع السبعينات، كان صعبا عليها الحصول على سطر واحد يؤكد وحدانية تمثيلها للشعب الفلسطيني، وفي حقبة ما بدا لمعظم المراقبين على انه احتضار سياسي أخير .

جاءت الانتفاضة، وجرى دم حار في العروق، وهيهات بعد ذلك ان تلجم انفجار الأحلام والأماني، او ان تبعد عن العقل السياسي آفة الظن بأن الشعب قادر بالفعل على تحقيق المستحيل . .

بدأت عقلنة الفكر السياسي للانتفاضة من خلال تبني الشهيد ابو جهاد، قبل رحيله بوقت قصير، فكرة محاولة تحقيق بعض الأمور المطلبية منسجماً بذلك مع ياسر عرفات الذي يدرك اهمية حصول الشعب على ثمن أولي كي يذوق طعما لجهده الصعب يؤهله للتطلع الى ما هو اهم، الا وهو الهدف الوطني الكبير. لقد جاءت الاشارات الاولى للعقلنة من ساحة الانتفاضة ذاتها، وجاء تشجيع العقلنة من قبل المحيط العربي والدولي على هيئة قرار جماعي باستحالة تحقيق حل عسكري للصراع . كانت اعمق شهادة لانجاز الانتفاضة قدجاءت من قبل اسحق رابين صاحب القبضة الحديدية الذي أعلن وهو قابع داخل دبابة . .« إن الحل يجب ان يكون سياسياً » .

انفتحت ابواب العالم امام الفلسطينيين ، واحسنت منظمة التحرير صنعا حين اعلنت انها امرت بوقف العمليات العسكرية في منطقة الانتفاضة، أي منطقة الحل السياسي المحتمل ، والقى الامريكيون بثقل اعلامي لم يسبق له مثيل، وراء الكفاح

السلمي المشروع الذي يخوضه الفلسطينيون ، وانتشر شعار نوعي ايقظ كل مشاعر التوجس والخوف لدى اسحق شامير.. «انقذوا اسرائيل من اسرائيل» .

ان الرصيد الذي راكمته الانتفاضة خلال شهورها الأولى لم يكن من النوع الذي يصلح للافادة منه في كل وقت. انه رصيد لم تجر بلورته في سياق برنامج سياسي يقبله العالم، ويسعى لتحقيقه فإن نتيجته الحتمية سطورفي التاريخ، او مأثرة كفاحية تصلح لمدائح الشعراء ، أو لمراثيهم. كانت منظمة التحرير قد حسمت الجدل حول ابوتها للانتفاضة، والحق فان الذي وفر لها القرائن الحاسمة لذلك ،هو المجرى الموضوعي للاحداث. كان كل الفلسطينيين في الداخل يعلنون بشتى الوسائل انهم الذراع الضاربة لمنظمة التحرير،وبدا العالم يتعرف على تلك الظاهرة الايجابية الملفتة، وهي « تكريس قيادة وطنية داخل الضفة والقطاع تمثل امتداداً عضويا لقيادة منظمة التحرير، وتضم طاقات نوعية جديرة بأن تتحدث باسم الشعب، وان تملأ الفراغات الناجمة عن إحجام بعض الجهات عن الحديث المباشر مع القيادة الفلسطينية في المنفى، واهمها بالطبع الادارة الامريكية واسرائيل .

كان ظهور قيادة الداخل بمثابة اضافة نوعية للوضع القيادي لمنظمة التحرير. كان لا بد من بروز بعض المخاوف، وخاصةلدى ذلك الرعيل من الزعماء الذي يرى منظمة التحرير على انها مجرد اولئك الذين يعيشون في تونس، او يحملون القابا رسمية من نوع عضو المجلس الوطني، او المركزي، أو اللجنة التنفيذية.

لقد ادت هذه المخاوف الى تنامي ظاهرة مرضية مخيفة : « داخل..وخارج» وبني على هذا الأساس شيء آخر :

« قيادة اصلية . . واخرى بديلة »، وظهرت منظمة التحرير في العديد من مواقفها ومسلكياتها متأثرة الى حد بعيد بعقدة (الداخل والخارج). وبقدر ما كان الحرص على مكانة القيادةالشرعية في تونس مبررا وضروريا بقدر ما أدت المغالاة في هذا الحرص الى ظهور صور وطقوس تسجل لغيرصالح ثقة القيادة الشرعية بذاتها .

كان بديهيا ان تتجاوز المنظمة هذه العقدة، ولقد كان للوطنية الفلسطينية المتأصلة في أعماق قيادات الداخل الدور الحاسم في حلها لقد كانوا جميعاً يهتفون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

باسم المنظمة مع كل ذرة هواء يتنفسونها، اما قادة الخارج فكانوا يهتفون بولاء الداخل لهم على نحو اخذ طابعاً استفزازيا في كثير من الحالات .

لم يكن لهذه المخاوف اي مبرر سياسي ، ذلك ان العالم لا يستطيع الاستغناء عن منظمة التحرير، انه يريدها مرجعا فلسطينيا ،ولم يكن لوجود اكثر من مائة ممثلية لمنظمة التحرير في العالم من سبب موضوعي سوى هذا السبب بالذات . اما الولايات المتحدة التي لم تعترف بالمنظمة فقد كانت ومنذ زمن قد اقدمت على نوع من الاعتراف الواقعي حين علقت الاعتراف الرسمي على شروط غير تعجيزية « الأرهاب» و « ٢٤٢». كان الأول قد تم الخلاص منه باعلان القاهرة الشهير، اما الثاني فقد كانت صيغة الموافقة عليه قيد الاعداد، إما في اللجان التحضيرية للمجالس الوطنية، وهي المرجع الوحيذ المخول بذلك، أو في لقاءات ومشاورات عرفات مع من يملكون قدرة حقيقية على تسويق هذه الموافقة والحصول على ثمن جدي لها .

كانت الادارات الأمريكية محكومة بقرار كيسنجري، صدر عن الكونجرس، حال دون الاتصال المباشر بينها وبين المنظمة ، وايضا لم تكن كل هذه الادارات مستعدة لاغضاب اسرائيل، وإثارة ريبتها وشكوكها، لذا لم تكن الادارات الأمريكية قاطعة في امر الغاء المنظمة وعدم الإعتراف بها، خاصة بعد أن نجحت المنظمة في اثبات ايجابية وجودها واساسيته لأي سيناريو محتمل للحل .

كانت قيادات الداخل بمثابةالحل الوسط الذي يوفر اذعان اسرائيل لحتمية وجود قيادة وطنية فلسطينية، ويوفر للامريكيين جهة رسمية فلسطينيةيتحدثون معها بحرية كافية، ويوفر للمنظمة دورها الجوهري في عملية السلام كقائد فعلي يتعين عليه التضحية المؤقتة ببعض شكليات السيادة الرسمية .

حين قام رونالد ريجان بزيارته الاولى لموسكو، وكان ذلك مطلع صيف عام ٨٨ ظهرت اشارة شرق اوسطية ذات مغزى عميق حينما أذن السيد الأمريكي لمضيفه السوفياتي ببحث أزمة الشرق الأوسط ضمن المساحة المخصصة للقضايا الاقليمية. كان الشرق الأوسط، ومنذ امد بعيد، واحداً من الممتلكات التي سيجها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأمريكي بدائرة من نار، وكتب عليها « ممنوع الاقتراب » . مرات قليلة كان القطبان الدوليان يمران على هذه القضية ،يتلو كل واحد منهما على الآخر طلاسمه الخاصة ليخلصا الى النهاية الشهيرة (نييت غروميكو).. أو (نو)، أي وزير خارجية امريكي قيض له ان يجالس اقدم واعرق وزير خارجية في التاريخ . ومرة واحدة جرى تناول المسألة بقدر من الجدية حين صدر بيان فانس – غروميكو الشهير الذي عاش يوما واحدا أو بتعبير اكثر واقعية ولد ميتا.

في موسكو اتفق الطرفان على تنظيم مشاورات امريكية – سوفياتية حول الشرق الأوسط على مستوى الخبراء، وحصل جينادي تراسوف على وضع جديد حيث اسندت اليه مهمة التشاور مع نظرائه الأمريكيين دنيس روس وجون كيلي .لم يعلن الطرفان الأمريكي والسوفيتي اشياء كثيرة عن الشرق الأوسط، لقد اكتفيا بالاشارة الى انهما يتشاوران حول هذه القضية المستعصية. كانا آنذاك منهمكين في اعداد الاتفاقيات الممكنة بشأن الحد من التسلح، ويوجهان الجهد الأكبر للمسألة الأفغانية .

أثناء زيارة ريجان الأولى الى موسكو حاولت جاهدا الحصول على موعد مع اي موظف متوسط الشأن من قوام دائرة الشرق الأوسط ، فلم افلح في تحقيق هذا المطلب المتواضع. كانت العبارة الوحيدة التي حصلت عليها « سوف نستقبلك قريبا، وسنتصل بك » .

لم اكن متأكدا من أن احدا سيتصل بي أثناء وجود الرئيس الأمريكي في موسكو، إن اعلانا عن استقبال الخارجية السوفياتية لممثل منظمة التحرير (والفلسطينيون مشهود لهم في تفجير اعلانات من هذا النوع) قد يفتح الباب امام روايات لا آخر لها، « رسالة للامريكيين عبر السوفيت او مشاورات جانبية أو .... الخ » .

ان دخول منظمة التحرير، ولو من الأبواب الفرعية أو الجانبية، وحتى من باب وكالة الانباء الفلسطينية الضيق قد يحمل بعض الازعاج لأولئك الذين يستمتعون بالأيام الأولى اللذيذة والهانئة لوئامهم الجديد.

في اليوم الذي غادرت فيه طائرة الرئيس الأمريكي موسكو أوفى الأصدقاء بوعدهم، وتم استدعائي للخارجيةحيث التقيت بالسيد جينادي تراسوف الذي ابلغني ان الوزارة بصدد اعداد رسالة للقيادة الفلسطينية، وللدول الصديقة في المنطقة حول زيارة ريجان وما دار خلالها من محادثات .

ابلغت تراسوف، الذي كانت قد نمت بيني وبينه علاقة عمل متصل بأن معلومة كهذه لن تكون كافية بالنسبة لأولئك المتعطشين لأخبار قمة موسكو .

ابلغني الدبلوماسي الشاب انه جرى حوار مستفيض حول الشرق الأوسط، وان افكارا عديدة جرى تبادلها على طاولة الاجتماع وفي الكواليس، ولقد تم الاتفاق على تأسيس مجموعات عمل على مستوى الخبراء للبحث في شؤون التسوية، وسيجري تبادل رسائل بين شولتس وشيفارنادزة بشكل منتظم .

المهم ان الفيتو على الدور السوفياتي ، الشرق اوسطي ، بدأ بالذوبان،وان موسكو غورباتشوف اسند لها مع كل الاحترام والتبجيل لطقوس وايقاعات الدولة العظمى، دورمساعدة واشنطن في تذليل العقبات على الجانب العربي. نحن الآن امام صورة واضحة لعلاقة جديدة بين القطبين الدوليين تجاه الشرق الأوسط :

- اقرار سوفياتي بأن اليد العليا لواشنطن .
- واقرار امريكي بأن هذه اليد العليا مهما بلغت من القوة والنفوذ فلن تستطيع التصفيق بمفردها .

اذن لتبدأ المسيرة الشرق اوسطية على ايقاع هذا الاتفاق، ليبدأ جورج شولتزجهوده في المنطقة، وليقدم لنظيره شيفارنادزة اشارات مبدئية دعنا نسميها تجاوزاً «تقريراً للشريك»، ولتبدأ المشاورات الفنية بين الطرفين لتبادل المعلومات والافكار والاقتراحات غير الرسمية، وحين يقرر العراب بدء المسيرة يكون القطب الآخر مستعدا لأداء دوره متقيدا بالقضبان الحديدية التي لا بد ان يضع تصميمها الرئيسي المهندس الأمريكي .

كان الفلسطينيون قد فرغوا من تحضيراتهم الصعبة والشاقة وطويلة الأمد لعقد دورة جديدة من دورات مجلسهم الوطني. كانت الانتفاضة توشك على اكمال عامها الأول، وكان الوئام الأمريكي قد تكرس كحقيقة لا رجعة عنها، وكان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العملاقان يكثران من الحديث عن نظام دولي جديد تسوده العدالة والقيم الانسانية الرفيعة، وبالطبع كان حل المسائل الاقليمية في هذا السياق اكثر البديهيات بداهة .

في الأسابيع القليلة التي سبقت عقد الدورة الثانية عشرة للمجلس الوطني جرى حوار مع اركان دائرةالشرق الأوسط بوزارة الخارجية، وكان موضوع الحوار الدورة الثامنة عشرة وكيف تكون قراراتها السياسية قوة دفع نوعية جديدة لامكانيات الحل .

ابلغتهم ان القيادة الفلسطينية بصدد اقتراح اعلان ولادة الدولة الفلسطينية ، وبالتأكيد سيحظى هذا الاقتراح باجماع المجلس والشعب ، وفي ظل هذا الاعلان التاريخي ستقترح القيادة برنامجا سياسيا ينطوي على اشارة اكثر وضوحا حول قبول جميع القرارات الدولية ومن بينها (٢٤٢).. الخ .

كانت مهمتي آنذاك تتركز في محاولة التعرف مسبقا على رد الفعل السوفياتي حول اعلان الاستقلال، هل هم موافقون ؟هل هم مستعدون للاعتراف بالدولة حال اعلانها ؟

كانت اجوبةالرفاق على جانب كبير من الأبهام ، كانوا يصرون على اهمية ابداء المزيد من المرونة، وعدم تكرار القرارات السابقة، وحين يجدون انفسهم في زاوية حتمية الاجابة عن موقفهم حيال اعلان الاستقلال، كانوا يجيبون بكل ما لديهم من طاقة على الحذر والبرودة « بالطبع اننا في امور عديدة نحترم قراركم، ويتعين علينا ان نساعدكم في الاتجاه الذي تختارون »، لم تكن هذه الأجابة بالنسبةلفهمي المتواضع للغة التخاطب بين طرفين سياسيين لتحملني على التأكد من ان الدولة العظمى ستشاركنا الاحتفال بعملية توليد دولتنا الفلسطينية على ارض الجزائر.

كما لم يكن باستطاعتي كتابة تقرير لقيادتي اقدر فيه موقف الدولة العظمى من اخطر مجازفة يقدم عليها الفلسطينيون على (انه رافض أو قابل) .

« إن الكثير من المواقف يمكن ان تتحول الى كارثة لو استندت الى قاعدة مبهمة من المعلومات، او اتخذت على اساس اجتهاد سطحي ، او قلة فهم لمرامي الالفاظ الدبلوماسية المنتقاة».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت حيرتي في الموقف السوفياتي تجاه اعلان الدولة تزداد مع كل اجتماع يتم في وزارة الخارجية، او مع كل لقاء كتلك اللقاءات الكثيرة التي تحدث في أروقةالسفارات، وفي ثنايا المناسبات الاحتفالية .

إن مسؤوليتي تبدو في هذه النقطة بالذات صعبة وكبيرة وخطرة. إن إساءة التقدير قد تحملني ذنب تضليل القيادة ،ناهيك عن اننا في عائلتنا الفلسطينية لا نرحم من نتفق على تحميله خطأ ما بحق أو بغير حق .

في عمق التفكير الملح بايجاد مخرج من هذا المأزق الموضوعي الذي وجدت نفسي غارقا فيه لاحت لي فكرة :لم لا يعرض السوفيات موقفهم بأنفسهم، لم لا ندعوهم للمشاركة في المجلس كضيوف، وعلى هامش الجلسات يلتقون بالقيادة ويدلون بآرائهم .

أرسلت اقتراحي هذا للرئيس ياسر عرفات معززا اياه بالحجج التالية :

- ضرورة التعرف عن كثب على موقف موسكو من مسألة اعلان الاستقلال.

- كذلك تعريف الفصائل الفلسطينية التي لا تزال تحمل اوهاما حول راديكالية الدولة العظمى بحقيقة موقفها الجديد من الشرق الأوسط، وأخيراً تحميل الدولة العظمى قراراتنا ومبادراتنا لعرضها بطريقة نزيهه على القطب الآخر الذي لم تنشأ بيننا وبينه بعد اية قناة اتصال رسمية، ثم لا يغيب عن ذهن الرئيس أهمية اعتراف موسكو باعلان الاستقلال .

جاءني الرد التالي من الرئيس:

« مع أن قرار رئاسة المجلس يقضي بعدم استضافة أحد ، إلا أنني أرحب بدعوة الرفاق ». حملت رد عرفات، وتوجهت به الى وزارة، كنت قد أعددت رسالة رسمية أدعو فيها وفدا سوفياتيا لزيارة عمل الى الجزائر أثناء انعقاد المجلس. لقد اخترت هذه الصيغة كي لا يحتمل الأمر اي تفسير بروتوكولي، او احتفالي للدعوة خشية ان تختار القيادة السوفياتية أحد وجهاء التضامن لمناسبة من هذا النوع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إستقبلني بولياكوف وتراسوف، وقدمت الدعوة بشكل رسمي، فاجابني بولياكوف بأنها ستكون قيد الدرس وسنعلمك بالرد، رجوته ان لا يتأخر. رافقني تراسوف الى الردهة الخارجية وهمس في اذني :

« قد لا نذهب، لقدوصلتنا تقارير من سفارتنا في الجزائر، وتونس تؤكد عدم دعوة أي وفد اجنبي » .

فهمت من ملاحظة تراسوف انهم بحاجة إلى اشعار بالدعوة من إحدى سفاراتهم بتونس، او الجزائر، أو عمان، وبالفعل امكن ارسال هذا الأشعار ،وابلغت اخيرا بأن الرفيقين جينادي تراسوف وفياتشيسلاف ماتوزوف سيصلان الى الجزائر في زيارة عمل لمنظمة التحرير .

وصل المبعوثان السوفياتيان الى الجزائر عشية انعقاد الدورة الثامنة عشرة، منذ الساعات الأولى لوصولهما نظما سلسلة من اللقاءات مع جميع من يطلقون على أنفسهم مفاتيح المجلس، وبوسعنا ان نتخيل كم من الوقت استغرقت هذه المهمة، وكانوا في الوقت نفسه جاهزين لتلبية دعوة (المفتاح العام) في اي وقت ،وغالبا ما كان عرفات يحب مناجاة الرفاق في ساعات الصباح الأولى، لقد عمل الدبلوماسي النشط تراسوف ليل نهار داعيا الى المرونة والاعتدال معتمدا على زميله رجل الحزب فياتشيسلاف ماتوزوف .

رغم التوجه الدائم في اروقة المجلس وكواليسه، فأن المبعوثين لم يقدماتحديدا للموقف السوفييتي من مجازفة اعلان الدولة، كانا يلفان ويدوران حول السؤال بطريقة لاتختلف كثيرا عن تلك الطريقة التي الفتها في موسكو .

غير ان عرفات عرف من جانبه كيف يستفيد من هذا اللف والدوران : «إنهم لم يبلغوني أنهم ضد الاعلان ،اذن فهم معه ولنتوكل على الله ».

كان السوفيات في غاية الحذر تجاه اي اقتراح، او اجتهاد، او مبادرة تخل بالسياق المرسوم مع الأمريكيين للمبادىء الأولية للتسوية ،كما كانوا في غاية الحذر حيال أي تصرف يمكن ان يفهم منه انهم يمارسون سلوكا ينتمي الى عهد الحرب الباردة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانوا على يقين من ان الأمريكيين يراقبون بدقة متناهية كل حركة وسكنة لهم قبل ان يحسموا امر شراكتهم المستقبلية في العملية الشرق أوسطية ، لذا كان المبعوثان حريصين تماما على تفادي شبهة تحريض الفلسطينيين على التصعيد .

اكتملت الترتيبات الاحتفالية، وزينت قاعة قصر الصنوبر بالأعلام والصور والاوراق الملونة وباقات الورد، واحضر مجاهدو الاوراس فرقةموسيقية عسكرية اخذت مكانها على هيئة غير مألوفة حيث جلست على مقاعد الاعضاء ، وطير احد الفلسطينين القادمين من امريكا عشرات البالونات الملونة في فضاء القاعة المكتظة بالناس ، هكذا يفعلون هناك في مناسبات زاهرة .

وحين تلا ياسر عرفات اعلان الاستقلال كادت القاعة المهيبة تطير في سماء الجزائر. كنت ارقب المشهد من الصفوف الخلفية، ولا تزال ذاكرتي تحتفظ ببعض ما رأيت، دموع انهمرت من مآقي الرجال ، وزغاريد مهتاجة وطوفان من المشاعر المنفلتة، تسللت الى حيث يقف المبعوث السوفييتي، كان منفعلاً بالمشهد، عانقني بحرارة قائلا بالعربية « مبروك» .

في اليوم التالي التقى الرئيس عرفات بالمبعوثين السوفيتيين، فحملهما رسالة الى ميخائيل غورباتشوف آملاً بالاعتراف الثمين .

في أول لقاء جرى مع أركان دائرة الشرق الأوسط بوزارة الخارجية ،جرى البحث في الطرق العملية المفضية الى الافادة من البرنامج السياسي الجديد مع إعلان الاستقلال. إن البرنامج يقطع ثلاثة أرباع المسافة التي يتعين قطعها الى الصيغة المطلوبة كشرط للحصول على الاعتراف الامريكي ، وبدء حوار سياسي بين المنظمة وواشنطن.

لم تكن الصيغة كافية كما لم تكن الظروف ناضجة، اذ ان القرارات صدرت في تلك الأسابيع الاستثنائية في الحياة السياسية الأمريكية، وأعني بها انتقال السلطة من ادارة الى اخرى. ومع ان الأمر كان مجرد انتقال فني بحكم استمرار الجمهوريين في السلطة الا انها في كل الحالات تظل اسابيع غير عادية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت واشنطن تدرك بعمق ان الحوار مع منظمة التحرير اصبح ضرورة حيوية، إذ لم يعد واقعيا تجاهل القيادة الفعلية للشعب الفلسطيني في وقت تجري فيه التحضيرات الأولية لمحاولة سلمية جدية. كانت منظمة التحرير قد ادت مناورة سياسية بارعة حين لم تأذن لقيادة الداخل بلقاء الوزير شولتز اثناء احدى زيارته لفلسطين المحتلة، كانت رسالة جريئة وبعيدة كل البعد عن الاستعراض الاعلامي او المظهري . كانت أبلغ رسالة تفي بغرض إنهام الأمريكيين بأن المرجعية الفعلية للفلسطينيين هي المنظمة. كان الأردن قد اقدم على خطوة فك الارتباط مع الضفة الغربية، كان ذلك بمثابة العنصر الحاسم الذي دفع الولايات المتحدة موضوعيا الى التفكير في امر المرجعية الفلسطينية، ومع من يجري الحديث في شؤون التسوية. كان الأردن وبصرف النظر عن حركة ميزان الحرارة المتذبذب صعودا وهبوطا بينه وبين المنظمة، قد حسم امره بصيغة ذكية تحدد العلاقة مع الاشقاء الأقربين. لقد آن الأوان لوقف ملهاة داحس والغبراء لمصلحة توجه جدي يحفظ للدولة الأردنية مصالحها الرئيسية، ويوفر للفلسطينيين فضاءاً صافياً لممارسة استقلال قرارهم الوطني، ولقد أرسى الملك المحنك قاعدة شكلت صمام أمان للعلاقة المصيرية مع الأشقاء .

« إنهم أسياد قرارهم المستقل. ان المنظمة هي الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني، والأردن ملتزم بذلك، وهو على استعداد للقيام بكل ما يطلبه منهم أشقاؤهم الفلسطينيون».

لقد وضعت هذه القاعدة حدا فاصلا بين الحقيقي والوهمي في العلاقة الأخوية،كما وضعت حدا لمخاوف أولئك الذين يؤمنون بامكانية ان يكون الأردن وطناً بديلاً للفلسطينيين، وبذات القدر وضعت حدا لمخاوف الفلسطينيين من ان المرجعية قدتقوض، وبحكم التوظيف الخارجي لها ما يعتقده الفلسطينيون انجازا وطنيا مميزا الاوهو منظمة التحرير وقرارهم السياسي المستقل .

ان الملك حسين صاحب هذه الصيغة الحكيمة يعتبر واحدا من قلائل في الشرق الأوسط يتقنون لعبة السلطة بأبعادها الداخلية، ولعبة السياسة بآفاقها الراهنة والمستقبلية. لقد مشى على حد السيف اربعين سنة، حورب فيها وحارب، تعب فيها واتعب، وكان العرش الهاشمي ولفترات غير قليلة، مزروعة أعمدته في حقل من الالغام، ومرتفع بناؤه في مهب الرياح العاتية، لم يكن في يوم من الايام آمنا من الخطر .

إن الأردن تكّون من عناصر شديدة التداخل والتعقيد والتنافر، والملك حسين هو سيد المعادلة الصعبة. لقد ورث ملكاً جنينياً في ظرف اقليمي ودولي كانت فيه الرمال المتحركة هي الأرض التي يتعين على الملك الشاب ان يقف عليها. كانت القوات العربية لا تزال تعيش مأساة اندحارها المروع في فلسطين، وكانت رياح الثورة قد هبت من مصر، وبدأت أعاصير الأحلاف ودوامات الأستقطاب تشد القيادات العربية الى مواقف وسياسات شديدة الارتباك والغموض، وحين توج الملك على عرش مهاجري وانصار القرن العشرين لم يكن باستطاعة احد ان يجزم بمآله في الغد القريب، فما بالك بالغد البعيد. كان الرجل الذي قدم جده قبل أعوام ليست بالكثيرة من جزيرة العرب، قد وجد نفسه (وهوالذي تلقى من التأهيل الأساسي ما لم يكن قليلا)، على رأس مسيرة مثخنة بجراح النكبة يسير بها نحو غد يلفه الضباب. إن الفلسطينيين يشكلون نصف المملكة، ولا بد من ايجاد صيغة، تجعل هذا النصف مطمئنا الى حاضره، قليل الخوف على غده، والتاريخ سيحكم اخيرا الى أي مدى نجح الملك في تكريس هذا الصيغة وكم كان الثمن الذي دفعه على الطريق لانجازها.

كان الملك حسين، الذي اعلن فك ارتباطه مع الضفة الغربية، يدرك باليقين ان الأردن لا يملك الفكاك من اقداره الفلسطينية حتى لو رغب بذلك،او حتى لو جرى احتلال جميع المراكز الاساسية في المملكة من قبل أولئك الذين يجتهدون لحماية الشخصية الأردنية بالابتعاد عن الفلسطينيين . كان الملك،ولا يزال، ومن خلال وضعه كرجل دولة حقيقي، يعرف على وجه الدقة ان معادلة العلاقة الأردنية الفلسطينية ليست معادلة طوعية يبنيها الفلسطينيون والأردنيون كما يحلو لهم، انها معادلة فلسطينية اردنية – عربية – اسرائيلية – دولية. ان جميع الدول العربية، المحاذية لاسرائيل، محكومة بهذه المعادلة بنسبة، او بأخرى إلا الأردن فهو محكوم لها بالمطلق، وهنا يتعين شحذ كل القدرات الابداعية لرسم سياسة تنفذ من بين تعاريج هذه المعادلةلتحققق الهدف القريب (الحفاظ على الاردن ككيان سياسي مستقل)، ثم الهدف البعيد وهو صيغة العلاقة مع الكيان الذي يتأهب للولادة الا وهو الكيان الفلسطيني، إن بين الأردنيين والفلسطينيين اتفاقا لم يبطل مفعوله يقضي باقامة اتحاد كونفدرالي بين دولتي فلسطين والأردن .

إن هذا الاتفاق في واقع الامر هو السقف الدولي الذي سمح به العالم كي يعيش الشعبان الشقيقان في ظله،وليس خافيا ان في الامر مراعاة ولو مؤقتة لمخاوف الاسرائيليين المتعاظمةمن ولادة دولة النقيض التاريخي والقومي .

اذن لم لا تأخذ المنظمة دورها خاصة في الحقبة التي يراد لها ان تكون انتقالية مؤقتة،ثم وهذا هو الأهم لم لا يحرر الأردن نفسه من سطوة الاتهام الجاهز بمصادرة القرار الفلسطيني والاستيلاء عليه .

كان الأردن من اوائل الدول العربيةالتي اعترفت باعلان الاستقلال الفلسطيني، وسارعت الى منح الأشقاء الأقربين سفارة في قلب عمان. كان شعور الجميع وهم يشاهدون احتفال رفع العلم على مبنى السفارة، ويشاهدون ايضا السفير الطيب عبدالرحيم يقدم اوراق اعتماده سفيرا لدولة فلسطين لدى البلاط الهاشمي مزيجاً من الفرح والحزن، الفرح بالبدايات المادية لجعل حلم الدولة الفلسطينية ممكناً، والحزن لان عمان غدت للحظات كما لو انها بكين .

الحقائق الراهنة تقول ان الفلسطينيين اعلنوا استقلالهم من جانب واحد، وعلى ارض الجزائر رمز الكفاح الشعبي من اجل الاستقلال، وحين فعلوا ذلك كانوا مثل من يبني جدارا وراء ظهره كي لا ينكص على عقبيه، وهو يشق طريقه نحو المجازفة الأصعب والأخطر الا وهي تلبية الشروط المؤدية الى دخول المنظمة نادي الشرق الأوسط الذي كانت لا تزال ومنذ تأسيسها لم تحمل بعد بطاقة العضوية الكاملة فيه . كانت لاعباً دائماً في ساحاته الا انها دائماً كانت تدخل الملاعب بالواسطة او بالقفز من فوق الاسوار العالية.

توصلنا في اجتماعنا المخصص لبحث نتائج دورة الاستقلال الى الخلاصة التالية :

« اعتراف سوفياتي باعلان الاستقلال . . وكانت صيغة الاعتراف تحتمل تفسيرات متعددة كانت اقرب الى تحديد الأعتراف السوفيتي التقليدي بحق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم واقامة دولتهم المستقلة .

ولقد كان تفسيرهم لهذه الصيغة على النحو التالي : « إن القوانين السوفياتية تواجه حالة خاصة هي اعلان ولادة دولة في المنفى ». لم يكن التفسير كافيا، غير اننا قبلناه ورضينا به، وادرجنا الاتحاد السوفيتيي على قائمة الدول المعترفة بدولة فلسطين ، واتفقنا على عدم جعل صيغة الاعتراف قضية إشكالية خشية ان يؤثر على الايقاع القوي لاعترافات دول العالم المتواترة بهذا الوليد النادر، اما رفع درجة التمثيل الى سفارة فقد اعلمت رسميا انها قيد البحث، وان الدولة السوفياتية ستختار وقتا سياسيا وليس احتفاليا لذلك.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان مفيدا ان يذهب تراسوف الى واشنطن لعرض تقويمه لدورة الاستقلال، ولمساعدتنا على افهام الأمريكيين بأن البرنامج السياسي الجديد الذي اعلنته الدورة يكفي لان يسقط ما تبقى من تحفظات امريكية على مسألة الحوار مع المنظمة. وقبل ان نفترق عقب ذلك الاجتماع الطويل قلت للرجل الذي بلغت ساعات حواري معه (رقما قياسيا) «حاول ان تصور القرارات الفلسطينية على انها نتيجة ضغط سوفياتي » . قال ضاحكا :

« ألا ترى في ذلك انتقاصا لاستقلالية قراركم » .

قلت :

« إنها بالضبط محاولة فلسطينية نوعية لإظهار اساسية دور موسكو في التسوية. إن موسكو اساسية في موقعها كمركز للقطب الآخر، الا انها تدخل التفاصيل عبر مسامات من هذا النوع. كنت قاصداً ما أقول، لم يكن الامر مجرد لفتة تجاه دولة اعمل سفيرا لبلدي ولشعبي لديها. إن البرنامج السياسي الذي أقره المجلس بحاجة الى روافع دولية توفر له مصداقية كافية وامكانيات منطقية للبناء عليه .

إن المنظمة يجب ان تعبر المنطقة الرمادية التي تميزت بالحاجة اليومية الى اثبات الوجود، واستقطاب الأصدقاء، ونفي تهمة الارهاب، والتشدد السياسي الى المنطقة التالية التي تكون فيها رقما فعلياً وقانونياً في معادلة القوى السياسية. الأمر هنا بحاجة الى تدقيق اكثر في الحسابات، وتوقيت انضج لاعلان المبادرات واداة أفعل لإدخال المبادرات الى سوق التداول السياسي .

كان الاتحاد السوفياتي لايزال في موقع الدولة العظمى بكل ما لهذا الموقع من مزايا وما عليه من التزامات، كان الأقرار الأمريكي بحتمية التعاون مع هذه الدولة العظمى في المسألة الشرق أوسطية قد أكسب الرفاق مساحة عمل جديدة قد تكون ضيقة في واقع الامر، الا انها افضل بكثير من ذلك الاغلاق المحكم عليهم في السنوات الماضية.

كان لا بد من ان نحمّل السوفيات العبء الاكبر لتسويق مبادرتنا، ولا بد أيضاً من تزويدهم ببعض الوقود الشرق أوسطي ليتسنى لنا عبرهم، وعبر غيرهم الدخول على نحو اعمق الى شبكة التأثير الفعلي في بمجريات الأمور في منطقتنا .

ذات يوم سألت الرئيس عرفات : « لماذا وضعت موافقتك السرية على قرار ٢٤٢ في جيب اندريه غروميكو بالذات؟ » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أجاب : « لأنه وحده القادر على انتزاع ثمن امريكي لقاءها » .

استطاع غروميكو الحصول على مقدم الثمن عبر البيان المشترك بينه وبين فانس، والذي تضمن نصا متقدما حول الحقوق السياسية المشروعة للشعب الفلسطيني. رحب عرفات بالبيان، وحين تراجع الأمريكيون عنه في اليوم التالي عادت ورقة عرفات الى جيبه دون خسائر تذكر. غير ان المقارنة هنا تصلح فقط علي صعيد المبادىء العامة لكيفية تسويق المبادرات واختبار ادواتها الفاعلة أما على صعيد امور اكثر تفصيلا، فإن أشياءجديدة حدثت منذ ذلك الزمن وحتى أيامنا هذه، أعني ايام اعلان الاستقلال، والدخول السوفيتيي في خط التسوية كشريك مرحب به امريكيا .

«كان بيان فانس– غروميكو» ذا وزن ثقيل، وقع على سطح الركود السياسي السائد وقع الصاعقة آنذاك، فأحدث انفجارا قذف بالرئيس المصري الى القدس، أماتفاهم شولتز– شيفارنادزه فقد بدا وفق سياقه العام اكثر سهولة، لان الدولة العظمى الثانية مندفعة بقوة، واحيانا من دون ضوابط نحو وفاق شامل مع الدولة الأولى، واندفاع كهذا ليس مدججا بالايجابيات فقط .

كانت رحلات تراسوف الى الولايات المتحدة قد اتخذت طابعا منتظماً الى حد ما، وكان التنسيق السياسي في امر التسوية بيننا وبين الدولة السوفياتية قد اتخذ طابعاً نموذجياً في تبادل المعلومات والاقتراحات، وتنسيق الاتصال مع واشنطن،ولقد أدار محمود عباس عمل اللجنة المشتركة بكل جدية ومثابرة. إذ كان ضيفا دائماًعلى موسكو، ومضيفا دائما لموسكو في تونس. وكان ياسر عرفات يقدم للجّنة المشتركة كل دعمه، وكذلك كان الأمر بالنسبة لوزير خارجيتنا المخضرم فاروق القدومي، كانت سماء العلاقات الفلسطينية السوفياتية شديدة الزرقة والصفاء، وبوسعي القول ان المجريات السلسة لوقائع العلاقة لم تكن في واقع الأمر سوى الهدوء المناخي الذي يسبق عاصفة قادمة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهجرة

كانت بيريسترويكا غورباتشوف تقطع المسافات في المحيط الدولي بسرعة قياسية. لم يكن ذلك مؤشراً على نجاح ثورة الاصلاح، وانما كان بمثابة اغراء مدروس لمواصلةالتحول والتوغل فيه. كانت المبادرات الخارجية للبيريسترويكا تسبح على سطح التيار الدولي المشجع لها، وفي ذات الوقت كانت تحدياتها الداخلية تزداد تراكماً وخطورة، وفي حالات عدة كانت ازمات البريسترويكا الداخلية، توشك على التهام التجربة الكبرى، الا ان ما كان يقدم للشعب على انه انجاز خارجي كان يوفر للتجربة المتعبة بعض الهواء للتنفس البطيء. إنها مرحلة الاندماج الفوضوي بين العناصر، انها كيمياء شديدة التعقيد تجري في انبوب اختباري درجة الارتجال في تجاربه عالية جداً، فإما انجاز طلاق خلاق يأتي بفعل الصدفة. واما انفجار مروع يندلع بحكم منطق الأشياء. كانت السياسة الشرق اوسطية الجديدة شديدة التأثر بالتفاعلات الداخليةالنشطة في احشاء المجتمع السوفيتي، وزوايا الدولة السوفياتية. إن سعي موسكو نحو التسوية الشرق اوسطية، لا بد ان يعفيها تماما من الالتزامات المترتبة على زمن الحرب الباردة، ولا بد ان يرتب عليها التزامات جديدة يتعين تتوفر جميعها لتدفعها الى الطرف الآخر كتعويض عن زمن الانحيازالمطلق للعرب، وتطمين على جدية التوجه الجديد الذي يقوم على أساس التوازن بين طرفي النزاع. إن انتقال الدولة العظمى من واقع الشريك في الصراع الى واقع التوازن في السياسات والمواقف يعني، حكما، فتح باب واسع للطرف الآخر كي يجتهد في تحديد ما يجعله مقتنعا بأن التوازن صارحقيقة ملموسة،وهنا جاءت الفرصة الثمينة لأن يطلب الغرب ما يريد، وان تطلب اسرائيل ما تراه حقوقا لها.

كانت الأزمة السوفياتية ذات الجذر الاقتصادي الظاهر تتفاعل بحدة، وكان أرباب البيريسترويكا قد ذهبوا بعيداً في استنتاج الحجم الافتراضي للمساعدات الخارجية، ومزايا التحول الى اقتصاد السوق. كان في موقع القرار من يغذي الدماغ الاستراتيجي للبريسترويكا بمقولة ان المصالحة مع الصهيونية العالمية ستكون اكثر العناوين بريقا للتدليل على التحول العميق وشجاعته وجديته. وبدأ برونغمان رئيس المؤتمر اليهودي العالمي يغزو موسكو بوعوده المقدمة..وبدأ رجال المال والأعمال اليهود يتدفقون الى عاصمة «الشر» (كما كان الاعلام الصهيوني يصف موسكو). وبدأ يهود الاتحاد السوفييتي يجاهرون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بصهيونيتهم المعتقة، وشهدت جميع الجمهوريات السوفياتية انفجارا مدويا لروح الصهيونية الخبيئة وراء اسوار الماركسية- اللينينية زهاء سبعين سنة. كان انفجاراً غير عقلاني، وغير منطقي في العديد من مظاهره، واعلن عن تأسيس منظمات شيرن والأرغون والناحال، وهي منظمات انتهت بعد ان انجزت مهمة بناء دولة اسرائيل، وصار الشبان اليهود يحولون شوارع المدن، على نحو استعراضي، واضعين قبعاتهم الدائرية على رؤوسهم. وتحولت موسكو، بلمح البصر، الى ما يشبه فاترينة كبيرة تعرض فيها كل الطقوس اليهودية دونما تحفظ، لم يكن ذلك انطلاقاً تلقائياً او مجرد انطلاق للماء المضغوط عبر فجوات، او فراغات الغلاسنوست، وانما كان مبرمجا بدقة لانه كان المقدمة الضرورية للصفقة الكبرى .

وعلى الرغم من ان الغلاسنوست، وخاصة في عامي ٨٨ و٨٩ كانت قد منحت اليهود حق المغالاة في اظهار صهيونيتهم، ووصل الأمر الى عقد مؤتمر لصهاينة الاتحاد السوفيتي، هكذا وبذات العنوان . وافصح العديد من المنابر الاعلامية عن هويته الصهيونية، .وجرى دهس يسفيف، أحد الرموز المعادية للصهيونية في موسكو. على الرغم من ذلك كله فان القوى الصهيونية التي كانت قد وصلت الى مواقع فعالة في ما يسمى بالقوى الديمقراطية الداعمة للاصلاحات الجذرية، وكان جزء لا يستهان به منها كامنا في ثنايا المواقع الرسمية، بدأت تعمل بنشاط مركز ومحموم على اتجاهين يكمل أحدهما الآخر .

الأول : تكريس الحقوق اليهودية، والحصول على ضمانات من الدولة لحمايتها، وذلك من اجل دعم من يريدون البقاء في الدوْلة السوفيتية .

ثانياً : توفير حق الهجرة الى اسرائيل لمن يرغب .

ومن أجل توفير المناخ الملائم لقطع خطوات سريعة على هذين الاتجاهين لم يمض يوم دون ان تمتليء موسكو بشائعات عن مذبحة وشيكة لليهود ينظمها القوميون للروسي، او جماعة الذاكرة، او يقرأ في الصحف ويشاهد على شاشات التلفزيون تحريض يذكي نار العداء للشيوعية، ولقطات مدروسة تغذي هذا الاتجاه .

كنا نشاهد هذه الوقائع التي انهمرت على الحياة الروسية بتدفق عالي الوتيرة وشديد الاتساع، كنت اشعر بتراجع قدراتنا وامكاناتنا امام هذا الزحف الكاسح، لم اكن خائفا من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تنامي هذا الظاهرة كاحد مظاهر الصراع الداخلي، فتلك مسألة لا شأن لي بها كفلسطيني يعمل في مهمة محددة الا وهي تمثيل بلده وقضيته لدى بلد اجنبي، غير اني كنت اتوجس من تلك الأيام القادمة التي تبدأ فيها قوافل المهاجرين بالتدفق على فلسطين،وساعتئذٍ يندلع خطر جديد هو الافدح منذ تأسيس دولة اسرائيل في العام ٤٨، وتوسعها الخيالي في العام ١٩٦٧م.

ماذا يتعين علينا ان نفعل في مواجهة هذا الطوفان؟! إن مسألة الهجرة، وهذا ما يزيد الأمور تعقيدا، هي نسيج محكم لعناصر متعددة اندمج فيها المحلي بالعالمي والروحي بالاقتصادي والعفوي بالتأمري، انها مسألة فيها قدر من حقوق الانسان، وقدر من اهدار هذه الحقوق في ذات الوقت. انها في واقع الأمر اخطر تحد يمكن ان يواجهه الفلسطيني الذي يقع على كاهله ثقل الامكانيات الصهيونية العالمية، وتأثير الولايات المتحدة الامريكية، وتعاون الدولة السوفيتية العظمى.

كان لا بد أولا من دراسة الأسباب الجوهرية التي تحمل اليهودي السوفيتي على الهجرة إلى اسرائيل، لقد عقدنا ندوات فكرية لهذا الغرض، ودعونا مفكرين مرموقين للحديث في هذا الأمر ولم نغفل الحوار مع غلاة المتحمسين للهجرة من اليهود، وغلاة المتعاطفين مع الصهيونية من الروس، امثال بوفن الذي تحقق حلمه اخيرا بأن يكون سفيرا للاتحاد السوفيتي في اسرائيل، وقد أوصلتنا حصيلة دراساتنا وحواراتنا الى النتيجة التالية :

أولاً : ينبغي ان لا ننظر للراغبين في الهجرة على انهم شريحة اجتماعية واحدة .

ثانياً: ينبغي ان تكون مخاطبة هذه الشرائح بخطاب مدروس بعناية، ذلك ان اقل خطأ سوف يفضي بنا حتما الى نتائج عكسية، ليس فقط على صعيد الهجرة، وانما أيضاً على صعد أخرى قد تطال السياسية مع الدولة .

ثالثا: ان الجهد الفعال للحد من الُهجرة يتطلب منابر إعلامية مؤثرة وانفاقا ماليا هائلا، وتعاونا سياسيا من دول العالم .

أما فيما يخص تصنيف الشريحة الراغبة في الهجرة هنالك من هم مدفوعون اليها بحكم الأيدولوجيا، لأن اسرائيل هي (ارض المعياد)، ويتعين على كل يهودي ان يذهب اليها ويعيش على أرضها حسب الوعد التوراتي. كانت هذه الشريحة تمثل اقلية عددية الا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انها ارتفعت بحكم نمو النزعة القومية في عموم الاتحاد السوفيتي، وتراجع النفوذ السلطوي للحزب الشيوعي. إن تطورا كهذا جعل قطاعا جديدا من اليهود يفكر بشكل اعمق باسرائيل كمرجع قومي حيث أضحى ذلك ضروريا بعد ان صار لكل من يعيش على أرض هذه الدولة العظمى مرجع قومي يلوذ به، او سند خارجي يتحد معه في العقيدة والتراث .

وهذا النوع من الشرائح هو الأخطر والأشد صعوبة في المخاطبة والاستجابة للحوار، ومن جوف هذه الشريحة انطلقت تشكيلات بعضها مسلح لتشهر الحلم الصهيوني بأشد الوسائل بدائية وفظاظة،وهنالك من يدفعه الى الهجرة توق دفين الى الحرية، ليس بدافع من اضطهاد عنصري تعرض له، وانما بدافع التطلع الى حياة جديدة فيها فرص وفيرة لمضاعفة الثروة. إن اليهود في الاتحاد السوفيتي، لم يتعرضوا خلال احقاب ما بعد ستالين الى اي نوع من الاضطهاد أو المعاملة الاستثنائية، كان حرمانهم من حق الهجرة، ليس لدوافع دينيةاو سياسية خاصة بهم كيهود، ولكن لانه لم يكن متاحاً لأي سوفيتي مغادرة البلاد بحرية، كانوا بالإجمال افضل من غيرهم تأهيلا وامكانات مادية، كانوا منتشرين في كل انحاء الحياة السوفيتية كانتشار الملح في الطعام، وكانوا بدهائهم المعهود، يعرفون كيف يوظفون كل الاشياء لمصلحتهم، فهم في الحزب حراس الأممية، وفي الاعلام افضل المؤهلين لممارسة هذه المهنة،وفي الاقتصاد كذلك كانوا مستفيدين من كونهم قضية لهم سند خارجي هو الصهيونية العالمية ذات النفوذ العريض في الولايات المتحدة والغرب، وهم مستفيدون ايضا من كونهم مواطنين سوفيت لهم ذات الحقوق الدستورية الممنوحة لغيرهم من المسلمين والمسيحيين وباقي الملل والاجناس والقوميات

كانت هذه الشريحة البشرية على غير استعداد للتفكير باسرائيل، أو مجرد الذهاب اليها في زيارة سياحية، كان تطلع هذه الشريحة نحو الولايات المتحدة، في الأساس او نحو أي مكان رأسمالي متاح في العالم، غير أن هؤلاء والذين تراكمت في داخلهم رغبة مغادرة الدولة السوفيتية وجدوا انفسهم امام اغلاق محكم للباب الأمريكي والأوروبي، وهنا انقسموا الى ثلاث فئات، فئة تحبذ السفر لاسرائيل كي تحاول من هناك تحقيق احلامها بالهجرة الثانية الى امريكا. وفئة آثرت المغادرة والتخلف في المحطات الوسيطة بحثا عن فرص أفضل من البقاء في الاتحاد السوفيتي أو الذهاب الى اسرائيل. وفئة ثالثة بقيت في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البلاد حتى اشعار آخر، غير انها لم تيأس من امكانية الحصول على تأشيرة امريكية، وكانت عينات من هذه الفئة الثالثة وما تزال تصطف في طوابير طويلة امام السفارة الامريكية بموسكو متحلية بصبر ومثابرة نادرين للعصول على تأشيرةالهجرة .

أما الشريحة الثالثة فهي تلك التي اخذت على محمل الجد كل المقولات الدعائية الصهيونية حول الخطر المحدق باليهود في روسيا إن لم يكن الآن فغدا أو بعد غد، كما أخذوا على محمل الجد تلك الصورة الزاهية للحياة في اسرائيل والتي هي وفق الدعاية الصهيونة ارقى بكثير منها في روسيا .

ذات ليلة اصغيت الى برنامج «مساء الخير موسكو»، وهو اشهر برنامج تلفزيوني تشاهده الملايين السوفيتية، ويذاع عبر الشبكة المركزية. كان المتحدث يهوديا سوفيتيا استوطن في اسرائيل،لقد اتيح لهذا الرجل ان يخاطب الملايين السوفيتية على مدى نصف ساعة حول جوانب التفوق الاسرائيلي على الاتحادالسوفيتي،ودعا اليهود الى الذهاب الى اسرائيل، واسدى لهم نصيحة قيمة « سوف تواجهون،في بداية الامر، بعض الاشكالات على صعيد تقبل الترف والحياة الناعمة هناك بعد ان تعودتم سنوات طويلة على شظف العيش الاشتراكي / هكذا ...»

ومن بين هذه الشرائح الرئيسية الثلاث هنالك من هم ليسوا يهوداً، قاموا بتزوير هوياتهم والهجرة الى اسرائيل تدفعهم روح مغامرة تواقة الى رؤية نمط آخر من انماط الحياة ، احدهم قال : « اي مكان في الدنيا افضل من هنا » .

إن دوافع الهجرة تبدو مفزعة لكل من يحاول الحد منها ؟ إن العلاج الناجع لهذه القضية الخطرة ينبغي ان يكون سياسيا بالدرجة الأولى، اي يتعين على الولايات المتحدة ودول العالم ان تفتح ابوابها للمهاجرين اليهود. ان فكرة كهذه جرى طرحها رسميا من جانبنا على اعلى المستويات في الدولة السوفيتية، لا أعرف على وجه الدقة كيف عالجوا الأمر على هذا الصعيد أو هل عالجوه اصلاً كل الذي اعرفه ان الامريكيين رفعوا نسبةالقبول الى رقم متواضع جديد، لم يكن واقعياً اكثر من قطرة في نهر متدفق .

كانت مسألة الهجرة هي المعضلة الجوهرية التي نشأت بيننا وبين الدولة السوفيتية، لقد القت بظلالها القاتمة على المجرى السياسي الآخر الذي كان يسير في اتجاه صحيح

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومنطقي وفعال، واعني به جهود التسوية، كان جهدنا الرسمي مع الجهات الرسمية ينطلق من مبدأ « إن لم نسألك رد القضاء فإننا نسألك اللطف فيه ».لم يعد مجديا الحديث عن تقنين تصاريح المغادرة لأن البلاد ستنفتح عما قريب على مصراعيها لمن يحب، وتقارير وزارة الداخلية تشير الى ان الراغبين في ذلك تجاوزوا الملايين الست من مختلف القوميات، وحين كنا نظهر ضيقنا من هذا التوجه المؤذي لنا، كان محادثونا يسألون برفق «هل تريدون منا ان نضع جندياً على باب الطائرة وظيفته فرزاليهود من غيرهم لمنعهم من السفر».

بالطبع لا يصح ان نصل الى هذا الحد من تقديم الطلبات المستحيلة،غير اننا رجوناهم إتاحة الفرصة لنا كي نخاطب يهود الاتحاد السوفيتي عبراجهزة الاعلام خاصة وان لدينا ولديكم ارضية مشتركة، فأنتم تخافون من هجرة العقول والكفاءات، اسمحوا لنا ان نقول شيئا في هذا الصدد .

كان الجواب الجاهز« لم يعدلدينا اية سلطة على الإعلام،تحركوا انتم»،كنا نتحرك بالفعل، وكنا نجد بعض الفرص المحدودة، وهنا لا مناص من ذكر واحدة من الوقائع الدالة.

أمكن لنا الحصول على فيلم انتجه افرايم سافيلا حول الهجرة، انه فيلم موضوعي, يتضمن حججاً لا تقاوم تدحض كل منطلقات الدعاية الصهيونية حول الحياة في اسرائيل،ولقد وعِدنا من أعلى المستويات بتوفير امكانية عرضه على الشبكة المركزية. كان وفد فلسطيني برئاسة السيد محمود عباس أبو مازن يزور موسكو في اطار اجتماعات اللجنة المشتركة، وقد اقمت حفل عشاء رسمي في الممثلية آنذاك دعوت اليه السيد يولي فورنتسوف النائب الاول لوزير الخارجية الذي يعمل الآن ممثلا لروسيا لدى الأمم المتحدة، وهو أيضاً مستشار الرئيس للشؤون الخارجية، ودعوت شخصيات بارزة في الحزب والخارجية، وعقب العشاء قمنا بعرض الفيلم ولقي استحسانا جماعياً،ووعدنا بتسهيلات جدية لعرضه، في اليوم التالي وصل الى الممثليه احد ابرز نجوم التلفزيون السوفيتي، تسلم الشريط ومنذ ذلك الوقت وحتى اللحظة ما زلنا في انتظار عرضه .

لم يقتصر الأمر على عدم العرض بل إن نسخة الفيلم ذاتها لم تعد لنا، انها على الارجح أتلفت تماما. رغم ذلك كانت امامنا مساحات لا بأس بها للتحرك فيها،وعملنا ما في وسعنا لاستغلال هذه المساحات، طالبنا بمنح المهاجرين جوازات سفر تتيح لهم العودة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لو أرادوا، وقيل لنا ان الامر مدرج على جدول أعمال البرلمان، وقريبا سيمنح كل مواطن سوفيتي جواز سفر. طالبنا باتخاذ ترتيبات خاصة لمساعدة الراغبين في العودة الى الاتحاد السوفيتي، والذين تعج بهم القنصلية السوفيتية في تل ابيب، والسفارات السوفياتية في روما، والعديد من العواصم الغربية، وقيل لنا ان ذلك ليس واقعيا فمن أين نوفر للعائدين السكن وشروط الحياة من نقطة الصفر، وفي حالات عديدة كنا نجد من يطلب منا المساعدة لبناء مساكن كي نشجع الهجرة المضادة من سرائيل ؟!؟! (بعضهم طلب منا وضع ملايين الدولارات في موسكو لتغطية اثمان تذاكر السفر للذين قد يعودوا). كان الأمر ينطوي على امتهان سافر للعقل، واختراع ساذج لمعالجة ورم سرطاني آخذ بالتضخم والانتشار.

كانت الهجرة اليهودية مطروحة على الدوام كقضية رئيسية عى جدول أعمالنا مع الرسميين السوفييت، وكان شاقا علي كممثل للمنظمة في موسكو ان اجد معادلة الموقف والسلوك تجاه تداخل عاملين متنافرين في شبكة العلاقة الفلسطينية السوفيتية. كارثة الهجرة، وضرورة العلاقة، لم يكن الأمر سهلا، ولم يكن ممكنا بالنسبة لي ان أهمل عاملاً لمصلحة العامل الآخر، إن التغاضي عن كارثة الهجرة ينطوي على تواطؤ خطير يوجع الضمير، ويمس بالأذى روح الرسالة الوطنية التي احملها .

وربط العلاقة السياسية على الصعد الأخرى بموقف سوفيتي حاسم من الهجرة، يعني بداهة فقدان هذه العلاقة دون حدوث تقدم يذكر على الصعيد الآخر، لقد تكرست في داخلي، حيال هذه القضية، عقدة من نوع (بالغ الأهمية وقليل الأهمية في ذات الوقت). إن الفلسطيني هو مفتاح التسوية الشرق اوسطية، ولا يملك السوفيت تجاهل ذلك، غير ان هذا المفتاح لا يعني شيئا حين ترتبط مسألة الهجرة بالإمكانات المادية، وفي حالة من هذا النوع يصح السؤال اين قدرات تأثيرنا الاقتصادي، واستطرادا كيف يمكن ان تصل في التفكير الى ابعد من القدرات الفلسطينية التي تكاد لا ترى قياسا بالقدرات المضادة؟! اين القدرات العربية اذن؟ أين الثقل العربي الذي يجعل الدولة السوفيتية تضع في حسبانها رد فعل مؤذٍ لو تمادت في تشجيع وتسهيل الهجرة ؟! كانت هذه التساؤلات تلح علي، وانا في عمق الأزمة، واعترف انني، ولأول مرة، ربما ذقت ذلك الطعم الممض لليأس وانعدام الأفاق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مع ذلك . . كان لا بد من التظاهر بالاهتمام لدى سماع التحليل السوفيتي التالي لما يرونه عوامل حاسمة لإنهاء خطر الهجرة :

– لا بد من المساعدة في حل الأزمة الاقتصادية السوفيتية .

– لا بد من تسريع خطوات السلام في الشرق الاوسط .

– لا بد من حمل الاسرائيليين على وقف الاستيطان .

كانت إجابتي على هذا التحليل التعجيزي واقعية تماما، «أذن لننتقل الى الموضوع الآخر» .

ورغم ذلك كان لا بد من مواصلة المحاولة، لا بد من فعل شيء، وتحقيق ولو القليل . لم يكن الأمر بالنسبة لي ولزملائي في السفارة مجرد معالجة لألم الضمير، وانما لاستغلال الهوامش التي لا بد من وجودها في دهاليز، واروقة الدولة العظمى، كان الأمل معدوما في الحصول على اجراء رسمي يحد من الهجرة إلا على اضيق نطاق مثل التعهد بعدم فتح خط طيران مباشر مع اسرائيل. لقد جرى التزام نسبي بهذا التعهد، إلا أن الوسيلة هذه المرة لم تؤثر على الغاية، فوجد اليهود طرقهم الأخرى الى تل أبيب، ووجد بعض المرتزقة والسماسرة وسائلهم للافادة من خدمات الايروفلوت من وراء ظهر القرار السياسي.

في الكرملين

كان امتداد الصراع الداخلي على قمة الدولة العظمى يوفر امكانات متعاظمة للمزيد من النفوذ في إطارات، ومؤسسات وقرارات الدولة المحتضرة، وكانت حاجة المتصارعين للدعم الخارجي تجعلهم يتسابقون الى إسداء الخدمات لمن يعتقدون انهم قادرون على مد يد العون. كان اشدالمراهنين حماسا للعون الاسرائيلي المغدق هو السيد بوبوف عمدة موسكو (الديمقراطي)، وكثيرون مثله في المعاهد والاكاديميات والمنشآت الزراعية والصناعية والاقتصادية الجديدة أو التي تجددت . كان الرهان على رأس المال اليهودي لدى القوى المتنفذة على رأس الهرم السلطوي السوفيتي يتخذ غالبا سمات تدل على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سذاجة مفرطة، أو جهل متمادٍ في معرفة الحقائق الاولية البسيطة . إن كلمة رأس المال اليهودي كانت ذات وقع مقدس في نفوس صناع مجازفة بيريسترويكا،وكانت كلمة « عقود» واستثمار وبزنس تستحوذ على مكانة عميقة في نفوس المتطلعين الى حل الازمة الاقتصادية لمجرد النجاح في الحصول على قرار دستوري يجيز التحول الى اقتصاد السوق، ويفتح الباب على مصراعيه امام نعائم الغرب وعطاياه السخية. كانت كل هذه البدع، والتي جرى التعاطي معها بسطحية وسذاجة وقلة ادراك للقوى الصهيونية امتيازات استراتيجية هائلة لقاء أثمان شكلية لا تعني شيئا يذكر في الواقع. دعونا الآن ونحن في بدايات العام ٩٣ نتوجه بسؤال لمن يهمهم الأمر، ترى كم حصلتم من الدعم الجدي ؟!.

الجواب عشرات، وربما مئات العقود التي لم تنفذ لقاء التزامات نفذت من جانب السلطة السوفيتية بكل حماس .

حتى سيد البيريسترويكا ميخائيل غورباتشوف وجد نفسه اخيرا وقد وقع في قبضة «سذاجة التعامل مع رأس المال اليهودي»، وذلك حين استقبل ثلاثة وزراء من غلاة الليكود، وعقد معهم مؤتمرا صحفياً مشتركا لقاء وعد بتقديم قرض لبلدية موسكو قيمته مئتي مليون دولار. سيكون من قبيل السذاجة السؤال اين هذا المبلغ، هل وصل؟ لان السؤال الأصح في حالة من هذا النوع هو ما الذي حمل الزعيم السوفيتي على الاعتقاد بأن لدى حكومة اسرائيل امكانية تقديم مبلغ كهذا ؟! ثم لماذا تقدم هذا المبلغ فلقد حصلت على كل ما تريده تماماً.

لم تكن اسرائيل شديدة الحماس لطرح مسألة العلاقات الدبلوماسية الكاملة مع الدولة السوفيتية كقضية مفصلية، كانت الامور تسير على افضل مما يرام في ظل المستوى القنصلي للعلاقات المتبادلة. إن ابواب اسرائيل مشرعة لأي سوفيتي يحمل اي اختصاص، ويمارس اية وظيفة، وكذلك الأمر بالنسبة للاتحاد السوفيتي. إن القيادة السوفيتية ومهما بلغت درجة يقينها بأهمية العلاقة مع اسرائيل إلا أنها، في ذات الوقت،تجد نفسها بحاجة لمراعاة تعهدها العلني بعدم الاقدام على هذه الخطوة قبل تطور الموقف الاسرائيلي الرسمي تجاه السلام، وتحديدا تجاه القبول بفكرة المؤتمر الدولي . كان الطرفان راضيين كل الرضا عن الاتساع الواقعي للعلاقات الشاملة بينهما، لقد تطورت العلاقة السياسية على نحو ملفت،صار وزير خارجية الاتحاد السوفيتي يلتقي بالوزراء الاسرائيليين على هوامش

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لمؤتمرات واجتماعات الأمم المتحدة، وحين قام اداورد شيفرنادزه بزيارته الأولى الاخيرة للشرق الأوسط في شباط عام ٨٩، ادخل ضمن برنامجه الرسمي لقاء مع موشيه أرينز وزيرالخارجية الاسرائيلي. لم يكن مناسبا اجراء اللقاء في تل ابيب بحكم انعدام التمثيل الدبلوماسي بين الطرفين، فتم إجراؤه في القاهرة. لقدجرى استقبال ياسر عرفات ووفده في تلك الاثناء في ذات الغرفة التي استقبل فيها موشيه ارينز مما وفر للرئيس الفلسطيني مادة لطرفة اعلنها امام الصحفيين « لقد طلبت من الوزير الصديق التوسط لدى الاسرائيليين» .

كانت الدولة السوفيتية، كما سبق ذكره، قد اعلنت اعترافها باعلان الاستقلال الفلسطيني، إلا ان هذا الاعتراف ظل موضع جدل فقهي حول معانيه وابعاده، خاصة وانه لم يترجم عمليا برفع درجة التمثيل الفلسطيني في موسكو الى مستوى السفارة، كانت بعض المصادر السوفيتية قد سربت معلومة تفيد بأن وزير الخارجية سيعلم عرفات بقرار رفع درجة التمثيل اثناء زيارته للمنطقة، وسيقترن ذلك برفع مستوى التمثيل الاسرائيلي في موسكو الى درجة اعلى من وضع البعثة القنصلية، واقل من درجة التمثيل الدبلوماسي الكامل .

حين التقيت في القاهرة بالرئيس عرفات قبل بدء اللقاء الرسمي مع الوزير السوفيتي بادرني ياسر عبد ربه قائلا: ستكون اول سفير فلسطيني لدى الكرملين . لقد فاجأني المسؤول الفلسطيني بهذه المعلومة اليقينية. كنت قادما لتوي من موسكو، وكنت قد تناولت طعام الغداء مع الدبلوماسي السوفيتي روبرت كورديف، وتحدثنا عن كل شيء حتى عن العناصر الرئيسية، كما يتوقعها، لخطاب شيفرنادزه الذي سيلقيه في القاهرة. لم اسمع اشارة الى رفع درجةالتمثيل، مع ذلك قد يكون لدى السيد ياسر عبد ربه مصادر أعلى شأنا واكثر دراية بالأمور من مصادري .

كنت سعيدا بهذه المعلومة، سعيدا من اجل فلسطين، حيث لا جدال في اهمية هذه الخطوة بالنسبة لها، وسعيدا من اجلي حيث منصب سفير دولة فلسطين لدى الكرملين يستحق شعورا ببعض الزهو الشخصي .

كانت حفاوة شيفرناده بالغة بعرفات ووفده، لم يكتف بالاجتماع الرسمي الذي جرى في مبنى السفارة السوفيتية بالقاهرة، وإنما وجه له الدعوة لعشاء عمل يلي الاجتماع، وعلى الرغم من ارتباط عرفات بموعد محدد مع السيدعصمت عبدالمجيد وزيرخارجية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصر في ذات الوقت الذي سيبدأ فيه عشاء العمل إلا انه قبل اللفتة الكريمة بامتنان، وعالج الموقف على طريقته المألوفة باقتراح حل وسط، « ساعة لشيفرنادزه وساعة من عصمت عبدالمجيد وينتهي الأمر»، وبالفعل حصلنا على نصف عشاء بمعية ادوارد شيفرنادزه ونصف اجتماع مع الدكتور عصمت عبدالمجيد غير ان الشيء الذي لم احصل عليه انذاك هو صفة اول سفير لفلسطين لدى الاتحاد السوفيتي . كانت خلاصة الاجتماع الذي تم مع الوزير السوفيتي محل بحث في اجتماع خاص للوفد الفلسطيني عقد بمقر إقامة عرفات في قصر الضيافة بالقاهرة. ولقد راق لي توضيح ياسر عبدربه لغموض الاسباب الكامنة وراء عدم إبلاغنا برفع درجة التمثيل. كان توضيحا منطقيا لم اصل الى ايجاد قرائن معلوماتيه عنه فيما بعد «لقد تم تأجيل الموضوع الى وقت آخر، كي لا يوجه ضربة لمجرى العلاقات النامية مع اسرائيل »، تفسير ذكي بلا شك، كانت زيارة شيفرنادزه ضرورة حيوية للطرفين السوفيتي والعربي، وكانت التوجهات الجديدة للسياسة الخارجية السوفيتية تشق طريقها الى العالم بسرعة قياسية،اما بالنسبة للشرق الأوسط فقد كانت تبدو مبهمة، أو في أفضل الحالات غير واضحة بذات الدرجة من الوضوح الذي كانت عليه في السنوات السابقة، لم يكتف الوزير السوفيتي بعرض سياسة دولته على الزعماء الذين التقاهم، بل إنه آثر ان يعرضها على اوسع نطاق ممكن، وفي خطاب علني اختار القاهرة كمكان لإطلاقه، كان الخطاب بمثابة لوحة بلاغية شديدة الرقي والتكامل .

كان وثيقة شديدة الجرأة والمباشرة، ولقد حاول عبر هذا الخطاب ان يرضي جميع اطراف النزاع الشرق الأوسطي، بما في ذلك اسرائيل « التي تضم شعبا حضاريا خلاقا» وكذلك « الفلسطينيين الذين لا حل معقول دون حقوقهم الوطنية »،واستخدم عبارة تشيد بالروح الكفاحية الأصلية لدى الشعب الفلسطيني حيث قال : «قد تزول الاهرامات ولا يزول تصميم الشعب الفلسطيني على نيل حقوقه » .

إن اللغة تمتلك قدرات خارقة على اخفاء المعاني الحقيقية، او اظهار ما هو غير مقصود اصلا، ولو جاز لي ان استخلص عبارات بوصفها الاشارات النوعية الدالة على التحول السياسي إزاء الشرق الاوسط لاخترت عبارة واحدة هي :

« ليس المهم معايير التسوية وانما اداتها» .

إن هذه العبارة تعني إقلاع الاتحاد السوفيتي عن وضع أي شرط مسبق للتسوية، وكل ما يمكن قوله عن المؤتمر الدولي، او الشرعية الدولية او الحلول الوسط القائمة على قاعدة توازن المصالح هو مجرد رأي سوفياتي أو اجتهاد، المهم ان تباشر الامم المتحدة بجهودها لبدء عملية سلمية جدية، وبعدئذ تتكفل المفاوضات المباشرة باكتشاف آفاق تقدمها وانجازاتها، كان اقتراح الامم المتحدة كأداة للتسوية نابعا من كون المنظمة الدولية مؤهلة لهذا الدور بحكم رسالتها الأساسية، وبحكم التجارب ايضاً. كانت الأمم المتحدة قد لعبت دورا فعالا في المسألة الافغانية، ولم لا تنسحب هذه التجربة على الشرق الأوسط. وامعانا في تسويق الفكرة جرى تعزيزها باقتراح عملي « الطلب من الأمين العام للامم المتحدة تعيين مندوب رفيع المستوى ليتولى التحضير للعملية السلمية ». لا استطيع القول ان هذا الاقتراح كان وليد نزعة حسن النية التي صبغت التوجهات السياسية الخارجية لعهد غورباتشوف، او قد يكون في الأمرنية توفير غطاء معقول للطرح الجديد ألاوهو ابعاد معايير التسوية عن الجدل الدائر بشأن الشرق الأوسط لمصلحة تحقيق الأقل صعوبة الا وهو الأداة . فما دام القطب الآخر قد انتقل الى التركيز على الاداة فما اسهل ان ينتقل في مرحلة لاحقة الى قبول امكانية تغييرها خاصة حين يعترف به كشريك شرعي في العملية برمتها. في هذه الفترة، وعلى ما اذكر، انهمك اذكياء دائرة الشرق الأوسط بوزارة الخارجية في التفتيش عن المخارج العملية التي يتعين توفيرها لتفادي الجمود حول مسألة المؤتمر الدولي. إن اسرائيل ترفضه بالمطلق وامريكا لا تحبذه وتعرب عن ذلك بلغة سلسلة . . « قد نوافق عليه في وقت آخر »، أما الذين يعتبرونه اساس التسوية واطارها، وعلى رأسهم الامم المتحدة بالذات، فهم جميعاً يملكون امكانية التقدم الفعلي خطوة واحدة الى الأمام .

اذن،وهنا ولدت فكرة تجزئة الاطارات وفق المواضيع، هنالك امور تحتاج الى مفاوضات ثنائية مباشرة، وهنالك امور اخرى تحتاج الى مشاركة اطراف متعددة. باختصار لقد توصل الخبراء الى صيغة مبدئية قوامها تفكيك الصيغ القديمة التي اقترحت لمعالجة المعضلة الشرق اوسطية، واختيار قطع الغيار الصالحة منها لجمعها في محرك جديد. كنت وفي لقاءاتي العديدة مع هؤلاء الخبراء اشاركهم التفكير بصوت مرتفع، كانت افضل وأهم الاجتماعات هي تلك التي تتم خارج الغرف الصغيرة في الطابق الثامن للمبنى التاريخي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الضخم - مبنى وزارة الخارجية - كنت اعلن باستمرار انني هنا من اجل التعلم، وقد اكون قادرا على فهم الأفكار الجريئة غير المألوفة في تراث اللغة السياسية المختصة بالتسوية.

إن اللقاءات الرسمية المدونة في المحاضر تتخذ دائما طابع الحذر،وتلتزم مفردات وتعابير تعفي المتكلم من اي التزام، انها تسجيل متبادل للمواقف الرسمية المكسوة بطبقة من الزبدة والسكر اسمها العواطف العميقةالمتبادلة. كانت اللقاءات غير الرسمية توفر لي فرصا معقولة لاستنتاج الاتجاه الحقيقي لنهر السياسة الذي غالبا ما يجري تحت شبكة كثيفة من الأشجار، لقد تعرفت في سياق عملي السياسي على معظم من يتعين علي معرفتهم كلاعبين أساسيين في الشأن الشرق اوسطي . كنت وقد التقيت مع الوزير ادوارد شيفرنادزه عدة مرات، اراقب بانتباه شديد مدى حاجته للجوء الى الورقة المكتوبة امامه كي يتحد ث عن الشرق الأوسط. في اللقاء الأول (أثناء زيارة عرفات) كان شديد الالتزام بالنص المكتوب فلقد كان الرجل آنذاك لايزال جديداً على السياسة الخارجية عموما، ومغترباً عن تعقيد وتشابك عناصر المعادلة الشرق اوسطية .

في اللقاء الثاني في القاهرة،كان اكثر تحررا من النص، وفي اللقاءات الاخيرة كان يوجه اسئلة شديدة الدقة حول أمور تفصيلية تتولد غالبا في سياق الحوار .كان ادوارد شيفرنادزه بعيدا جدا عن ان يكون وزيرا محترفاً، كان زعيما سوفياتيا، وكان الذراع الأمين لميخائيل غورباتشوف، وحامل سره الأول أيام كانت البريسترويكا مجرد فكرة جنينية في رأس صاحبها.كان الزعيم الجورجي يتصدر الفتوحات الخارجية للبريسترويكا دون ان يغيب ذهنه للحظة واحدة انه قد يكون واحدا من الأوائل الذين سيدفعون الثمن في حمى تفاقم الأزمة الداخلية. كان موقنا فيما يخص الشرق الأوسط باستحالة بلوغ أي حل دون توفير الحقوق الوطنية الفلسطينية، واظنه ظل على هذا الايمان حتى في اوج قيادته المغالية للتشدد السوفيتي ضد العراق ابان ازمة الخليج .

وامكن لي التعرف على يولي فورونتسوف النائب الأول لوزير الخارجية عضو اللجنة المركزية، ورجل المهمات الصعبة، كان فورنتسوف هو رجل الميدان في وزارة الخارجية، وانسجاماً مع هذه الصيغة تم انتدابه سفيرا لدى افغانستان مع احتفاظه بمرتبته الرفيعة كنائب اول للوزير. كان انتدابه لهذه المهمة الأولى الذي ينتقص مظهريا من وظيفته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاصلية بمثابة تعزيز لثقة القيادةالسوفيتية بقدراته، فلقد كلف بتوفير انسحاب آمن وهادىء للقوات السوفيتية من افغانستان وقد فعل ذلك .

إنني احتفظ لهذا الرجل،بالذات، بمكانة راسخة في نفسي،ودعني اجازف بارجاع الأمر الى عامل شخصي، فلقد كان هو بالذات من تقبل اوراق اعتمادي كممثل لمنظمة التحرير بموسكو، وكان أول من أبلغني فيما بعد قرار الحكومة السوفياتية برفع درجة التمثيل الفلسطيني في موسكو الى درجة السفارة

كان التداخل بين معضلة الهجرة، ومجرى الاعداد الاولي للتسوية قد خيم كليا على عقولنا وقلوبنا، وكانت قمة مالطة قد اسفرت واقعيا عن تعزيزجديد للمجرى الايجابي المتسارع للعلاقة الأمريكية – السوفيتية، وتولى اسحق شامير امر تزويد وسائل الاعلام بما لم يتم الاعلان عنه من اتفاقات وتوجهات بين القوتين الأعظم، ومن ضمنها مسألة الهجرة. لقد اعلن شامير انه يعد العدة لاستقبال مليون مهاجر خلال الأعوام القادمة،واسرف في تسويق الأمر كإنجاز تاريخي تحققه اسرائيل في عهده يوازي في الجوهر انجاز اقامة الدولة العبرية .

ظلت محاولاتنا مع الدولة السوفياتية بشأن اتخاذ بعض الأجراءات التي تحد من تدفق طوفان الهجرة تراوح مكانها، وظلت جهودنا الاعلامية « الاقناعية » تبدو على ضآلة تأثيرها كما لو انها نوع من اللعب خارج الملعب.كانت تلك الفترة هي اسوأ فترات العلاقة بين منظمة التحرير والدولة السوفيتية، فلقد غرق تنسيقنا الطموح في محيط من الغيوم السوداء .

في تلك الفترة فتحت ابواب موسكو لأريئيل شارون رمز التشدد الدموي الاسرائيلي. لم يكن قد دعي بصفة رسمية او من قبل جهة رسمية، الا ان موجة التعاطف المتنامية مع اسرائيل وفرت له فرصا جيدة لنشاط فعال في موسكو. لم يكن مجرد داعية للهجرة، بل رجل «بزنس» ايضا فلقد بحث في امر الاتجار بالبيوت الجاهزة وبعض الشؤون الزراعية .

كان عيزر وايزمن وزيرا في الحكومة الاسرائيلية، ولقد علمت من مصادر خاصة انه راغب في زيارة موسكو. لم يكن يواجه مشكلة في الدخول ما دام قد وجد من يوجه له

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدعوة للزيارة، كانت المشكلة في .. « كيف يجري التعامل رسميا مع الوزير الاسرائيلي، وعلى اي مستوى سيجري استقباله في العاصمة موسكو » .

في حديث جانبي مع السيد يولي فورونتسوف النائب الأول لوزير الخارجية، والذي كان قد أكمل مهمته في افغانستان، ابلغني ان الوزير الاسرائيلي سيصل مساء اليوم، وانه – أي فورنتسوف – يأمل بأن تتفهم القيادة الفلسطينية الموقف،وتحدث بكلمات طيبة عن التوجهات السلمية للوزير الاسرائيلي، وابدى اسفه للضجة الكبرى التي أحيطت بالزيارة في اسرائيل حيث كان شامير قد اتخذ قرارا بمنع الوزير من القيام بهذه الزيارة .

علمت ان وزير الخارجية ادوارد شيفرنادزه سوف يستقبل الضيف الاسرائيلي. امتلأت موسكو بشائعات تقطع بأن عيزر وايزمن، سيحصل خلال زيارته لموسكو على جائزة ترضية توازن موقفه الصعب في اوساط حكومته، وان هذه الجائزة ستكون اعلانا برفع درجة التمثيل الدبلوماسي في موسكو وتل أبيب الى مستوى السفارة .

كنت واحدا من قلائل يعرفون ان شيئا من هذا القبيل لن يحدث .

في كانون ثاني يناير٩٠، تلقيت دعوة عاجلة لمقابلة السيد يولي فورونتسوف. توجهت الى وزارة الخارجية، فاقتادني احدالموظفين الى الطابق السابع حيث مكاتب الوزير ونوابه الرئيسيون، وفي المكان ذاته الذي تقبل فيه السيد فورونتسوف اوراق اعتمادي كممثل لمنظمة التحرير مطلع العام ٨٨،ابلغني الرجل قرار القيادة السوفياتية برفع درجة التمثيل الفلسطيني في موسكو الى مستوى السفارة .

كانت لحظات لا تنسى،كان فلاديمير بولياكوف حاضرا ذلك اللقاء المفرح، وكانت انفعالات الرجلين تفصح عن راحة مميزة تجاه خطوة ستبهج الفلسطينيين لا محالة، فضلا عن انها ستضخ دما جديدا في عروق العلاقة السياسية التي انهكتها كارثة الهجرة .

اصطحبني فورنتسوف الى حيث قاعة الاجتماعات الرسمية، وهناك وجدت جميع السفراء العرب في الانتظار.

لم يكن اي واحد منهم عالما سبب دعوتهم المفاجئة الى لقاء فورنتسوف، ولو أن معظمهم كان يتوجس خيفة من سماع كلمات تؤكد صحة الاشاعات الرائجة في موسكو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حول رفع درجة التمثيل الدبلوماسي مع اسرائيل . قام نائب وزير الخارجية بابلاغ السفراء العرب قرار الحكومة السوفيتية، ظهرت علامات دهشة على الوجوه،كان الجميع قدشعر بارتياح عميق .

اسند السفراء العرب لعميدهم السفير عبد المحسن الدعيج سفير الكويت بموسكو مهمة شكر الحكومةالسوفيتية على هذا القرار.

وبالفعل تحدث سفير الكويت شاكرا باسم الامةالعربية، منوها للوزير بصراحة مألوفة عنه بأنه كان يتوقع سماع خبر مغاير تماما أي رفع درجة التمثيل مع اسرائيل، فاجابه فورونتسوف مازحاً :

« يؤسفني أنني لم استطع تحقيق هذا التوقع ؟؟ ..

كان احد الأصدقاء من موظفي جهاز اللجنة المركزية قد اقترح لقاءاً تلفزيونيا بيني وبين الوزير عزرا وايزمن، وقد رحبت بالفكرة، وبالفعل تم اللقاء، جرى تصوير الجزء المتعلق بالوزير في جناحه بالفندق،وجرى تصوير الجزء المتعلق بي في مبنى السفارة، كان ذلك اول نشاط اقوم به في الوضع الجديد .

كان عزرا وايزمن اول رجل عرف بقرار الحكومة السوفيتية رفع درجة التمثيل الفلسطيني في موسكو الى سفارة .إن ميخائيل غورباتشوف لم يصبح بعد رئيسا للاتحاد السوفيتي، لذا لم تتح لي فرصة تقديم اوراق اعتمادي اليه .

عند التاسعة صباحا وصل رجل البروتوكول السوفيتي الى مبنى سفارة دولة فلسطينبموسكو، كان يرتدي لباس المراسم، بذلة سوداء مزينة بالنياشين والأكمام الذهبية، وفي ساحة السفارة وقفت سيارة الزيل الشهيرة التي لا تستخدم عادة إلا من قبل اعضاء المكتب السياسي، ومرة في العمر من قبل السفراء حين يصعدون الى الكرملين لتقديم اوراق اعتمادهم .

كان زملائي أعضاء السفارة يرتدون افضل ما لديهم من لباس استعدادا لولوج الكرملين، ولأول مرة في التاريخ كدبلوماسيين يمثلون دولتهم التي لم تولد بعد، كانوا فرحين بالمناسبة السعيدة ولقد اعادني مشهدهم الطفولي الى تلك المشاهد المحفورة في الذاكرة والوجدان .. (صباح كل عيد) . قام رجل البروتوكول بتحفيظي دوري الذي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يجب ان أتقيد به حرفيا منذ لحظة مغادرة السفارة حتى لحظة العودة اليها، اخرج من جيبه خريطة رسمت فيها نقاط ودوائر واسهم، وراح يشير بقلمه هنا تقف، بعد خطوتين الى الامام، هنا ستتكلم عدة كلمات .. الخ .

انطلقت بنا السيارة المهولة، إن لهذا النوع من السيارات سطوة طاغية على كل من يشاهدها،انها التجسيد الاكثر مهابة لذلك المنصب الالهي المسمى (بعضوية المكتب السياسي) .

كانت تقطع الطريق العريض الى الكرملين وعلى مقدمتها يخفق علم الدولة الفلسطينية العتيدة . . وعلم الدولة السوفياتة ؟؟.

وصلنا الى مقر نائب رئيس هيئة رئاسة مجلس السوفييت الأعلى الرفيق اناتولي لوكيانوف . . (الذي اتهم بعد سنة تقريبا بقيادة محاولة الانقلاب). عبرنا البوابة الخارجية للمبنى، وصعدنا الدرجات الرخامية، ووجدنا انفسنا نعبر ممراً طويلا تزينه على الجانبين اعمدة مرمرية شاهقة الارتفاع، وفي ظل كل عامود كان يقف جندي سوفيتي يؤدي التحية للسفير الجديد .

إن الكرملين وطقوسه الخاصة كان آخر ما تبقى من المظاهر الصارخة للدولة العظمى. كان الجنود السوفييت ذووا النظرات الصارمة يبدون وكأنهم عائدون لتوهم من معركة احتلال برلين .

تسلم السيد لوكيانوف اوراق الاعتماد، وسجل بذلك يوم الحادي والعشرين من شباط / فبراير/ عام ٩٠ يوما يتقبل فيه الكرملين، ولأول مرة في التاريخ اوراق اعتماد سفير فلسطين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجزء الثاني

أزمة الخليج

الاجتياح – هلسنكي

استيقظ النائمون في الكويت على صرير جنازير الدبابات العراقية فجر الثاني من آب اغسطس ١٩٩٠. كان الاجتياح العسكري العراقي لأراضي الامارة صاعقا وشاملاً وبلا أي قدر من مقاومة تذكر.

لم يكن الجيش الجبار الخارج لتوه من انتصار نهائي على الدولة الاقليمية العظمى في الخليج « ايران» ليجد صعوبة تذكر في ابتلاع واحدة من أصغر دول العالم.

كان الاجتياح بمثابة صدمة عنيفة هزت العالم، ايقظت معظم زعمائه المؤثرين من نومهم العميق، وفرضت على الكون حدثا نوعياً سيملي فيما بعد ولادة اكبر تحالف عسكري شهدته المعمورة منذ بدء الخليقة.

كان الاجتياح « كخطوة عسكرية» يبدو كما لو أنه مفاجيء حتى للأقمار الصناعية المنوط بها تسجيل كل حركة وسكنة على سطح الكرة الأرضية، كما كان «كتطور في سياق أزمة » بمثابة نقلة شديدة السرعة من واقع إلى واقع آخر.

كان البلدان ، العراق والكويت، ومنذ الأسابيع الأولى التي تلت الانتصار العراقي المدوي على ايران قد وجدا نفسيهما يدخلان دائرة الأزمة الأخوية،وعلى وجاهة السبب المباشر « أسعار النفط »، حيث الانخفاض المروع في سعر البرميل بمثابة تهديد بالغ الخطورة للاقتصاد العراقي المثقل بأعباء الحرب الطويلة .كما كان رفع نسبة الانتاج لا يقل خطرا وعلى وجاهة هذا الدافع – الا أنه لم يبدُ في لحظة من اللحظات كافياً لاشاعة جو الحرب، أو اطلاق اشارات جدية تفضي إلى أنها وشيكة الوقوع.

« هل كانت هنالك امكانية لتفادي الاجتياح » ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجواب النموذجي على هذا السؤال « بالطبع»، خصوصاً حين يتعلق الأمر بطرفين عربيين ينتميان الى تراث مشترك يكتظ بالخلافات الأخوية، أعني كان ممكنا ترويض الأزمة، وادخالها إلى ذلك القفص العربي الذي يمتليء بالازمات المخزونة .

غير أن الذي حدث وضع العرب والعالم أمام حقيقة جديدة تقول أن الكويت أضحت محتلة من قبل شقيقتها الكبرى، وأن قراراً باعادة انتاجها في المعمل التاريخي كمحافظة ١٩ من محافظات بلاد ما بين النهرين ربما يكون قيد الاعداد .

صبيحة الاجتياح كنت على وشك مغادرة تونس الى عمان ثم موسكو، وقد مكنني ذلك من رصد البدايات الحارة للجدل الفلسطيني حول الحدث الكبير، وتونس تصلح لاستنباط الخلاصات الحاسمة والسريعة، لأن الشريحة التي تعيش هناك تمثل وفي دائرة ضيقة الشعب والسلطة، اي الرأي العام والقرار السياسي .

كانت القرارات الأولية للحدث شديدة الاختلاف والتباين، فهنالك من رأى في الأمر – سقوط حجر ضخم على سطح الركود الشرق أوسطي .

وصدر كهذا يفضي إلى عجز بديهي، إذن لا بد من التعاطي مع هذه الأزمة بمنطق الترابط الوثيق في العناصر وآفاق الحل.

وهنالك من رأى الأمر من زاوية أخرى، لان الذي حدث هو أول تغيير اقليمي ذي شأن في منطقة يتفق العالم كله على أنها يجب أن تظل موطن استقرار آمن وراسخ. انه تغيير يمس مجتمع أعصاب مصدر الطاقة الغربي ، ويقض مضاجع الكيانات القائمة على ذلك الجزء من العالم . واجتهاد كهذا يكفي لتولي استنتاجات متناقضة ايضا، فهنالك من توقع سحق العراق وهناك من أبدى شكوكاً مفادها « إن خطوة كهذه ربما تكون منسقة مع الولايات المتحدة »، وهناك من قرأ الحدث بطريقة شعبية أي احتفالية، وهذا النوع من البشر يقرأ كل شيء تحت تأثير نوازع نفسية، فالجيش العراقي الذي بهر العرب بأدائه المنتصر على ايران أيقظ في نفوس الناس ذلك التطلع الى رؤية نصر واحد في معرض التاريخ العربي المعاصر المكتظ بالهزائم . . . والنصر الذي كان بعضهم ينظر إليه ليس احتلال الكويت وإنما هزيمة أمريكا .

إن رؤية أي حدث سياسي من خلال اطلاق العنان للغرائز والرغبات الدفينة يفضي حتما الى نتائج عكسية تماماً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإذا كان من بديهيات الأمور ان يشتعل جدل صاخب في الشارع الفلسطيني حول حدث كهذا، فمن بديهيات الأمور الجري على ذلك التقليد المكتسب الذي جعل قراراتنا السياسية محكومة بمعاييرخاصة، فنحن وجدنا من يتخذ قرارات ائتلافية وحدها- يتعين عليها مراعاة النزعات النفسية والشطحات العقلية في قرارها . . « ألسنا ديمقراطيين» !!!

أدخلت القراءات جميعا الى ذلك الاناء الذي تطبخ فيه عادة القرارات السياسية الفلسطينية. . وخلصنا الى ما يلي : -

- ضرورة ان يتم الحل ضمن الاطرالعربية .

- الحرص على عدم وقوع تدخل عسكري أجنبي .

- فتح ملف جميع مشاكل المنطقة .

كان موقفنا الأولي ينبيء بانحياز واضح لمصلحة العراق، إذ خلا تماماً من أية اشارة لادانة الاحتلال والدعوة المباشرةالى الانسحاب .

وحين تكون نقطة البداية هكذا، فان حزمة من المشاكل لا بد ان تنشأ أمام الجهد السياسي الفلسطيني فضلاً عن المثلبة الاخلاقية التي لن يمررها اعداؤنا وأصدقاؤنا على السواء . . . « فلسطينيون يكافحون ضد الاحتلال .. يؤيدون إحتلالا . . » .

لم يكن باستطاعة القيادة الفلسطينية إصدار موقف آخر، كما لم يكن من السهل عليها فيما بعد تفادي دفع ثمن هذا الموقف، إذ اغلقت في وجهها عشرات الأبواب الحيوية التي كانت مفتوحة قبل يوم واحد من الغزو . . .

لماذا لم يكن باستطاعتها إصدار موقف آخر. . هذا ما سيبدو جلياً من خلال السياق المتواصل للأزمة ومجرياتها .

كانت ردود الفعل تتسارع على نحو يكاد لا يرى، والعرب كعادتهم يتنادون حيال امر كهذا إلى مؤتمر قمة، ويعملون بطرقهم المألوفة على ادخال الأزمة الى مجراها العربي كهدف بحد ذاته، انهم يختلفون على الارجح، ويتوصلون الى قرار ائتلافي يفضي إلى تجميد الأزمة، أو وضعها على نار هادئة .

اتخذت القمة العربية قرارها السريع بادانة الاجتياح العراقي، وطلبت سحب القوات العراقية فوراً من الأراضي الكويتية، وعودة الأمور إلى ما كانت عليه يوم الأول من آب اغسطس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم يكن عقلانياً بالنسبة لدول الغرب توقع اسناد مهمة معالجةهذاالحدث الجسيم للأسرة العربية، ذلك ممكن ومتاح وضروري لو كان الأمر خلافا بين دولتين عربيتين فقيرتين، ساعتئذ حُلت الأزمة او لم تحل لا فرق ما دامت ستبقى بين جدران البيت العربي دون ان تمس قطرة نفط واحدة، أو تهدد بأي قدر من التهديد مصادر الطاقة العربية .

منذ اندلاع الأزمة في طورها الجديد، شرع الأمريكيون في الحركة. كانوا حريصين منذ اللحظات الأولى على الامساك وبقوة بخيوط، وعناصر الأزمة، وتوفير ما يلزم لجعل التحكم بمساراتها مطلقاً. كان الاندفاع الأمريكي سريعاً وحاسماً نحو توفير الأراضي التي يتعين اقامة البناء الاستراتيجي عليها . فانجزوا الأتي : — اتفاق حاسم مع الاتحاد السوفياتي على الموقف اولا، ثم على المعالجة ثانياً، وذلك حدث لأول مرة في التاريخ بهذه السرعة وبهذا القدر من الاندماج.

— الافادة من قرارات القمة العربية لاستصدار قرارات اكثر فاعلية ودقة عن مجلس الأمن حيث المكان الملائم الذي اختاره الأمريكيون كغرفة عمليات سياسية — اعلامية لمعالجة الموقف، وبالطبع كمكان احتشاد للحلفاء المحتملين .

— السعي للحصول على موافقة سعودية بنزول القوات الى الصحراء مع حرص على طمأنة الجميع بأن التواجد العسكري الأمريكي والحليف سيكون مؤقتا، وينتهي فور اكمال المهمة . . « تحرير الكويت» لا اكثر ولا أقل .

سجل الكمبيوتر الامريكي سيناريو الحركة وفق برنامج متكامل، وبدأت الآلية الضخمة في العمل .

هنا في موسكو حيث اخذت الدولة العظمى على حين غرة، كانت بريسترويكا غورباتشوف ترى في الأزمة اختبارا عملياً لمدى مصداقية توجهاتها الدولية ذات الأردية الأخلاقية والمثالية الزاهية . إن الاجتياح العراقي « الغادر» كما وصفه غورباتشوف في اوديسا يجب ان ينتهي بالانسحاب الفوري، ويجب ان تسند مهمة الأزمة من أولها إلى آخرها إلى اطارات الأمم المتحدة.

إن النظام الدولي الجديد الذي لم يكن واقعيا، والذي رأى النور على ورق البريسترويكا، لا يحتمل تصعيداً من هذا النوع، ان السوفييت بصدد الاعداد لمراسم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لتشييع الأخير للحرب الباردة، فكيف يسمحون بحرب ساخنة. كان هذا بالضبط هو لمنطق الذي بنت عليه السلطة السوفيتية مواقفها الأولية من أزمة الخليج، ووفق توجهات عليا امرت وزارة الخارجية بالتحرك في هذا الاتجاه، وشهدنا ما شهدناه من اندفاع متحمس قادة الوزيرشيفرنادزه لتسهيل سيناريوهات المعالجة الأمريكية في مجلس الأمن لدولي .

كانت الصحافة السوفياتيةالمزهوة بحريتها الجديدة، وكذلك الأمر بالنسبة لأجهزة الاعلام المسموعة والمرئية قد وضعت العراق في صلب معالجاتها للأحداث الدولية. وإذا كان الاعلام الغربي بدا قاطعاً في أمر سحب القوات العراقية فوراً من الكويت فقد ذهب لاعلام السوفياتي إلى مسافة أبعد إذ طالب بالقضاء على النظام العراقي، وبعض منابره وسع الدائرة للمطالبة باعادة النظر بمجمل العلاقات العربية السوفياتية .

كان من يطلقون على أنفسهم اسم القوى الديمقراطيةالاصلاحية لايزالون يتصدرون الحياة السياسية في المؤسسات السوفياتية والشارع، اما الذين يطلق عليهم اسم «المحافظون » فقد كانوا غائبين وراء الانتشار الديمقراطي المتعاظم الذي كان يستهدف جتثاثهم من الجذور .

كان الجدل السوفياتي الداخلي لا يؤمن للموقف العراقي أية آمكانية للدعم، فالجميع محافظين وديمقراطين – شيوعيين وليبراليين لا يستطيعون قبول فكرة احتلال دولة عضو ني الأمم المتحدة من قبل دولة أخرى، وحين كان يصل الجدل إلى منطقة المعالجة كان الذي يبدو تماماً أن الخلافات بين الطروحات تتركز حول نقطة واحدة . . أيّ الأساليب تؤيد الدولة ؟ العسكري ام السلمي، كان الجميع يتحدث عن الاسلوب السلمي، غير أن سياق التحريض كان طافحاً بالدعوات المبطنة لحل عسكري حتى لو كان نووياً .

طلبت لقاء مع دائرة الشرق الاوسط في وزارة الخارجية، كان ذلك لحظة وصولي لى موسكو في اليوم الرابع من أيام الأزمة . كانت الدائرة التي التقيت مع أركانها اكثر من خمسين مرة خلال حقبة التنسيق السياسي حول التسوية وشؤونها قد تغيرت تماماً، لقد غادرها رئيسها المخضرم فلاديمير بولياكوف ليعمل سفيراً في مصر، وغادرها بعده بقليل غينادي تراسوف ليعمل أول سفير لبلاده لدى المملكة العربية السعودية، وحل محل الاثنين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رجلان كنت أعرفهما مسبقاً، هما فاسيلي كالاتوشا الذي كان، وياللمصادفة، سفيراً لفترة طويلة في بغداد ومعه أوليغ ديركوفسكي الذي كان ضمن قوام السفارة السوفيتية في واشنطن.

ولقد مضى اسبوع كامل دون أن أحصل على موعد مع هذه الدائرة الصديقة، وعلى نحو بديهي انتابتني مخاوف حقيقية بحكم التباعد بين موقفنا تجاه الأزمة، وموقف الدولة الصديقة .

في تلك الأثناء كان يقلقني على نحو خاص وضعنا العربي في موسكو. لقد كنا خلال فترة ما قبل أزمة الخليج نشكل فريقاً عربيا متفاهماً، وفي حالات عدة كنا نتحول إلى فريق عمل. تحركنا على هذا الاساس أمام تحدي الهجرة، وأثناء زيارة ريجان الأولى إلى موسكو، وعقب كل اعتداء اسرائيلي ضد جنوب لبنان، وخلال كل تطور في أحداث الانتفاضة وما يحيط بها . في ذلك الوقت، نمت صداقة عميقة بيني وبين السيد محمود حمود سفير لبنان (الذي لم يشاركنا محنة الخليج في موسكو بسبب نقله الى لندن)، كان مناضلاً لبنانياً بكل معنى الكلمة، إذ كان شديد الاخلاص لقضية بلده – شديد القدرة على المواءمة بين متطلباتها ومتطلبات القضايا العربية الأخرى . كان يقض مضاجع المسؤولين السوفييت كلما اطلق الاسرائيليون طلقة واحدة على لبنان. لقد ربطتني بهذا الدبلوماسي المؤهل صلة روحية عميقة مبعثها على الأرجح اننا نحن الأثنين كنا نتحد في جذر واحد، فقريتانا – مسقط رأسينا كفاركلا ودورا –الخليل محتلتان من قبل عدو واحد .

لم يكن هذا المرجع الروحي موجوداً في موسكو ابان أزمة الخليج،كان التعويض عنه مجسدا في تلك الأسرة الصغيرة الهادئه الذكية الأليفة أحمد ماهر السيد وزوجته هدى، سفراء مصر ووجهها ونبضها الحقيقي الصادق. كانت معرفتي بماهر ناضجة بالقدر الذي أبعد عن نفسي أي شك بامكانية تأثر صداقتنا بتنافر المواقف السياسية لقيادتنا. لقد قصدت بيته حال وصولي إلى موسكو، وتناولت معه ومع السيدة حرمه غداء مصريا شعبياً، وبدقائق معدودات تفاهمنا على أمر واحد لنحاول، معاً وبهدوء، ايجاد معادلة عمل تحمي القضية الفلسطينية من النار المشتعلة حولها. كان ذلك حلماً صعب التحقيق ، بل انه نوع من حماية منطق بمنطق مختف اومتناقض . كيف نحمي القضية من النار المشتعلة حولها، ونحن أصحاب القضية نقترح رابطاً أيضاً بين القضيتين في العناصر والحل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن أزمات من هذا النوع تخلق ارتباكاً في المنطق والسلوك، ويتعين على المرء ان يفكر ملياً في اخراج تصرفاته. كان يتعين علي ان امارس تمثيل ادواراً متعددة في لحظة واحدة .

وفي الأسبوع الأول التقيت سفير الكويت – عبدالمحسن الدعيج – عميد السلك الدبلوماسي العربي، حاولت بكل ما أوتيت من قدرة على الكلام الهادئ المنطقي أن أشرح له مقاصدنا الرئيسية من كل حركتنا السياسية واعلانات قادتنا. كان الرجل المنكوب بفقد فردوسه يهز رأسه مجاملاً غير أنه كان بعيداً كل البعد عن أن يتفهم ولو تفصيلة واحدة مما أقول.

كل ما أمكن التوصل اليه – أخويا– مع السفراء العرب مجرد نأي بالعلاقة الشخصية عن جو الانشقاق السياسي المستفحل خلفنا، وهذا النوع من الاتفاقات الشخصية لا يقدم ولا يؤخر بشأن الحقيقة المتنامية الا وهي تمزق الجهد العربي، وازدياد كثافة اللون الأسود على الوجه غير الناصع أصلاً .

أخيراً تم تحديد موعد لي مع السيد فاسيلي كالاتوشا. كان ذلك في العاشرة صباحاً. عانقت المعرفة القديمة، واخذت مكاني وراء الطاولة المألوفة، وكان معي نائبي بالأعمال سعيد أبو عمارة.

تلا علي الرفيق فاسيلي ركائز الموقف السوفيتي، وكان وقعها علي عادياً تماماً، إذ جاءت تكراراً مختصراً ومكثفاً لما نسمع ونقرأ كل يوم .

وحين دخلت في عرض تفصيلي لتحليلنا للموقف ورؤيتنا للتحرك الأجدى من أجل الحل تخلى السيد كالاتوشا عن هدوئه، فقاطعني بقدر عال من الجفاف قائلاً :

« يؤسفني أن أسمع هذا الكلام منك»

إن الذي أثار حفيظة المسؤول السوفيتي هو استخدامي لمفردة الربط والترابط، فلقد كانت الدبلوماسية السوفيتية، باديء الأمر، قاطعة في رفض المبدأ وحتى المفردة ذاتها.

« إن الربط والترابط مسألة شديدة الحساسية، انها علاج لا يمكن أن يكون مقبولا دون وصفة طبية خبيرةوحاذقة. لقد أخذ على موقفنا منذ البداية هذا الطرح بالذات . كيف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تربطون احتلال الكويت باحتلال القدس، وكيف تعلقون مصير الفلسطينيين على مصير الكويت .

إن الذي ألحق الأذى بموقفنا(ليس كونه خاطئا أو مرتجلا أو ساذجا)، وليس كون الفكرةبحد ذاتها تنطوي على مضاعفات بالغة التعقيد، فالأمور من هذه الزاوية تحتمل جدلا طويلا، بل انها اكثر من ذلك تمتلك امكانية تفهمها حتى من قبل اعتى الرافضين لها. ان الذي ألحق الأذى البالغ بموقعنا، في هذه النقطة بالذات ، ثلاثة أسباب :

– الأول : توقيت الحديث عنها، اذ كان الجرح لا يزال نازفاً وساخناً.

– الثاني : طريقة التحدث بها، اذ تولى الامر في كثير من الأحيان عدد من الناطقين الفلسطينيين قليلي الكفاية مع إعلام قليل التأثير لمغالاته في تثوير الأمال غير المنطقية.

الثالث : الاعلام الاقوى الذي وضع مصطلح الربط والترابط في القالب الذي يريد، وأعني به قالب التحريض على الفلسطينيين، واظهارهم بمظهر انتهازي متهافت .

بصعوبة بالغة أمكن لي اقتناص حيز زمني كاف لتوضيح هذه النقطة بالذات، تحدثت عن بديهية استحالة عزل القضايا بالمطلق، وأسهبت في تبيان عناصر التداخل السياسي والاجتماعي بين أزمة الخليج الذي يعيش على أرضه قرابة مليون فلسطيني، نصفهم في الكويت ذاتها، والأزمة الشرق أوسطية برمتها، وأوضحت أخيراً ان ما نتوخاه ليس المساومة او ربط المصائر، وإنما الافادة من درس الخليج لفتح ملف المنطقة بكامله دون ان يؤثر ذلك على أولويات الساخن والملتهب .

لم يكن كالاتوشا بحاجة لدروس في البديهيات، ذلك الرجل ليس مجرد مسؤول كبير في وزارة الخارجية . انه قبل ذلك خبير في شؤون الشرق الأوسط، والاكثر من ذلك فقد اكلت شوارع بغداد وحواري بيروت طبقات من قدميه، ناهيك عن دمشق وعواصم الفلسطينيين المؤقتة، حيث غرف عمليات ياسرعرفات. إن كالاتوشا يتقن العربية والفرنسية، وسبق أن اتقن « اللبنانية» بمعناها المجازي من خلال ادخاله الناجح للدبلوماسية السوفيتية إلى حصون اليمين اللبناني . ورسم المسؤول السوفيتي ابتسامة عريضة على وجهه الطفولي، أمكن لي قراءتها كما لو أنها حروف مجسمة على صفحة بيضاء تقول : « إنني أعرف كل ما تقول وأفهمه أيضا غير ان السياسة ليست هكذا».

أظهر كالاتوشا ما يراه خطراً محققا من التمادي في أمر اقتراح الربط والترابط. كانت جميع حججه منطقية إلى حد ما، غير أنه لم يأت على ذكر اكثر الحقائق سطوعاً في ذلك الوقت، ألا وهي ان حكاية الربط والترابط، ومهما بلغت درجة الحرارة المنطقية فيها والعدالة، ممنوعة وعلى نحو مطلق بحكم الحاجة الأمريكية لهذا المنع، ذلك ان الامريكيين قرروا منذ اللحظة الأولى اخراج اسرائيل من العملية، او على الاقل عدم السماح لها بالظهور داخل كادر الصورة التي سيظهر فيها السوري إلى جانب المصري والسعودي.

كنت ادرك ان الدائرة تضيق من حول منطقنا السياسي على الصعيد الدولي. ان القوى المؤثرة في العالم ترفض، بعناد حاسم، كل منطلقات تحليلنا وآفاق حلولنا المقترحة. إن مصطلح (ضمن الأطر العربية) أصبح مفرغاً من محتواه مع صدور أول قرار عن مجلس الأمن، ونزول أول جندي امريكي على رمال الصحراء، وبداهة ان يكون اقتراح العمل من اجل تفادي التدخل العسكري الخارجي قد فات أوانه، اما الربط والترابط، ورغم ضرورة الحرب الأمريكية المعلنة ضده، فانه ظل واقعياً مجال الحركة الوحيد أمام، الفلسطينيين شريطة ان يدخلوا تعديلاً أساسيا على لغتهم السياسية المتعلقة بالازمة.

كنت ألاحظ بعض الاشارات الخاطفة، قليلة الالتماع، تشي باستعداد سوفيتي للنظر إلى مسألة الربط والترابط بقدر معقول من الواقعية . لم أر هذه الاشارة خلال لقاءاتي المتصلة مع رجال الخارجية، وإنما على صعيد آخر، ذلك ان الدولة العظمى تعج بمطابخ السياسة وبؤر التأثير على القرار .

لقد أسدى لي أحد المتنفذين، ممن يعملون في إطار اكاديمي مرموق، نصيحة بدأت بالتقريع التالي : لماذا انتم هكذا، لماذا تتصرفون في كل الأمور بأسلوب تظاهري واحتفالي، ان طريقة بعض قيادتكم في العمل تدمر أي فرصة سانحة للأفادة. إن الترابط بين المسألتين قائم وبعمق، قائم نظرياً وعملياً، سياسياً وأيديولوجياً غير أن الامور لا بد ان تتخذ اتجاهاً آخر حين تعلنون هذا الترابط كبلاغ رقم واحد. ان الترابط بين القضيتين هو عصب اللعبة الشرق اوسطية، ولو عملتم من اجل حمل العالم على تلمس هذا العصب دون تظاهر صاخب منكم لحققتم أفضل النتائج .

كان ما قاله الأكاديمي مبعث تفكير عميق من جانبي . أنني أقول وبصدق انني هنا في هذه العاصمة المثيرة، عاصمة التغيير العالمي المتسارع أحاول الافادة من كل الفرص للتعلم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم تكن القيادة الفلسطينيةبعيدة عن هذا النوع من التحليل،فقد كان ياسر عرفات وصلاح خلف ومحمود عباس، وهم الاكثر نفوذا في قرارنا السياسي وأداتنا العملي له، يعرفون ذلك جيداً غير انهم، ومهما بلغ نفوذهم الواقعي، لم يكونوا في وضع يسمح لهم باتخاذ المواقف الملائمة، اعني بها المواقف المنطلقة جملة وتفصيلا من واقع الحسابات الدقيقة فقط . ان دولة كمصر او سوريا يمكن ان تتخذ مواقفها السياسية وفق معايير الحسابات والأولويات المبرمجة. قد تفضي هذه المعايير، صحيحة أو خاطئة، إلى نتائج ايجابية أو عكسية، إلا أنها تبقى معايير قليلة التأثر بما يحيط بها من اجتهادات متباينة،غير أن الأمر عندنا شديد الاختلاف، وشديد الخصوصية، وسأحاول هنا ان افرد خريطة الاعتبارات الفلسطينية في الأسابيع الأولى لبدء أزمة الخليج .

كانت العلاقة مع العراق تتخذ عمقا خاصا بحكم إغداق العراق سياسيا على الفلسطينيين اثر خروجهم المأساوي من فردوس الجغرافيا السورية، لقد منحوا قيادة عرفات، وهي مثخنة بجراح الانشقاق، وجراح الاجتياح الاسرائيلي للبنان، مقراً واذاعة وحرية كافية للحركة. ورغم التقشف الصارم الذي فرضه صدام على الانفاق، فانه استثنى الفلسطينيين من ذلك، وقدم لهم مساعدات مالية مهمة، واهداهم معدات عسكرية كانوا قد استعاروها لاقامة عرض عسكري للتدليل على أن أظافر النمر الفلسطيني لم تقتلع بمجرد الخروج من بيروت . كان الاغداق العراقي منسجماً مع مناخ عربي موات، اذ كان الخليج كله، وعلى رأسه العربية السعودية والكويت، يشهد تحالفاً مصيرياً مع الشقيق العراقي في حربه القاسية مع ايران، وكانت العربية السعودية بالذات راضية كل الرضا عن تنامي العلاقة الفلسطينية العراقية، ذلك ان السعوديين قليلو التحسس من امر كهذا، قياساً بغيرهم من بعض العرب .كانت الخريطة زاهية الألوان، وكانت احتمالات انهاء الحرب مع ايران تنعش احتمالات اكثر اشراقاً للمستقبل من نوع يسنح لفرصة تكامل عربي استراتيجي ويوفر مساحة أمل واقعي للأحلام الفلسطينية الصعبة .

لقد استفاد الفلسطينيون من الدعم العراقي الراهن مثلما علقوا أملاً كبيراً على الوعد القادم .

ولقد عملت الآلة الفلسطينية النشطة بكفاءة عالية على انهاء الحرب مع ايران مستفيدة من بعض رصيد لها داخل حصون آيات الله من طهران حتى قم، وعلى توفير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انسجام عربي يصلح للبناء عليه. وحين ولد مجلس التعاون العربي، والذي حمل فيما حمل اشارة انذار للفلسطينيين تشي بتجاهل حصتهم في التقسيمة العربية الجديدة اي التقسيمة المجالسية، تغاضى الفلسطينيون عن هذا التجاهل ، وبكل أريحية اخترعوا لهذا المقام مقالا:

« لا تحسس ما دام الكل لفلسطين (؟؟) »

إن الفلسطينيين لم يتخذوا هذا الموقف الاريحي بحكم طيبة متأصلة في نفوسهم وحساباتهم، بل لأنهم كانوا يائسين موضوعياً من الحصول على مقعد حول مائدة هذا المجلس، اضافة الى ان بعضهم كان يشم، وعلى نحو مبك، رائحة حريق قادم ربما يلتهم المائدة وكل ما عليها من أطباق، فأي فرص لنجاح مجلس تنسيقي يضم هذا الخليط غير المتجانس اقتصادياً، فضلا عن غموض مجالات الائتلاف السياسي : « مصر الاتفاق السلمي مع اسرائيل، وعراق التشدد المبدئي ضد اسرائيل » . وقبل كل ذلك، ماذا عن صيغة الأمن الاستراتيجي، كيف يراها أطراف المجلس، وما هو موقع القوات المسلحة منها، وما هو موقع اسرائيل من هواجسها .

كانت المؤشرات كلها تمهد لحتمية انهياره، وما دام الكل لفلسطين حسب التوليفة الاعلامية العرفاتية، لا بأس اذن من التغاضي!!!

كانت المسيرة الفلسطينية على محاورها العربية قبل أزمة الخليج تسير في تعرجاتها ومنتجاتها المألوفة، تراجع هنا وتقدم هناك، ضعف في هذا الجانب وقوة في الجانب الآخر، الى ان جاءت الانتفاضة لتوفر آمنا من جميع المأزق بما في ذلك قمة عمان ؟؟

كان العراق حاضراً في كل معارك الفلسطينيين كقوة داعمة، وكان الفلسطينيون من جانبهم يشهرون امتنانهم لهذا الدعم .وحين انطلقت الانتفاضة وفرضت نفسها كحدث عالمي، أمكن توفير مناخ صحي جدي لمنظمة التحرير، اذ وفرت الانتفاضة ما يشبه الاجماع العربي حولها، وبصرف النظر عن الجدل الواسع رسم علامات استفهام حول علاقة المنظمة بالانتفاضة، الا ان الامور اخذت بعد وقت قصير مسارها الطبيعي، وصار الجميع يتعامل مع المنظمة كأب للانتفاضة بلا منازع .

خفّتْ حدة العداء الامريكي للمنظمة، وتعمقت العلاقات بينها وبين معظم دول الغرب، واوشكت عملية اعداد المسرح للعبة سياسة شرق أوسطية جديدة على الاكتمال.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد تزامن الاجتياح العراقي للكويت مع حالة كانت فيها منظمة التحرير قد استعادت وضعها ونفوذها وقدرتها على التأثير في حركة الاحداث المتعلقة بقضيتها .

حين يقع اشكال، او حتى حرب صغيرة بين طرفين عربيين شقيقين، لا يجد ياسر عرفات مكانا فاعلا وآمنا الا في منطقة الوسط، وفي دور الوسيط . لقد كاد يفقد حياته مرات عديدة وهو يلعب دور اطفائي الحرائق العربية، حدث ذلك بين مصر وليبيا،وبين الكويت والعراق، في وقت سابق بين العراق وايران. وبوسعي القول ما من أزمة عربية عربية الا وكان عرفات اما وسيطاً لحلها، او ساعيا بدأب والحاح للحصول على هذا الدور

بدت مجريات الأزمةالخليجية عبر الاسابيع القليلة التي سبقت الاجتياح كأنها تسير ضمن خطوط الازمات العربية المألوفة،ووجد ياسر عرفات لنفسه طريقا في تلك الفترة، وأوشك على احرازنجاحات مهمة،غير ان التطورات اخذت منحى اخر فسحقت جنازير الدبابات العراقية كل مساحات العمل العرفاتي المألوف .

حاول عرفات منذ بداية الاجتياح التحرك على خط الوساطة، وتكامل بذلك مع جهود الملك حسين، وبصرف النظر عن التفاصيل، والتي اتفاداها هنا لانها نشرت في حينه على أوسع نطاق .

نهض سد منيع في وجه الوساطة العرفاتية، وبحكم تولي الامريكيين –المطلق– قيادة الأزمة، فقد ضاقت مساحة الحركة «العرفاتية »، ووجد نفسه يواجه حدثا خطراً بأقل عدد ممكن من الحلفاء .

كل هذه التطورات، التي راكمت اخطارا جدية تهدد الرصيد الفلسطيني على الصعيد الدولي، كانت مختفية وراء الساحة الشعبية التي تجاوزت كل حسابات السياسيين ومخاوفهم ورهاناتهم احتفالاتها الخاصة بها، تلك الاحتفالات التي كانت ساحتها حيث وجد مسلمون وعرب .

لقد شهدت تلك الفترة، وأعني بها الأسابيع الأولى التي تلت الاجتياح العراقي للكويت، انفجاراً شاملا للرغبات والاماني المكبوتة، وعاش المحتفلون بالحرب التي حسمت « ضد الكويت، وبصدد ان تحسم ضد الولايات المتحدة » حالة من زهو جماعي مبعثه ثقة مطلقة بقدرة العراق على تغيير الموازين .

لم يقف الأمر عند هذه الطقوس الأولية، بل تكوّن (للحدث الخارق) تراث ثقافي(!) من نوع خاص حيث اندمج الماضي بحقائقه التاريخية مع احلام المستقبل المكتظة بالاوهام المزدهرة في تربة العجز المتراكم .

كان مهرجاناً من الحكايات، والاساطير والتحليق في فضاء لا متناه من الاحلام، مع يقين شعبي بأنه جاء لهذه الاحلام من حققها. كان الموقف السياسي (المتجاوز) لهذه الحالة الشعبية بمثابة اقدام على انتحار محقق، وكان أقصى ما يمكن فعله اقتراب خجول ومتردد نحو نقطة الوسط.

كان صانع القرار الفلسطيني يواجه متاعب تتضاعف مع كل يوم. كان ياسر عرفات يعاني الأمرين من ساحة شعبية افلتت من عقالها، وساحة قيادية تضم أعضاء أشد مغالاة من عرّافات الاساطيرممن يتنبأن بحلول معجزة، وساحة عربية تنأى بعيدا عن التقاليد المألوفةلحل الأزمات، وساحة دولية تريد ممن احتلت أرضهم ويناضلون لاستعادتها ان يتخذوا موقفا قاطعاً بادانة الاحتلال العراقي، واللحاق بركب الاحتشاد العالمي الهادف إلى تحرير الكويت .

ذلك ليس كل ما ينتج لياسر عرفات الألم والتعقيد، هنالك عامل آخر ذو حساسية مفرطة، ويجب أن يؤخذ في الاعتبار، الا وهو الاربعمائة الف فلسطيني الذين يعيشون في الكويت، ويشكلون لحما حيا وعصباً قوياً للحياة الاقتصادية والاجتماعية الفلسطينية. ان استغاثاتهم بشأن مستقبلهم لاتكف عن بلوغ اسماع قياداتهم يوميا .

في مواجهة الجبهة الدولية التي شكلها الامريكيون بسرعة قياسية، وفي لحظات من الزمن الذي بدا فيه الامريكيون سادة العالم بلا منازع، كان التطلع نحو موسكو آخذاً بالتزايد، فمن لا يريدون الحرب يرون في موسكو قوة قادرة على مساعدتهم، ومن يريدونها يرون في موسكو قوة مؤهلة للسماح بها. شهدت العاصمة السوفياتية اكبر حملة زيارات لوزراء الخارجية والمبعوثين والزعماء، جاءتها وفود الخليج والشام ومصر واليمن وفلسطين .

ووجدت عاصمة البيريسترويكا نفسها موضع شد وجذب. كان الجدل الداخلي لا يزال محتدما حول موقف موسكو من الأزمة، وكان أنصار الغرب يباركون ذلك الاندفاع المتسارع لسياسة شيفرنادزه في مجلس الأمن،ويضغطون بشدة لايصال هذه السياسة الى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منطقة اللاعودة، وكان من يسمون بالمحافظين، ومن ضمنهم بالطبع قوى رئيسية داخل بنية النظام يحاولون كبح جماح هذا الاندفاع، ودعوة السلطة الى اتخاذ موقف مميز يدير العدوان ويعمل على انهاء آثاره، ولكن ليس عبر الجري وراء السيناريو الامريكي، وانما بانتاج دور سوفيتي مؤثر .

كان هذا الفريق، ومن ضمنه مجموعة لا يستهان بها داخل المؤسسة العسكرية، يكثر من استخدام عبارة « الاحتشاد المتعاظم على الحدود الجنوبية للدولة » . غير انه، وبفعل اجواء البيريسترويكا الطاغية، لم يكن ليملك جرأة الافصاح عن خطر استراتيجي ناجم عن الاخلال بموازين القوى، وانما كان يكتفي بالقول ان الحرب ستلحق أذى بالغاً بالاتحاد السوفيتي على صعيد البيئة .

كان الامريكيون، وهم يتعاملون مع السوفيت، يظهرون كما لو أنهم يعرفون بدقة عدد الطلقات المتبقية في مسدس الدولة العظمى الأفلة . كانوا يعرفون بحقيقة الضغط المتعاظم الذي يتعرض له غورباتشوف من قبل مراكز النفوذ التقليدية والمحافظة في البلاد، وكانوا يدركون كم من الحرج يواجه غورباتشوف جراء اندفاعات السياسةالخارجية السوفيتية في تلبية المطالب الامريكية، غير انهم لم يكونوا ليملكوا الوقت الكافي، ولا المساحة الكافية لمنح القوة العظمى الاخرى – ما تحتاج اليه من مظاهر التعامل الندي أو قلة التبعية .

منتصف ايلول سبتمر ١٩٩٠، بدأت الاستعدادات في واشنطن وموسكو لعقد أول قمة سوفيتية – امريكية في زمن أزمة الخليج. عرفت، من اصدقائي في دائرةالشرق الأوسط، أن الخارجية السوفيتية تلقت أعلى رقم من طلبات زيارات الزعماء والمبعوثين الذين لديهم ما يقولون قبل لقاء القمة المرتقب. كانت اللهجة السوفياتية قد تحسنت فيما يخص الربط والترابط، ولقد دخل هذا المصطلح « الارهابي» الى وعي السياسيين السوفييت من باب اسمه محاولة التوظيف الايجابي حتى للأشياء الرديئة، وانصح هنا، من يحب الاستزادة، قراءة كتاب السيد يفغيني بريماكوف الذي صدر تحت عنوان «حرب يمكن تجنبها ».

في الأيام القليلة التي سبقت قمة هلسنكي، اعتذر السوفييت عن استقبال أياً ممن طلبوا الزيارة، وأفردوا الوقت والاهتمام لحدث نوعي يتصل بقلب الأزمة، لا وهو زيارة طارق عزيز كمبعوث للرئيس صدام حسين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت الزيارة المرتقبة لطارق عزيز بمثابة انعاش للآمال السوفيتية بالحصول على ورقة ذات وزن تعزز مكانة غورباتشوف في لقائه الوشيك مع جورج بوش. كانوا في موسكو ينتظرون بفارغ الصبر، بل واكثر من ذلك طلبوا من كل من له خط اتصال مع القيادة العراقية تشجيع بغداد على الوثوق بموسكو كوسيط مقتدر.

كانت كلمة السر كما يعتقد السياسيون السوفييت هي الانسحاب، أو على الأقل الافصاح عن الاستعداد بالانسحاب، وبعدئذ يمكن لهذه الكلمة السحرية ان تفتح باب المغارة.

وحاول السوفييت استكشاف الفرص، وامكانات دورهم المميز بعد أن أوصلهم اداء شيفرنادزه لعملية التعاون والتنسيق مع الامريكيين الى أسوأ وضع يمكن ان تصل اليه دولة في معالجتها لازمة دولية كبرى. والأمر هنا لا يعود إلى شخص كان أداؤه متحمساً في اتجاه معين، وانما كان الأمر يتجسد في دافع اهم واكثر تأثيرا الا وهو الازمة العامة التي تعيشها الدولة السوفيتية كنتيجة منطقية لأزمة البريسترويكا.

ان الاتحاد السوفياتي، كدولة عظمى وحيال أزمة الخليج بالذات، وجدت نفسها على مفترق طرق، كل طريق له مزاياه القليلة وأثمانه الباهظة، وهذه حالة لا يمكن لاعتى العقول ان تجد حلا لها .

ان تجسيد دور الدولة العظمى بايقاعاته المنطقية، وفاعليته المنشودة يتطلب اشهار فيتو مبدئي على الاستفراد الامريكي في قيادة الاحتشاد العالمي لحل الأزمة، وفتح باب لاتفاق معقول على الأسس، واطارات المعالجة لم يفعل الاتحاد السوفيتي ذلك منذ البداية، ولهذا سبب موضوعي وذاتي، والأمر هنا يتطلب اعتماد منطق غورباتشوف ذاته الذي رأى في الاجتياح العراقي للكويت ضربة غادرة توجه لفكرة النظام الدولي الجديد، واستعادة للحرب الساخنة في زمن التخلي عن الحرب الباردة .

ولقد بنى على هذه القاعدة سياسة الدولة تجاه الأزمة، ووجد نفسه تلقائيا يجاور فرنسا واليابان والمانيا على خط واحد سوى ان الآخرين يملكون في الواقع هوامش حركة افضل، اذ ان الآخرين على الاقل في غير حاجة لدعم اقتصادي من الولايات المتحدة .

ان سهولة منح الولايات المتحدة حق القيادة الكونية يعني تلقائيا صعوبة المطالبة، فيما بعد، بدور الشريك، اوحتى الوسيط المؤثر. لقد ارتبط القرار السياسي السوفيتي بقيود

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البريسترويكا، وقيود الحاجة لمصداقية تعاليمها، وقيود الحاجة الأكثر الحاحاً للدعم الأمريكي والغربي .

مع ذلك فان أزمة بضخامة أزمة الخليج لا بد ان تحتوي، فيما تحتويه من تعاريج، بابا لوساطة او بابا لدور اكثر فاعلية. كان في موسكو من يفكر على هذا النحو، ومن يرى في المحاولة امرا جديا، او على الاقل غير باهظ الخسارة .

لذا تعلقت آمال كبيرة على زيارة طارق عزيز، وكان الذين يعلقون الآمال هم أولئك الذين يفتشون عن وقود للسيارة السوفيتية المعطلة، وحال انعدام الحصول على وقود امريكي فلا بأس من تشغيل السيارة بوقود عراقي .

خاب أمل السوفييت بزيارة طارق عزيز، وغادر غورباتشوف الى هلسنكي خالي الوفاض معتمدا على اطياف الدولة العظمى .

يقول بريماكوف عن هلسنكي، حيث كان واحدا من أعضاء الوفد المرافق للرئيس غورباتشوف :

« إن التفكير السياسي الجديد الذي طرحه الاتحاد السوفيتي بعد نيسان ٨٥، وما تلا ذلك من التطور للأحداث على الصعيد الدولي قد عززا الثقة في أن فكرة النظام العالمي العادل هدف واقعي وممكن الانجاز .»

ولقد وصل الرئيس غورباتشوف الى هلسنكي بهذه الافكار الاستراتيجية .

وفي الحديث الذي استمر حتى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل، ركز غورباتشوف الاهتمام مجددا على مسألة ما اذا كان من الضروري تنشيط الجهود في حل المسألة الفلسطينية بغية اجبار العراق على الانسحاب غير المشروط بالوسائل السياسية .

وجرى التركيز على تجنب الصدام العسكري، حيث يرى مارشال الاتحاد السوفيتي اخرومييف انها ستؤدي الى دمار كبير وضحايا بشرية كثيرة .

« وفي مشاطرتنا لانطباعاته عن الحديث مع بوش اكد غورباتشوف انه وجد ميلا لدى الرئيس الأمريكي نحو حل سلمي للأزمة.

أكد الاتحاد السوفياتي التزامه بقرارات مجلس الامن معولا على أن الحصار الاقتصادي سيرغم العراق في نهاية المطاف على الانسحاب ».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن الموقف السوفيتي كما عرضه بريماكوف يبدو أفضل بكثير مما كان عليه قبل لقاء هلسنكي. لقد تم تناول جريء لمسألة الربط والترابط، وظهر تأثير هذا الطرح السوفيتي على الجانب الأمريكي بايراد فقرة خاصة بهذا الصدد في البيان الختامي الصادر عن المحادثات .

لقد ازيحت بلاطة ثقيلة كانت تجثم على الصدر الفلسطيني جراء الضغط الأمريكي، والغربي حول مسألةالترابط، ها هو المنطق الموضوعي يأخذ سبيله إلى شبكة الاعتبارات السياسية السائدة في سياق الأزمة الدولية الكبرى، وها هي مساحة جديدة تنبثق للعمل من خلالها. لم يكن الأمريكيون في وارد الالتزام الجدي بالمرتكزات المحددة للموقف السوفيتي المعدل، لقد وجدوا نقاطاً مشتركة غير ذات تأثير سلبي على مجرى خططهم، ومنحوا الشريك الاعتباري حق التحرك، وفق هذه النقاط، تاركين للعملية كلها سقفا افصحوا عنه في هلسنكي الا هو تحميل صدام حسين مسؤولية كل المضاعفات ان لم ينسحب .

لفت نظري وأنا أتابع فصول هلسنكي من موسكو أمر ينطوي على قلة لياقة امريكية في التعامل مع القطب الآخر، لقد أعلن بوش أن وفدا من رجال الأعمال الأمريكيين في طريقه حالياً إلى موسكو لتنشيط التعاون الاقتصادي بين البلدين. لم يكن بوش قاصدا الدعاية لرجال البزنس الامريكيين، كان واضحا، وعلى نحو استفزازي، أن الرجل حرص على توجيه رسالة إلى احبائه في موسكو بأن للتعاون مع واشنطن عمولة مجزية. لم يبتلع غورباتشوف هذه الاهانة اذ وجد نفسه مضطرا للقول : « ان القرار السوفيتي ليس معروضاً للبيع ».

لا أعرف على وجه الدقة ما اذا كان وفد رجال الاعمال الامريكيين قد فعل شيئاً يذكر في زيارته الشهيرة الى موسكو .

بريماكوف

حين قام السيد يفغيني بريماكوف بزيارته الأولى الى بغداد كنت من الفلسطينيين القلائل المشتغلين في حقل السياسة، لا أعرف الرجل، لم التق به لا في موسكو ولا في أي مكان آخر مع أنه من الاسماء المتداولة بكثافة في اوساطنا .

غير أني، وأثناء عملي، كنت أتابع الصعود المدوي له على السلم المفضي إلى السلطة العليا في الدولة. لقد اختير عضوا مرشحاً للمكتب السياسي، ثم عضوا في مجلس الرئاسة « مطبخ الرئيس » ثم بعد ذلك قائدا في جهاز الأمن السوفيتي ثم الروسي اخيراً .

وصلت اشارة الى تونس تنبيء بقرار الرئيس ميخائيل غورباتشوف ارسال الرفيق يفغيني بريماكوف الى بغداد، كمبعوث رئاسي، وطلب الى السيد ياسر عرفات ان يبذل كل ما في استطاعته لانجاح مهمته.

التقى عرفات وبريماكوف في عمان — كان ذلك في أوائل اكتوبر حيث لم يكن قد مضى على الاجتياح سوى شهر. كان عرفات يعلق أملاً كبيراً على مهمة من هذا النوع اذ انها على الاقل تفتح باب الوساطة، وتوفرفرصاً معقولة لادخال عامل سياسي جديد على خط الأزمة المدجج بالمظاهر العسكرية الصارمة .

وإظهاراً لأهمية الحدث، حرص ياسر عرفات على اصطحاب السيد صلاح خلف (أبو اياد)، ومحمودعباس (ابو مازن)، وهما فضلاً عن كونهما رمزين كبيرين من رموز القيادة التاريخية، إلا انهما في الوقت نفسه يتمتعان بنفوذ مؤثر في قرارنا السياسي .

حين وصل الرفيق بريماكوف الى عمان، معلناً عن مهمته السياسية بدأت على الفور اول متاعبه، لم تكن هذه المرة متاعب عربية أوعراقية، وإنماسوفيتية، فقد انتشر في المنطقة والعالم تصريح ادوارد شيفرنادزه بأن بريماكوف ذاهب الى بغداد من أجل هدف واحد فقط الا وهو الافراج عن السوفييت المحتجزين هناك، ولم يكن تصريح شيفرنادزه مجرد خطأ فني، وانما قرئ في عواصمنا على الأقل، وفي بغداد بالذات على أنه مؤشر سياسي على اختلاف علني بين أقطاب الكرملين. كانت قيادة شيفرنادزه للموقف السوفيتي على صعيد التعاون مع واشنطن، واستصدار القرارات في مجلس الامن قد وضعت موسكو في خانة الحلفاء السياسيين لواشنطن، وليس مجرد طرف متعاون لمعالجة أزمة .

لا شك في أن دخول بريماكوف، كمبعوث سياسي رئاسي إلى بغداد، سوف يخلق حالة من البلبلة حول الموقف السوفيتي، اذ لا بد من أن تغري هذه المهمة أوساطاً عديدة لاعتبارها مؤشرا لتحول هذا الموقف الى وجهة أخرى .

ولو افترضنا ان السيد شيفرنادزه اجتهد من أجل حسم البلبلة بهذا التوصيف لمهمة بريماكوف، فلا شك في ان اجتهاده أضعف المهمة منذ لحظة انطلاقها، وجردها من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عنصر التركيز على هدف واحد هو تسوية الأزمة وليس تسوية جزئية بسيطة من جزئياتها الثانوية .

في منزل السفير الفلسطيني بعمان – السيد طيب عبدالرحيم التقى القادة الفلسطينيون مع صديقهم القديم بريماكوف . كان الطرفان يشتركان في مأثرة المعرفة الشخصية لسيد الأزمة على الطرف العراقي الرئيس صدام حسين، ولا جدال في أن هذه المعرفة الشخصية كانت السبب في تكليف بريماكوف شخصيا بالمهمة، كما كانت سبباً في حمله على بدء العمل من الدائرة الفلسطينية. جرى عتاب حول بعض التصريحات الحادة التي صدرت عن بعض المسؤولين الفلسطينيين ضد لا مبالاة الاتحاد السوفيتي، وأحيانا ضد خيانته للحليف العراقي. اعترف الفلسطينيون بأن لدى بعض قادتهم الثانويين شطحات من هذا النوع،وسرعان ما تفهم بريماكوف الموقف، فلقد كان بحاجة لتفهم سريع بحكم التطلع الى ما هو قادم .

عرض بريماكوف موقف بلاده من الأزمة – ظهر خلال العرض ذلك القدر من التوازن المعدوم كلية في طروحات شيفرنادزه. كان بريماكوف مسلحاً بنتائج قمة هلسنكي وبالذات . . . « الحرص على تجنب الحل العكسري لمصلحة الجهود السياسية، ثم الربط الضمني بين معالجة أزمة الخليج، والذهاب فوراً الى معالجة مسألة الصراع العربي الاسرائيلي » .

كان هذان البندان كافيين لانعاش الأمل بولادة مساحة جديدة للحركة السياسية يتم اقتطاعها من المدى اللامتناهي للحركة العسكرية .وكان لابد ان يوفرا تشجيعا كافيا للرئيس العراقي كي يضع في جيب المبعوث الرئاسي السوفيتي ترياق الحل: الاستعداد للانسحاب .

لم يكن الطرفان السوفيتي والفلسطيني متأكدين من أنهما سيحصلان على قدر كاف من الوقود العراقي لتأمين رحلة سياسية طويلة للسيد بريماكوف، ذلك ان اللهجة العراقية لا تزال على حالها من الصلابة المطلقة، والمبدأ العراقي بعدم السماح لأحد بدور الوسيط لم يجر اختراقه بأي صورة من الصور، ومع أي طرف كان .

لذا كان أبو إياد دقيقا حين بادر بريماكوف قائلاً : « دعنا نحلم معاً».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التقى السوفييت والفلسطينيون في بغداد، شكلا غرفة عمليات سياسية هدفها انتزاع كلمة من الرئيس العراقي ليشقا بها طريقا في الصخر .

عاد وفدنا الى عمان في اليوم التالي، وفي امسية هادئه من أمسيات ياسر عرفات في قصر الضيافة بعمان لمست ارتياحاً عميقاً لنتائج مهمة بغداد . إن السوفييت والفلسطينيين حققوا فيما يبدو انجازاً فعلياً كان تحقيق مثله من قبل باقي دول العالم لايزال موضع جدل.

سألت : « ماذا حدث بالضبط » ؟. اختلى بي الاخوان الاكبران ابو اياد، وأبو مازن في غرفة الطعام الملحقة بصالون الاستقبال الفسيح وقرأ علي نصا حصل عليه بريماكوف من الرئيس صدام، وأبلغاني أن بريماكوف راضٍ عن النص، وأن عجلةالوساطة السوفيتية بدأت بالدوران .

لذا قال أبو اياد«: توجه فوراً الى موسكو»، وأضاف مازحاً: «ومعك الآن وقود مواجهة الصقيع ».

النص كما أورده بريماكوف في كتابه « حرب كان تجنبها ممكناً » يقول حرفياً على لسان الرئيس صدا م :

« أنا كانسان واقعي يمكنني تصور في ظروف معينة،الموافقة على سحب القوات، ولكني لا أستطيع الاقدام على ذلك اذا لم يربط هذا الانسحاب بحل مشاكل المنطقة الأخرى ».

لا جدال في ان هذا الموقف – يبدو جديداً تماماً لو نظر اليه من زاوية المقارنة بالمواقف العراقية المعلنة، اما اذا نظر اليه بمقياس آخر، أي القرارات الدولية والشروط الأمريكية لظهرت المسافة السحيقة التي تفصل هذا الموقف الجديد عن أفضل اشكال الموقف الآخر .

مع ذلك فان الذي وفر لي بعض التفاؤل، افصاح القادة الفلسطينيين عن رضى بريماكوف على الصيغة .

لم اكن، كما لم يكن باستطاعة أي سياسي، ان يبعد أجواء هلسنكي عن مهمة بريماكوف، ويبدو منطقيا تماماً استنتاج مفاده ان واشنطن شجعت موسكو على الحركة بهذا الاتجاه .

ان حصول بريماكوف على هذا النص ربما يرضي واشنطن (على الأقل كبداية معقولة) تفتح الباب أمام طلب آخر بتحسين الصيغة مما يضعف موضوعياً زخم التركيز على الحل العسكري.

مع ذلك كانت مخاوفي تتضاعف كلما ذهب تفكيري إلى موسكو ذاتها حيث الصراع الداخلي المحتدم بضراوة – وكانت أزمة الخليج واحدة من مواضيعه، كذلك لا يمكن استبعاد احتمال وجود خطوط متباينة داخل الادارة الامريكية ذاتها مما يفسح المجال للظن بأن خط وساطة موسكو ينظر إليه عبر منظارين مختلفين: واحد يريدها جدية وفعالة، والآخر يريدها مجرد شحم ضروري لتليين حركة مسننات الآلة الأمريكية الفولاذية.

حملت النص والمخاوف والهواجس والتفاؤل الى موسكو. هناك لم اجد ما يغذي تفاؤلي، ولو باحتمال ضئيل للنجاح .كانت بعض دوائر الخارجية تظهر فتوراً مبالغاً فيه ازاء مهمة بريماكوف، اما الصحافة النافذة فقد كانت تتخذ موقفاً مناوئاً للمهمة – من منطلق لا وساطة مع عدو الديمقراطية صدام، أي لا دور لموسكو الا في سياق ممالاة واشنطن والجري وراءها. رغم ذلك أظهر المبعوث الرئاسي تصميماً عنيداً على مواصلة العمل، ولوحظ انه بدا يوسع من دائرته وحركته، فلقد قام بزيارة مكملة لأوروبا الغربية والولايات المتحدة، ثم عاد ثانية الى الشرق الأوسط زائرا العواصم التي لم يزرها في الجولة السابقة : جدة، دمشق، القاهرة، ثم بغداد مرة أخرى .

كانت حركة بريماكوف محط أنظار أولئك الذين يرغبون حقا في تجنب الحرب، وفتح الباب أمام الحل السياسي وفق ما جاء في كتابه، فلقد لقي تشجيعا سعودياً هاماً باتجاه الحركة نحو تفادي الحرب كما لقي ذات التشجيع في عواصم أوروبا الغربية، باستثناء لندن حيث كانت السيدة الحديدية لا ترى غير الحرب مخرجاً .

كل هذا التشجيع، وكل الاستجابات المتفهمة لمرتكزات وآفاق السياسة السوفيتية الجديدة والنشطة عبر جهود بريماكوف، كل ذلك كان يرتبط في محصلة الأمر بموقف واشنطن سيدة اللعبة الكونية ومنفذتها المركزية .

ماذا حصل مع بريماكوف هناك ؟

هذا المفصل الحيوي من مهمة بريماكوف لا يحتمل أي قدر من الاستنتاج أو التحليل، لذا أضعه بين يدي القاريء الكريم كما ورد حرفيا في كتابه :

« . . ما إن وصلنا إلى واشنطن في ١٨ تشرين الأول (اكتوبر) حتى توالت لقاءات مع المسؤولين الأمريكيين، واستطرد فأقول انهم لم يخفوا اهتمامهم بهذه اللقاءات حتى أن بعضهم قد أشار الى أن تبادل الآراء الصريح هذا مع السوفييت، حول مسألة هامة تضطر الولايات المتحدة للعمل على حلها كطرف معني لم يكن ممكناً في « الأزمنة القديمة غير الطيبة»، ولا شك أنهم رأوا في سعينا إلى اطلاعهم على ما لدينا من معلومات وخواطر حول كيفية حل الأزمة دليلا على علو مستوى الثقة في العلاقات السوفيتية – الامريكية، وعلى انتشار الروح الجديدة على الساحة الدولية .

... لفت نظري أن روس وهو يستفسرعن تفاصيل موقفنا قد استقبل شروحاتي بتحفظ إن لم أقل بسلبية، كما دلت ملامح وجهة وأقوالة، ولم يخف نفوره من اقتراحي بإخطار العراق بفكرة تنشيط العمل في المحور العربي – الاسرائيلي بهدف حل المشكلة الفلسطينية بعد انسحاب القوات العراقية.

وقال روس بلهجة قاطعة :« ان اسرائيل لن توافق على ذلك » .

ولقاؤنا التالي بالجنرال سكوكروفت مساعد الرئيس الأمريكي في شؤون الأمن لم يسفر كثيراً هو أيضاً عن أشياء جدية . وحضر اللقاء غيتس نائب سكوكروفت، ورايس مساعدة الرئيس الامريكي .

استقبلنا الرئيس بوش في صباح ١٩ تشرين الأول (اكتوبر) في البيت الأبيض، ووجدنا معه بيكر، وسكوكروفت، وسنونو مدير سلك الموظفين في البيت الأبيض، وغيرهم من الموظفين المقربين من الرئيس . وحرص بوش على تأكيد تقديره لايفاد مبعوث غورباتشوف إلى واشنطن لاطلاع المسؤولين الأمريكيين على مساعينا في الشرق الأوسط، وتطرق الرئيس الأمريكي أكثر من مرة إلى هذه المسألة.

وسأل بوش في معرض استفساره عن انطباعاتي عن اللقاء بصدام حسين عما اذا أمكن بالفعل اعتبار قول صدام « إني واقعي» كاعلان لصدام عن استعداده للانسحاب من الكويت، وسأل بوش عن طباع صدام حسين ونفسيته وتاريخ علاقاتنا به، وتقدم باستفسارات أخرى كان خلالها يسجل في دفتره. وقصارى القول لقد خيل إلي أن بوش

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم يكن بعد قد اتخذ قراراً نهائياً بضرب العراق، ولم يكن لديه مانع في أن نلتقي صدام حسين مرة أخرى . بل أنه أيد هذه الفكرة قائلا ان هدف اللقاء الثاني محدود وهو « إخطار صدام حسين بأن موقف الولايات المتحدة ثابت لا يتزعزع ». وجدير بالذكر هنا أن بوش اضاف على الفور قائلا :« اذا بدرت من صدام حسين اشارة موجبه نلتقطها .

وقال بوش في الختام : ذكرتم أشياء مثيرة كثيرة. وهنالك الجديد في عدد كامل من اقتراحاتكم . ولكن علي أن أتشاور مع مساعدي، فهل تنوون البقاء بعض الوقت في واشنطن ؟

قلت انني مستعد للبقاء اذا اقتضت الضرورة هذا .

وختم بوش قائلا بمودة : سوف أخبركم بجوابي بعد ساعتين او ثلاث ساعات .

جاء الجواب قبل ذلك، وغالب الظن أن كثيرين ممن حضروا اللقاء حلوا عقدة لسانهم ما أن انصرفنا. على كل حال لم يحتج الأمر الى ساعتين أو ثلاث ساعات، فبعد ٤٥ دقيقة قال ليس غيتس اثناء المأدبة التي أقامها سنونو لنا : « لقد طلب مني الرئيس أن أقول لكم أن بامكانكم أن تحددوا وقت سفركم بمشيئتكم » . وأدركت ان لقاءنا لن يستأنف».

يبدو واضحا من طريقة تصرف الرئيس بوش مع المبعوث الرئاسي السوفيتي انه كان مجاملاً اكثر منه متفهماً ومستعداً لقطع شوط ما مع الدور السوفيتي الوسيط. كان ابلاغ بريماكوف بحرية اختيار الوقت الذي يريد لمغادرة واشنطن بمثابة افصاح، وباكثر الطرق الدبلوماسية نعومة عن أن واشنطن ليس لديها ما تعطي الوسيط .

توقفت مهمة بريماكوف عمليا في واشنطن، ان كل ما تلاها من حركة كان بمثابة تواصل املته قوة الدفع ليس الا .

دخلت الازمة طورا جديدا، ها هو مجلس الامن يواصل اصدار القرارات، على أن القرار المفصلي الذي كان بمثابة جرس الانذار الأولي الذي يعلن صراحة عن زيادة فرص الحل العسكري على حساب السياسي كان القرار ٦٧٨ الذي حدد سقفا زمنيا لاعلان العراق عن انسحابه من الكويت والا سيواجه الحرب .

في تلك الايام كانت الاحداث تتسارع على نحو جنوني. كانت آخر الوقائع السياسيةالجدية قد حدثت في جنيف حين التقى جيمس بيكر مع طارق عزيز. كان الدور السوفيتي آنذاك قد تقلص الى ادنى مستوى ممكن، وانحصر في ارسال مبعوث من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غورباتشوف لاقناع العراقيين بموافقتهم على توقيت معقول للقاء بيكر، واتسم الموقف السوفياتي في تلك الأيام القليلة والمتسارعة الأحداث بالتفتيش عن فجوات يدخلون من خلالها إلى امكانية عمل شيء لابعاد احتمال الحرب. ان موسكو الرسمية لا تريد الحرب فعلاً، ذلك على العكس تماما من موسكو الصحفية حيث تبدو تاتشر اكثر مرونة من الازفستيا على سبيل المثال .

ان خوف موسكو من الحرب لم يكن فقط بدافع من توقع آثارها على صعيد البيئة كما كان يقال عادة في تفسير الموقف السوفيتي . كما لم يكن من قبيل الخوف من العراق وجيشه ومنشآته. مثل هذا الخوف يمكن ان يكون وارداً لو كانت موسكو لا تزال تعيش حالة الحرب الباردة او بصدد العودة اليها. ان الخوف من الحرب له اسبابه الداخلية والخارجية .

إن اندلاع حرب عظمى على الحدود الجنوبية للدولة السوفيتية لا بد ان يملي اهتماماً استثنائياً بهذا الوضع الناشئ الذي يلامس مباشرة خطوط الدفاع الاستراتيجي للدولة العظمى . ان وعداً بالانسحاب الامريكي حال انجاز المهمة – بقدر ما يظهر تواجد القوات على انه مؤقت بقدر ما يفتح بالمقابل احتمال اطالة هذا المؤقت، مع احتمال انتشار الحريق ليطال العمق السوفيتي ذاته، هنا كيف سيتصرف صانع القرار السوفيتي .

إن وضعاً يمكن ان يتطور على هذا النحو، لا بد أن يوفر للجنرالات مكانة اكثر تقدما في عملية اتخاذ القرار، والجنرالات السوفييت ليسوا محررين في الأزفستيا، ولا مستهلكين لبدع البريسترويكا،انهم عصارة الاتجاه المحافظ في البلاد .

كذلك فان اندلاع الحرب حيث الامم المتحدة قائدها الشرعي والقانوني سيضع الموقف السوفيتي امام خيارات أحلاها مر كما يقال، فان تغاضت عن الأمر اكراماً لعيون المرجعية الدولية الجديدة فذلك لا يوفر نجاة من المضاعفات المتوقعة، وان عارضت تكون قد وضعت نفسها امام اكبر واضخم تحالف دولي يتخذ من علم الامم المتحدة غطاء شرعياً، وان شاركت فساعتئذ اين وعود البريسترويكا التي قطعت بعدم ارسال اي جندي سوفياتي إلى خارج البلاد، خاصة بعد مأساة افغانستان .

إن الحرب كانت تعني بكل بساطة فرض خيارات بالغة الصعوبة على القيادة السوفياتية في وقت غير مناسب، اعني في وقت تشتعل فيه البلاد طولاً وعرضاً بصراع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

داخلي شديد العمق والتعقيد وانعدام الآفاق .

حتى اللحظة الاخيرة كانت موسكو تجاهد لمنع وقوع الحرب أو تأجيلها، حتى اللحظة الأخيرة لم يكف غورباتشوف عن اقتراح المبادرات والافكار .

كان مفاعل الابداع النظري لابتكار الحلول قد انتج اقتراحاً سوفياتياً بالافادة من الاطر العربية للمساعدة على حل الأزمة . وفي حقيقته جاء الاقتراح بمثابة وصفة شعبية اقرب الى الشعوذة لانقاذ حياة مريض يوشك على اسلام الروح.

كما انتج في ذات الوقت فكرة مدهشة حول الامن الاقليمي، وضرورة ترويض ازمة الخليج وادخالها في اطاره المصمم هندسيا على الورق (نظام امن اقليمي يضمن انهاء اسباب الخوف لدى دول الخليج)، ويطمئن العراق الى انه لن يتعرض الى اي تهديد مستقبلي وكذلك ايران، واستطراداً دول المواجهة مع اسرائيل ذاتها .

انها فكرة طموحة بلا شك ورصينة، ومسئولة، غير انها تشبه الى حد بعيد محاولة ادخال جمل من ثقب ابرة. ان ثقب الابرة هنا هو المدى الزمني الذي صارت تحسب فيه درجة الخطر بالدقائق والثواني .

افلت زمام الموقف تماماً من يد السوفييت حين اعلموا بنبأ بدء العمليات العسكرية، كانت طريقة بيكر في ابلاغهم الخبر تراعي قدر الامكان شكليات التخاطب مع الدولة العظمى « بعد دقائق ستبدأ العمليات العسكرية » قال بيكر . قام بسميرتنخ على الفور بنقل رغبة غورباتشوف التأجيل حتى يتسنى حمل العراق على اصدار بيان يعلن فيه عن سحب قواته من الكويت، رد بيكر بحسم : « ان العمليات قد بدأت » .

السابع عشر من كانون الثاني (يناير) ٩٠

بدأت العمليات العسكرية بقصف جوي شديد الكثافة. وكما أفادت المصادر السوفيتية الرسمية، فقد اخطر الكرملين ببدء العمليات قبل دقائق قليلة، فاغلقت قادة الدولة العظمى ملف الوساطة لتفادي الحرب ليفتح ملفاً جديداً هو الوساطة في ظل الحرب. كانت الدولة العظمى قد استسلمت تماماً لاقدارها الجديدة، لم تعد قادرة على المبادرة، ذلك ان العقل الباطن لسدنة الكرملين يختزن شعوراً بالعجز عن ممارسة دور مميز وفعال حيال ازمة تمس، وبكل المقاييس، مصالح الدولة السوفيتية. ماذا يفعلون وقد بدأت الحرب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد كانت فترة ما قبل الحرب اختباراً عملياً لقدراتهم الفعلية على التأثير في مجريات الاحداث. دبلوماسية شيفرنادزه قدمت كل ما باستطاعتها لتوفير تحكم مطلق للادارة الأمريكية في لعبة مجلس الامن . اما دبلوماسية بريماكوف، وعلى الرغم من توازنها المعقول قياسا لما يجري في الامم المتحدة، فقد افضت على صعيد اهدافها المعلنة الى لا شيء، وفي حالة من هذا النوع بوسع الدبلوماسي السوفيتي ارجاع الامر الى تلك العبارة الرائجة «تعنت صدام »، وبوسعه، بل وربما من واجبه غالبا، ان يبتعد عن الاعتراف بسبب آخر الا وهو قلة وزن الدولة العظمى في اللعبة الخليجية الكبرى .

هل كان هنالك خطان يتحركان في مجال السياسة السوفياتية لمعالجة الأزمة ؟! ظاهريا نعم،وجوهريا؟! لا اعرف الى اي مدى كان التنسيق قائماً بين الخط المندفع بقوة في مجلس الامن، وعلى صعيد التعاون مع امريكا، وبين الخط الآخر الذي تعامل بالتركيز مع بغداد مباشرة، واعني به خط بريماكوف. وكلمة (خط) هنا مقصود بها المعنى المجازي. ان لغة بريماكوف في لقاءاته مع الفلسطينيين، والعراقيين، والعرب كانت قاطعة في اظهار عزم الدولة السوفياتية على العمل من اجل ترجيح كفة الحلول السياسية . كما كانت ناضجة ومسؤولة في معالجة مسألة الربط «الممقوتة من قبل الامريكيين ». وكانت ايضا شديدة البعد في النظر الى المستقبل حين تبنت فكرة الامن الاقليمي الشامل لمستقبل الخليج والشرق الاوسط . غير ان تقويم فاعلية الجهد السياسي لا تقتصر على محاكمة اللغة السياسية ومدى منطقيتها او عدالة محتواها . وانما تكون من خلال قراءة تفصيلية ومتفحصة لكل العناصر التي تكون سياسة الدول العظمى تجاه الأزمة . كان يبدو واضحا ان الاتجاه الاقوى في موسكو ينجرف واقعياً نحو المزيد من الانسجام مع الولايات المتحدة ودول التحالف، وان اولئك الذين ينشدون توازناً معينا لايزالون بعيدين كل البعد عن التأثير في مجرى الاحداث .

إن كلمة «لو» هي العدو الرئيسي لاي تحليل واقعي للاحداث ونتائجها،ومع ذلك فهي كلمة مفضلة لدى اصحاب التحليل المفضي الى نتائج خاطئة .

« لو » فعل الاتحاد السوفيتي كذا لحدث كذا،كان ذلك هو منطق دعاة التوازن، منطق المعارضة التي رأت في ازمة الخليج فرصة لاثبات مصداقية طروحاتها بما يتصل بامر القوة والنفوذ . وهنا لا بأس من الاشارة، ولو باختصار، الى منطق هؤلاء وكيف كانوا يعبرون عنه في اسواق البيريسترويكا المزدهرة بالجدل والكلام العاصف .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حين قطع جيمس بيكر زيارته لمنغوليا، وتوقف في موسكو من اجل توفير أرضية مشتركة مع السوفييت لمعالجة الازمة في اطار مجلس الامن، وما سيتلو ذلك حكما من خطوات، يأخذ المعارضون على وزير خارجية بلادهم انه تسرع في منح هذه الارضية، بل انهم ذهبوا الى حد اعتبار شيفرنادزه قد سلم الورقة السوفيتية النادرة بقدر صارخ من السذاجة وقصر النظر. كان يتعين على الوزير السوفيتي ان يدقق في نقطة البداية، وان يجد لدولته مكانا متفقا عليه في الأزمة غير المكان الثانوي الذي وجدت نفسها فيه فيما بعد .

وقد يقال – في معرض مناقشة هذا المنطق – ان الاتحاد السوفيتي صاحب مبادرة انهاء الحرب الباردة والنظام الدولي الجديد والانسحاب من افغانستان، لا يملك الا الانسجام مع طروحاته الطازجة.

هذا صحيح غير ان الاتفاق على اسس ادارة مشتركة لازمة شديدة الخطورة والتعقيد كأزمة الخليج، لا يحمل أي شبهه تشي بنكوص سوفيتي عن المباديء والطروحات، بل على العكس من ذلك تماما، انها فرصة لتثبيت هذه المبادئ باحتلال موقع فعال في شبكة الازمة توفر للدولة العظمى امكانات تكريس فلسفتها امام اول أزمة دولية تواجه البريسترويكا وطروحاتها .

لم يكن التريث في امر الحركة على صعيد مجلس الامن مضراً بالمصالح السوفيتية، كما لم يكن التسرع ليوفر مزايا لهذه المصالح، واذا كان الأمريكيون مستعجلين للامساك بكل خيوط الازمة نظرا لحاجتهم الاستراتيجية لذلك، فقد كان بوسع دبلوماسية الدولة العظمى الاخرى ان تستفيد من هذه الحاجة على الاقل بتحسين شروط مشاركتها الفعلية في ادارة الازمة مثلاً :

ماذا كان يحدث لو اخذ الاتحاد السوفيتي على عاتقه منذ الايام الاولى محاولة حمل العراق على الانسحاب، واعادة الامور الى ما كانت عليه قبل الثاني من آب في مدة زمنية لا تتجاوز الاسبوع، قد ينجح،وقد لا ينجح، غير ان المبادرة في حينها كانت اجدى من مبادرات تأخرت طويلا..

لو اقدم الاتحاد السوفيتي على خطوة كهذه في الايام الاولى لبدء الازمة لأمكن توقع نتائج معقولة، أو لامكن له الامساك بخيط جدي من خيوط الأزمة، او على اقل القليل لما تخاطب مع العراق عبر الاعلام، وعبر طرق دبلوماسية ضيقة وغير فعالة .

لم يكن مطلوبا من الاتحاد السوفيتي تأييد الغزو، او التردد في ادانته، او حتى تخفيف اللغة القاطعة بشأن الانسحاب الفوري للقوات العراقية من الكويت، ولكن كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المطلوب حقا ان يعلن الكرملين عن مبادرة، وان يستخدم إستحالة صدور قرار عن مجلس الامن دون موافقة لحمل العراق على الاذعان، وحمل واشنطن على الفرملة قليلاً .

إن شيئاً من ذلك لم يحدث، وحين ذهب بريماكوف الى مهمته المتأخرة وجد أمامه سدودا مرتفعة قوامها عدم الحاجة الامريكية لحلول كالتي يقترحها السوفييت، وعدم الثقة العراقية بالوسيط الذي لم يكن يقل حسب اللغة الرسمية – حماسا في تصعيد الازمة عن الطرف الامريكي . هكذا كان العراق يفهم الموقف السوفيتي. ان الصحوة السوفيتية على ضرورة اتخاذ موقف متوازن وواقعي لابعاد خطر الحرب جاءت في وقت كان فيه الدافعون باتجاه الانسجام المطلق مع الامريكيين قد وصلوا الى نقطة اللاعودة في طروحاتهم وسلوكهم .

في لقاء تم بين السيد بيلونوغوف نائب وزير الخارجية وعضو فريق الازمات مع السيد محمود عباس (ابو مازن)، وياسر عبد ربه وبحضوري، ابلغنا نائب الوزير انه عائد لتوه من طهران وانه حصل على تطمينات ايرانية قاطعة بعدم خرق الحصار المفروض على العراق، وطلب منا ابلاغ العراقيين بانهم ان لم ينسحبوا فورا فسوف يتعرضون لضربات ماحقة إضافية، كان ذلك قبل بدء العمليات الحربية بأيام قليلة .

مبادرات غير فاعلة

مع بداية الحرب شرعت الدولة السوفياتية في العمل لوقفها، او بتعبير ادق لعدم اطالة امدها. كانت تدرك ان ليس لديها من اوراق ضغط يمكن استخدامها لتحقيق هذا الغرض سوى تلك التي لا تزال في جيب صدام حسين ألا وهي ورقة الانسحاب .

غير إن الرئيس العراقي، وطيلة فترة احساسه بقدرته على التحكم بمسار الازمة من موقعه كطرف آخر ووحيد فيها، كان حريصا على ان لا يقدم هذه الورقة لاي طرف، انها الورقة الاثمن التي يمتلكها، وبالتالي لا داعي لجعلها مطمع الآخرين، ومادة لتقوية ارصدتهم في الازمة .

غير ان الرئيس العراقي من جهة أخرى بحاجةلمن يعينه دبلوماسيا على الافادة من هذه الورقة لحظة اتخاذ قراره بلعبها، ولو فردنا خريطة العالم وقرأنا تضاريسها تحت مجهر مكبر لما أمكن لنا ان نجد قوة مؤهلة لمثل هذا الدور غير الاتحاد السوفيتي حتى لو وصل الى اضعف حالاته، واكثرها تشدداً ضد العراق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان الاتحاد السوفيتي غير مشترك عسكرياً في جبهة الاحتشاد الدولي وتلك نقطة مساعدة .

كان لا يزال – ولو نظرياً – يرتبط بمعاهدة صداقة مع العراق وتلك نقطة اخرى مساعدة .

وكان من خلال طروحاته في هلسنكي وما تلاها يجاهر باستبعاد الحل العسكري، ويتقدم بضع خطوات على الآخرين في أمر الدخول من أزمة الخليج مباشرة الى حل أزمة الشرق الأوسط .

إن مثل هذه الميزات يمكن اظهارها كمؤهل سوفيتي للعب دور موافق عليه من قبل العراق. لقد منح صدام بعض الوقود للعربة السوفيتية اثناء لقاءاته مع بريماكوف، غير ان هذا الوقود لم يكن كافياً لا لتشغيل العربة لفترة طويلة، ولا لاقناع الامريكيين الذين كانوا يندفعون بسرعة قياسية نحو اكمال حشدهم العسكري بما يحمله ذلك من شعور مضاعف بالثقة، والقدرة على الاملاء دون قيد او شرط ودون مكارم الوسطاء .

مع ذلك ظل قادة الكرملين يأملون بسقوط الثمرة العراقية في حضنهم، ساعتئذ يتسنى لهم احتلال وضع افضل في سياق حل الازمة او في سياق الترتيبات اللاحقة مستقبلا

غير ان السوفييت وهم يأملون بذلك كانوا موضوعياً في موقع يزداد صعوبة مع الأيام، وأعني به وضع اللاهث وراء الأزمة وليس الموجود في صلبها، كانت ورقة العراق «الانسحاب » آخذة بالضعف، وكان واضحاً أن الرئيس العراقي وعلى الرغم من صموده

غير ان السوفييت وهم يأملون بذلك كانوا موضوعياً في موقع يزداد صعوبة مع الأيام، وأعني به وضع اللاهث وراء الأزمة وليس الموجود في صلبها، كانت ورقة العراق «الانسحاب » آخذة بالضعف، وكان واضحاً أن الرئيس العراقي وعلى الرغم من صموده
العنيد في وجه موجات القصف الجهنمي بدأ يفكر فيها على نحو اكثر جدية من قبل، غير أن عامل الزمن الذي لا يرحم افقد ورقة الانسحاب ثمنها الذي كان ممكنا الحصول عليه في بدايات الأزمة، او قبل بدء العمليات العسكرية ضد العراق .

كان لدى الامريكيين فيما مضى مسوغ منطقي لاظهار ترحيبهم بالوساطة السوفيتية، وفي بعض الأحيان دعمهم لها، وذلك لدوافع عديدة ومتداخلة وأحياناً متباينة، فهم لا يخسرون شيئا لو حصل السوفييت على اعلان بالانسحاب لانهم بعد ذلك سيدخلون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العراق، دون حرب، الى دوامة التقيد بتنفيذ القرارات الأخرى. كذلك لم يكن الأمر ليخلو من وجود عناصر نافذة داخل دائرة القرار الامريكي ترى امكانية النظر فعليا في أمر تحقيق النتائج الرئيسية للحملة دون تعريض الجنود الامريكيين للأذى، وكان هؤلاء على استعداد لاظهار دعمهم للحركة السوفيتية، اما المرجع الأعلى والأخير في القرار الامريكي وهو الرئيس فقد كانت مواءمته للاجتهادات المتباينة في ادارته، اي بين الضاغطين بشدة نحو الحرب والداعين بحذر الى التفكير بطرق أخرى، لا تحول بينه وبين تشجيع الحركة السوفيتية ما دام زمام الموقف بيده اولا وأخيراً، وما دام الوسيط قد تخلى عن انيابه، ولم يعد في وارده التكشير عنها مهما حدث .

لقد أفصح الرئيس الأمريكي عن فهمه لابعاد الحركة السوفيتية على انها ذات اتجاه واحد، وينبغي ان تكون ذات تركيز واحد . . « حمل صدام على الانسحاب دون قيد او شرط » .

مع ذلك، وعلى قلة الامكانيات الموضوعية التي تجعلنا نتوقع انجازاً للدور السوفيتي الا ان هذه الامكانيات كانت قبل بدء العمليات العسكرية أفضل بكثير منها اليوم حيث بغداد تشتعل تحت نيران القصف الجهنمي .

شكل غورباتشوف فريق ازمات، ويبدو ان المحاور التي تم تحديدها للحركة في ظل الوضع الجديد الذي بلغته الازمة كانت على النحو التالي :

– السعي مجددا لدى العراق للحصول منه على استعداد للانسحاب غير المشروط من الكويت .

– وضع الولايات المتحدة منذ البداية في صورة هذا السعي السلمي .

– مراقبة مدى تقيد الطرف الامريكي بالتفويض الممنوح لقوات التحالف وفق قرارات مجلس الامن .

– واخيراً مراقبة الأخطار المحتملة على البيئة جراء القصف الامريكي للمنشآت النووية والكمياوية العراقية دون نسيان المبدأ الالزامي القائل أن ميدان المعركة يلاصق الحدود الجنوبية للدولة السوفيتية .

شكل غورباتشوف فريق ازمات، ويبدو ان المحاور التي تم تحديدها للحركة في ظل الوضع الجديد الذي بلغته الازمة كانت على النحو التالي :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- السعي مجددا لدى العراق للحصول منه على استعداد للانسحاب غير المشروط من الكويت .
- وضع الولايات المتحدة منذ البداية في صورة هذا السعي السلمي .
- مراقبة مدى تقيد الطرف الامريكي بالتفويض الممنوح لقوات التحالف وفق قرارات مجلس الامن .
- واخيراً مراقبة الأخطار المحتملة على البيئة جراء القصف الامريكي للمنشآت النووية والكمياوية العراقية دون نسيان المبدأ الالزامي القائل أن ميدان المعركة يلاصق الحدود الجنوبية للدولة السوفيتية .

في الأيام الأولى للحرب اقترح السوفييت مبادرة تقوم على اساس ان يقوم العراق «سراً» بابلاغ الطرف السوفيتي استعداده للانسحاب من الكويت دون قيد او شرط، ويتولى السوفييت حال حصولهم على هذا الموقف الجديد نقله الى واشنطن مع اقتراح بوقف اطلاق النار.

كان بديهيا ان ترفض هذه المبادرة من قبل العراق اذ انها لم تأت بجديد، والجديد، المأمول هنا، على الأقل، ان يكون الأمريكيون وراء هذا العرض .

نمت لدى العراقيين شكوك متزايدة حول الموقف السوفيتي، وطريقة عمل الدولة العظمى في التعاطي مع الأزمة. كانت الأجواء قد امتلأت بأخبار التفريط السوفيتي باسرار الاسلحة العراقية، وكان الالحاح السوفيتي على الحصول على كلمة السر العراقية دون يقين من اي مقابل امريكي، قد دفعت العراقيين الى اليأس من موسكو، والتعبير عن ذلك بانتقادات علنية لما وصف بالسمسرة السوفيتية والتبعية لواشنطن .

وعقب الزيارتين اللتين أداهما بريماكوف للشرق الاوسط امكن لي التعرف على الرجل، لقد التقيته برفقة محمود عباس وياسر عبد ربه ثلاث مرات .

فاتحه الاخ ابو مازن، وكان ذلك في الكرملين يوم الثاني من يناير ١٩٩١ عن سبب توقف مهمته على الرغم من تفاؤله في البداية، وأفصح ابو مازن عن معلومة مفادها انه في الوقت الذي كان فيه بريماكوف يظهر تفاؤلا كان الأمريكيون يتصلون باصدقائهم ويعلمونهم بأن بريماكوف لم يحصل على شيء يذكر من العراق.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أجاب بريماكوف :

« لقد حصلت على مؤشرات عديدة خلال لقائي بالرئيس صدام حسين، وكان ذلك دافعاً قويا لزيارة بغداد للمرة الثانية، والقيام بجولة لاستقطاب مؤيدين للحل السياسي. لقد كانت لقاءاتي مع الجميع تخلص الى نتيجة ان اية مبادرات جديدة للحل ينبغي ان تستند اولا الى انسحاب عراقي دون قيد او شرط من الكويت، وان يجري بعد ذلك التفاوض حول الامور المختلف عليها بين الطرفين .

ولخص بريماكوف أفكاره بخصوص الخليج، وهي ان يتم الانسحاب العراقي من الكويت اولا، وان يجري التفاوض على الجزر والنفط والعمل على توفير ضمانات امنية للمنطقة، وتأسيس منظومة امن اقليمي يشارك فيها العراق واسرائيل، وذلك بالطبع بعد حل القضايا السياسية في المنطقة. وقال ان ذلك لا بد ان يستغرق وقتاً طويلاً، ولكن لا بد من البدء والعمل .

وقد عقد اجتماعاً استغرق ثلاث ساعات مع الرئيس صدام، وقد يكون هنالك تحرك سوفيتي على اساس هذا اللقاء .

وقال : ان احتمالات الحرب تظل قائمة، وان الامريكيين مستعجلون عليها قبل موسم الحج، ويوجد داخل الادارة اتجاه قوي يدعو الى حسم الموقف بالقوة .

أخيرا أكد بريماكوف انه لاتزال هنالك آفاق جيدة للحل السياسي، وان القيادة السوفيتية ستواصل اتجاهها الذي اكده الرئيس غورباتشوف في هلسنكي بالعمل بشتى السبل لمنع وقوع الحرب .

كانت الدبلوماسية الفلسطينية التي تولى الجزء الأكبر من تنفيذها السيد أبو مازن، تتحرك بدأب على الخط السوفيتي نظراً لاعتبارات عديدة أهمها جاهزية هذا الخط للعمل في اطار سياسي بعد ان اغلقت كل الابواب أمام الدول الأخرى مثل اوروبا الغربية ودول عدم الانحياز .. الخ .. وكانت بداية مهمة بريماكوف التي شهدت تعاوناً فلسطينياً فعالاً قد خلقت نوعاً من الارتباط مع الجهد السوفيتي والرهان عليه، لذا لم يكن ما جرى في الكرملين اثناء اللقاء مع بريماكوف يوم ١/٢ مجرداً أو استطراداً لحديث، وانما كان مقدمة لاقتراح فلسطيني جاء في لقاء آخر في أواخر يناير ١٩٩١ حينما كانت الحرب قد بلغت أوجها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سأل محمود عباس ما الذي يحول دون استئناف مهمة بريماكوف في وقت يحتاج فيه مجرى الازمة الى عامل تلطيف، او الى وسيط. كان العراق قد دمر جسوره السياسية مع جميع دول الغرب، وما تبقى له من رصيد في العلاقات لا يكفي لحمل أي استعداد من جانبه للدخول في صفقة سياسية .

كان الاقتراح الفلسطيني باستئناف مهمة بريماكوف قد جاء في وقت لم يعد فيه من صوت مسموع سوى صوت الحرب، ولم يعد يرى اي افق سوى تدمير العراق بغية حمله على الاستسلام .

أظهر بريماكوف استعداداً لاستئناف مهمته، ولم لا فالدولة السوفيتية بدأت تشكو علنا من تجاوز قوات التحالف للدائرة التي رسمتها قرارات مجلس الأمن، فضلا عن أن الفصل الثالث والاخير سيكون هو الاصعب والاكثر تأثيراً على وضع الدولة السوفيتية المعطلة تماما عن اتخاذ اية مبادرات فعالة، واعني به الحرب البرية. كان الرأي العام قد تأثر كثيراً بلعبة مشتركة قام بها الامريكيون باعلامهم العملاق، والعراقيون باعلامهم العنيد مفادها ان الحرب البرية ستكون مجزرة بشرية بكل معنى الكلمة. كان الامريكيون يشيعون هذه المقولة من اجل تبرير اطالة امد الحرب الجوية وفق المعادلة المنطقية التي تقول انه كلما تم تدمير جزء من القوة العراقية امكن تفادي جزء من أذى المعركة البرية. كذلك لم يغب عن ذهن الأمريكيين ايراد تبريرات اخرى لضراوة القصف وطول امده واتساع دائرته مثل القول انهم يحاربون رابع اقوى جيش في العالم، لذا فان ما انجزوه عبر القصف، الهائل لا يزال دون الحد الادنى المطلوب لاضعاف قدرة الجيش العراقي على نحو كلي .

أما العراقيون فقد بالغوا في اظهار مدى خطورة الحرب البرية على قوات الحلفاء مراهنين بذلك على اخافة أطراف التحالف، وزعزعة تماسكهم المعنوي، وجعلهم يقبلون على المساومة تفاديا لهذه المجزرة القادمة. كانت متطلبات الحرب النفسية مرهقة للعراق، لقد حمل نفسه أوزاراً باهظة، ولا شك أنه لم يكن غافلاً عن انه حال الهزيمة العسكرية سيدفع الثمن الحقيقي والنفسي من رصيده .

اتفق وفدنا على ان يقوم من جانبه بابلاغ العراقيين عن استعداد السوفييت للبدء بجولة جديدة من جولات الوساطة، كان الاتصال ببغداد مستحيلا من موسكو، وكان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ارسال خبر من هذا النوع عبر الجهاز اللاسلكي الفلسطيني بمثابة اعلان عن مهمة وشيكة قبل ان تتبلور بصيغة عملية، وقد يؤدي ذلك الى اضعافها مسبقا، او افشالها قبل ان تبدأ .

غادر وفدنا موسكو الى تونس، وكان لا بد من أن تضيع رداءة الاتصالات اسبوعا ثميناً على الاقل قبل ان تعلم بغداد باستعداد موسكو لاستئناف وساطتها شريطة ترحيب عراقي واضح بذلك .

علمت ان ياسر عبدربه ابلغ طارق عزيز في بغداد محتوى المحادثة الأخيرة مع بريماكوف، فوجد وزير خارجية العراق مرحبا بالفكرة .

كان يوم احد، كنت مدعوا لتناول طعام الغداء على مائدة السيد المنصف الماي سفير جامعة الدول العربية بموسكو، والسيدة حرمه في مكان يبعد عن قلب موسكو زهاء ثلاثين كيلو مترا . كان سفير الجامعة ومؤسس بعثتها في موسكو، وهو تونسي مخضرم في العمل العربي يشكل بارومتراً شديد الحساسية ينبيء عن درجة الحرارة الراهنة للواقع العربي. كان ينتمي الى بلد ذي موقف علني متعاطف مع العراق، ويعمل في اطار تصب كل توجهاته الرسمية، في غير مصلحة العراق، كان ممزقا بين بلده واطاره وكان دائم الحزن بفعل تمزق من نوع آخر بين عواطفه والمجرى المأساوي للاحداث .

قبل توجهي الى حيث يقيم المنصف الماي، تلقيت اتصالا هاتفيا من تونس : « لقد وردتنا اشارة من بغداد ترحب بزيارة الصديق ابو مازن »،كان المتحدث احد موظفي مكتب محمود عباس، كان موظفا حرفيا نقل الاشارة كما هي دون ان يقدم أي جديد يفصح عن جوانب الغموض فيها .

كان يتعين علي ان اعرف اشياء كثيرة قبل طلب اللقاء مع وزارة الخارجية، كنت اشعر بتعقيد الموقف الناجم عن غموض الاشارة وأهمية الوقت وسلبية يوم الاحد . ايقظت ابو مازن من نومة، ان فارق التوقيت بين تونس وموسكو كان خصما لدودا لا يظهر اذاه الفادح الا في اللحظات الهامة .

كان ابو مازن ذاته غير عارف بتفاصيل كافية من ذلك النوع الذي يلزم للحديث مع الخارجية. لم أحصل من ابو مازن آنذاك الا على شيء واحد هو اصراره على لقاء الخارجية اليوم حيث ان التأخير سيكون مؤذياً .

اتفقنا على ان يجري اتصالات عاجلة مع بغداد لاستجلاء الامر، وقبل ان يصل اي شيء جديد امكن تحديد موعد لي مع السيد اوليغ دير كوفسكي نائب رئيس دائرة الشرق الاوسط بوزارة الخارجية .

وصلت الى المبنى الضخم في الثانية عشرة ظهرا، كان صامتا مظلما يخلو تماما من أي مظهر من تلك المظاهر المألوفة عنه ايام العمل الرسمي، شرطي يقف وراء الباب الفولاذي وسكرتير من دائرةالشرق الأوسط ينتظر، أما الركن الذي تعودنا تعليق معاطفنا عليه فقد كان خاليا تماماً من البشر والمعاطف، كنت اسمع صدى وقع اقدامي وانا أعبر المسافة الى المصعد وكنت ارتب في ذهني ما سأقول .

في مكتبه في « الطابق الثامن» استقبلني ديركوفسكي، كان المسؤول الرئيسي عن شؤون التسوية، وكان بديهيا ان لا يكون ذلك اللقاء هو الأول من نوعه بيننا، اعتذرت له عن ازعاجه يوم الاحد، فقد علمت انه اتى خصيصا لمقابلتي اذ لا يصح تكليف موظف ثانوي باستقبال سفير يطلب لقاء عاجلاً، وهنا استعيد حرفيا ما حدث بيننا: – لقد وردت اشارة من بغداد ترحب بمبعوث سوفيتي رفيع المستوى، الاشارة وصلت منتصف ليلةأمس الى تونس، ولكي تكون المعلومات وثيقة وردت على النحو التالي : ....(واعدت قراءة النص الذي كان بحوزتي) .

سألني :« هل هنالك استعداد عراقي للانسحاب، هل ابلغتم بذلك او هل استطعتم استنتاج ذلك؟!»

اجبت : ليس لدي معلومات محددة بهذا الشأن، لا استطيع الجزم أو الاستنتاج»

قرأت على وجه مستقبلي مسحة تشي بقدر من اللامبالاة، ذلك قبل ان يقول :

« سأنقل هذا الى قيادتي وسأعلمك بالجواب .»

لم يكن ما قاله ديركوفسكي كافيا – وفق تقديري – لاقناعي بأنني على الاقل اديت مهمتي على اكمل وجه، لقد انتابتني هواجس وشكوك من نوع . . « ماذا لو انه نظر للامر على انه قليل الأهمية » . او « انه مجرد اقتراح فلسطيني من جملة آلاف الاقتراحات التي سحقت على مدى شهور الازمة »، شعرت بحاجة لنقل الامر الى مستوى اخر فقلت:

« ان الرئيس ياسر عرفات شديد الاهتمام بهذه الاشارة، وهو حريص على ان تصل

باسرع وقت ممكن الى الرئيس غورباتشوف، دعني افكر معك كزميل بصوت مرتفع، انني لا اعرف معلومات عن الموقف العراقي، ولست متأكدا من ان لدى قيادتي معلومات حول استعداد العراق للانسحاب، كل الذي استطيع قوله ان زيارة مبعوث سوفيتي رفيع المستوى الى بغداد، ودعنا نعتبره الرفيق يفغيني بريماكوف ستتيح فرصة نادرة لاستكشاف منافذ معقولة وفعالة على صعيد القرار العراقي، ومن مصدره الحاسم الرئيس صدام، لذا فان قيادتي ترى وتلح على ضرورة الاسراع في اقتناص الفرصة، وقد نصل الى امكانيات جدية تحول دون وقوع المجزرة القادمة . »

أجاب ديركوفسكي – وهو الان سفيرا لروسيا الاتحادية في دولة الامارات العربية بعد ان لم يتسن له موقع سفير موسكو لدى بغداد حيث رشح لذلك باديء الامر ...

« سأبلغ القيادة بكل هذا » .

ارسلت تقريري الى تونس، كانت الساعات التي تلت لقائي مع ديركوفسكي حافلة بالايضاحات، فقد وصلت الى موسكو اشارات سفارتها في بغداد، ووصلتني توضيحات سفيرنا هناك عزام الأحمد، وتوضيحات اخرى من تونس .

تناولت غداء متسرعا مع المنصف الماي وحرمه السيدة نزيهة، وعدت لمواصلة اتصالاتي، كان يوم احد حافلا بالعمل وبالشؤون الخاصة، كان البيت الفلسطيني الصغير في موسكو قد أعد لسهرة دافئة، انه عيد ميلاد مي ابنة نائبي سعيد ابو عمارة، كنت مدعواً لهذه المناسبة، وبينما كنا منهمكين في الغناء «هابي بيرث داي تو يو » الخ . . قيل لي ان تونس على الخط. كانت الساعة آنذاك حوالي الثامنة والنصف، كان المتحدث ابو مازن، قال بنبرة فرحة « ها هي الامور تسير في اتجاهها الصحيح» .

سألت : «ماذا تقصد »

قال : « ألم تسمع بنبأ قرار غورباتشوف بارسال مبعوث رئاسي الى بغداد فوراً .»

قلت : « دعنا إذن نأمل خيراً».

بعد قليل جاء تلفون المنصف، قال بلهجته التونسية ذات النكهة المشرقية الظاهرة «ها أنني وجدتك اخيرا، يبدو ان الامور تسير في اتجاه حسن » .

رحم الله روح المنصف الماي، لقد توفي بعد سنة تقريبا، كان يعد العدة للعودة الى تونس ليستقر هناك، لقد حصل على التقاعد بعد خدمة قومية دامت زهاء ثلاثين سنة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التسارع المأساوي

وصل بريماكوف الى بغداد، كانت آثار الحرب تبدو ظاهرة على وجه المدينة الجميلة، دمار هنا، وحرائق هناك، ودخان يحجب رؤية السياسيين عما سيحدث غداً .

شاهدت على شاشة الـ CNN المبعوث الرئاسي السوفياتي وهو يتجول في بعض أحياء العاصمة، لقد اراد العراقيون لهذا الضيف الذي يزورهم، للمرة الثالثة على مدى شهور الأزمة، ان يرى بام عينه بعض الآثار الطازجة للقصف الجوي الذي لم تنخفض وتيرته رغم مرور قرابة شهر على بدئه .

أعلن عن استقبال الرئيس صدام حسين للمبعوث السوفيتي، ولم يشر الاعلام العراقي الى ما دار في الاجتماع، كانت انباء مهمة بريماكوف شحيحة تماما في موسكو، غير ان الاجواء كانت مهيأة اكثر من اي وقت مضى لسماع مفردات اكثر وضوحا تشير الى استعداد العراق للانسحاب .

لقد دخل العراق والسوفييت دوامة متسارعة، القصف الجوي يتواصل بالحاح لا يصدق، والحديث عن المعارك البرية القادمة صار حديثا امريكيا مفضلا بعد ان كان عراقيا، والقناة الدبلوماسية التي شقها بريماكوف في وقت متأخر ايضا هذه المرة تبدو كصنبور يصب الماء قطرة قطرة على حريق هائل .

إن الامريكيين لم يعودوا في وارد الاصغاء لاحد، وهم يشعرون بقرب حسم الموقف عسكريا على الارض، لم يمنحوا الاتحاد السوفيتي المنهمك بأزماته الداخلية مأثرة قليلة التكاليف هي انهاء الحرب بتسوية سياسية معقولة، ثم لم يعتبروا استعداد العراق للانسحاب من الكويت حدثا يستحق تحويل الدفة الى اتجاه آخر .

إن كسبا عسكريا يغري تلقائيا للسعي الى كسب آخر، لقد تزعزعت قوة العراق في الكويت، وتقلص الخطر العراقي الى ادنى مستوى ممكن، فلم لا تكمل العجلة الفولاذية دورانها نحو اهداف جديدة .

في ذلك الوقت بدأت التنازلات العراقية بالظهور، لقد اعلن مجلس قيادة الثورة في العراق موافقته على الامتثال لقرار مجلس الامن الدولي ٦٦٠ الذي ينص على سحب القوات العراقية من الكويت دون قيد او شرط .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محادثات خارج الملعب

لم يحدث قرار مجلس قيادة الثورة العراقي اي رد فعل نوعي على صعيد الطرف الآخر، اي الامريكي، لقد صدرت اشارات من واشنطن تؤكد ان هذا القرار لا يفي بشروط واشنطن، اي الالتزام بجميع قرارات مجلس الامن دون قيد او شرط، غير ان موسكو التقطت هذا القرار لتطوير لغة التخاطب مع واشنطن، صار بوسع الكرملين ان ينسج مبادرات اكثر تكاملا، وان يعلق أملا على نهاية معقولة للمأساة الجارية على حافة حدوده الجنوبية .

كانت موسكو في انتظار طارق عزيز، الذي وصل في السابع والعشرين من شباط، مبعوثاً من القيادة العراقية لانضاج حل معقول مع قادة الدولة العظمى. انهمك الوزير العراقي ومساعدوه في احاديث حول شؤون تفصيلية تتعلق بالجولات الفنية لعملية الانسحاب . كانت المحادثات تجري في وزارة الخارجية والكرملين، واحدى القلل الواقعة على تلال لينين. انجبت هذه المحادثات تفاهما سوفيتيا عراقيا حول امور عدة من نوع تأكيد الانسحاب غير المشروط الى المواقع التي كانت ترابط عليها في الاول من آب ٩٠، وبالنص من الكويت. كان التفاهم مع السوفييت اشبه باللعب خارج الملعب، ذلك ان واشنطن كانت قد قررت، وعلى نحو قطعي ونهائي المضي في الشوط حتى نهايته. كان لا بد للعراق من ان يلعب الورقة السوفيتية مع علمه بقلة امكاناتها المؤثرة على المجري المتعاظم للشلال العسكري . كان لا بد من لعب هذه الورقة لانها كانت الوحيدة المتاحة لتجنب الدخول في لعبة الاملاء الصارخ من قبل واشنطن والاذعان القسري من قبل العراق. كان العراقيون حريصين على ان يوردوا في بياناتهم المتواترة عبارة – بناء على الاتفاق مع موسكو او تلبية لاقتراحات موسكو. كانت البيانات العراقية تظهر موسكو على انها قناة التسوية الممكنة، غير ان موسكو ذاتها وواشنطن قبلها وبعدها لم تكن لترى الامر على هذه الصورة بالضبط . كانت نقطة الضعف القاتلة هي قناة موسكو الدبلوماسية والاستجابة العراقية لها ان جميع المقترحات السوفيتية لم تكن منسقة في الاصل مع الطرف الامريكي، كانت مجرد مبادرات تسمى عادة بالمساعي الحميدة حتى وان كانت واشنطن تحاط علما بها، الا انها لم تكن تشكل اي قيد على الحركة الامريكية ما دامت لم تدخل في نطاق الصفقة المتفق عليها. لقد ظهر للعراقيين – ومعهم بعض الحق في ذلك – ان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مبادرات غورباتشوف ذات النقاط الثماني او الست ربما تكون مباركة من قبل واشنطن، اي انه يمكن البناء عليها، غير ان ظنا كهذا لم يكن لديه من المصداقية الواقعية سوى اطياف الدولة العظمى، وما توحي به من التزامات صارت غير منطقية في وضعها الجديد . لقد شاع في ذلك الوقت قول مفاده : « لا يمكن لغورباتشوف ان يطلق مبادرة في الهواء ، لا بد ان واشنطن جاهزة للاستجابة .»

مع ذلك كان واضحاً ان التعامل الامريكي مع الدور السوفيتي سار في اتجاه شديد الوضوح، دعهم يقترحون ويحاولون ان يحصلوا على تنازل من صدام حسين، فبوسعنا ان نطلب منهم الحصول على تنازل آخر. لذا حين عرض غورباتشوف مبادرته الأخيرة مستندا الى الموافقة العراقية على الانسحاب غير المشروط من الكويت كان رد فعل بوش:

« اشك في المصداقية العراقية، اشك في صلاحية هذه الموافقة، انني قلق على الاسرى » .

كان ذلك هو اقصى ما يستطيعه الرئيس الامريكي لمجاملة زميله السوفيتي، غير ان سيد الكرملين واصل بدأب يحسد عليه جهوده المكثفة لتفادي الحرب البرية. لقد حاول الافادة من التطور العراقي الجذري، فأجرى اتصالاته مع زعماء العالم ذوي الصلة المباشرة والمؤثرة بالازمة . كان متفائلاً بامكانيةاجمال نتائج الحملة الدبلوماسية عبر قرار يصدر عن مجلس الامن ينهي الحرب قبل تطور الامور نحو الفصل الاخير.. المعارك البرية .

مع طارق عزيز

لم تكن فلل تلال لينين الشهيرة قد عرضت لايجار بعد، ان هذه الفلل الانيقة ذات الاثاث التقليدي الفاخر، والمزينة بلوحات اصلية لكبار الفنانيين السوفيات خصصت ومنذ زمن سحيق لاستضافة كبار زوار موسكو، وخلال ازمة الخليج فتحت ابواها لاستقبال زوار إما جاؤوا الى عاصمة البريسترويكا لاول مرة، او انهم جاؤوها بعد غياب طويل .

هناك اتيحت لي فرصة اللقاء مع الدكتور عصمت عبدالمجيد نائب رئيس الوزراء ووزير خارجية مصر، وقبل ذلك، امكن لي الاصغاء لحديث مطول، ادلى به الامير بندر بن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سلطان الذي وصل موسكو في مهمة عاجلة على الارجح، انها للأطمئنان على رسوخ موقف الدولة السوفيتية في رفض الاحتلال العراقي للكويت، وما سيترتب على هذا الموقف من خطوات اجرائية تغطي فصول الأزمة كلها. لا بأس ما دامت الزيارة جددت اعادة البحث في امر استئناف العلاقات الدبلوماسية والتي كانت مقطوعة منذ عشرات السنين .

كان الامير السعودي يتحدث باسهاب عن صداقته الشخصية المتينة مع الرئيس العراقي، وعن العديد من الوقائع الدالة على دعمه له في معركته الطويلة مع ايران، وبداهة ان يفصح الامير وبأشد الكلمات قوة عن خيبة امله، بل وعن حيرته في فهم ما حدث، غير انه في نهاية المطاف كان يرى وبحماس ظاهر حتمية الحشد العسكري من اجل « ازالة آثار العدوان بالقوة» .

كان السفراء العرب يظهرون تخوفا شديدا من مسألة التواجد العسكري الامريكي الكثيف على الارض السعودية، فقدم الأميرتحليلا قاطعاً بأن هذه القوات لن تبقى يوما واحدا بعد تحرير الكويت .

كان الاميرحريصا على ان يخاطبني برفق، كان يجيب عن ملاحظاتي وأسئلتي باناة وتفهم، وحين سألته عن الشائعات التي سرت آنذاك، ومفادها أن دول الخليج بصدد اتخاذ اجراءات طرد جماعي للفلسطينيين اجاب بلهجة قاطعة « فيما يخص المملكة فلن يجد الفلسطينيون الاّ كل رعاية واهتمام » .

جرت مياه كثيرة في نهر موسكو المنساب بمحاذاة سفح التلال، وكانت الأزمة في سبيلها الى الحسم. آنذاك كان الامريكيون يكثرون من الحديث عن مواقيت افتراضية لبدء المعركة البرية، وطارق عزيز في موسكو من اجل محاولة اخيرة لتفاديها. استمعنا الى رفض الامريكيين اخر مبادرات الرئيس غورباتشوف على شاشة الـ CNN .

غادرنا شقتي، حيث كان يقيم ابو مازن وياسر عبد ربه وانا، الى تلك التلال، كانت الڤلل المتناثرة في أعماق الغابة الكثيفة والمختبئه وراء أسوار الحراسة االكترونية صامتة تحت لحاف سميك من العتمة، الا تلك الڤيلا المضاءة حيث طارق عزيز وبعض مساعديه يثون فيها حياة نشطة. اصطحبنا موظف السفارة العراقية الى الدور الثاني، وهناك كان أبو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

زياد في انتظارنا محاطاً بسفيره السابق في موسكوسعد الفيصل، وسفيره الحالي غافل حسين، ومعهما رجل لم تثنه الحرب الضارية عن الاهتمام بهندامة هو السيد رياض القيسي.

كنت اعرف طارق عزيز، لقد التقيته مرات عدة في بغداد وتونس والمغرب، كان دائماً اكثر من وزير خارجية، ودائماً كان اكثر من عراقي. كان نجما ساطعا في سماء الدبلوماسية العراقية وصاحب صولات وجولات مشهود لها في ساحات العرب بدءا، من اطار وزراء الاعلام، وانتهاء بالقمة. انه متحدث لبق، يظهر قدرا كافيا وجيدا من الاعتداد بموقف بلاده بصرف النظر عن سلامة الموقف او خطئه، وأظنه يمتلك قوة معنوية تؤهله لأن يكون، على صعيد جوهري، احد اذرع رئيسه الضاربة بكفاءة وفاعلية. لم اكن قد التقيته في موسكو خلال زياراته السابقة، غير اني سمعت الكثير عن مرافعاته الطويلة في الخارجية والكرملين .

كانت لحظات عصيبة تلك التي قابلنا فيها طارق عزيز، كان الرهان يتركز على جهود اللحظات الخبرة التي يبذلها ميخائيل غورباتشوف لترتيب وقف لاطلاق النار، والاتفاق على مدى زمني قد لا يتجاوز عشرات قليلة من الساعات من انسحاب القوات من الكويت الى ما وراء خطوط الأول من آب .

كان وزير خارجية البلد الذي يواجه مصيراً مأساويا يدرك بذكائه المعهود ان الفرص للنجاح ضئيلة للغاية بحكم افول نجم الدولة العظمى، وارتضائها بدور الوسيط الذي يملك فقط حق الاقتراح. وما اصعب على النفس أن يدرك دبلوماسي مجرب هذا الوضع، ويجد نفسه مضطراً للتغاضي عنه، والتعامل معه بكل جديه بحكم الحاجة ليس الا .

لم يكن الوزير العراقي قد عرف بعد بالخبر الطازج الذي تلقيناه قبل دقائق من حضورنا، واعني به رفض الادارة الامريكية لآخر المقترحات السوفيتية . تطوع ياسر عبد ربه بابلاغه النبأ. تدخل القيسي رافضا التصديق، وقال بلهجة تنطوي على ثقة مصطنعة: «انكم تقدصون مبادرة الامس، لقد ادخلنا تعديلات جديدة عليها، ولم يحن الوقت بعد لاعلان موقف منها، لقد ارسلت اليهم اليوم » . اوضحنا للاخوة العراقيين ان الخبر الذي سمعناه يخص آخر مبادرة، وان الرفض الامريكي تحديدا يتعلق بالتعديلات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم يقتنع القيسي بما نقول، مع انه مجرد خبر، واصر على مخاطبة رئيسه بلهجة مطمئنة :« لا مجال لرفض التعديلات، وسترى ان الاخوان يتحدثون عن الصيغ القديمة .»

كان طارق عزيز صامتا ساهم النظرات، كان فيما يبدو متوقعاً هذا الرفض الذي يعني بكل بساطة استحالة وقف الاندفاع الجنوني نحو الحرب البرية . بعد دقائق قليلة، دخل احد موظفي السفارة العراقية بموسكو حاملاً ورقة صغيرة، قدمها لوزير الخارجية، وبعد ان قرأها اعلن لنا : « صحيح ما تقولونه، لقد رفضوا الصيغة الاخيرة » .

كانت لعبة الصيغ والتعديلات، تأخذ مداها بل وراحتها في التسكع بين موسكو، وواشنطن. موسكو تقترح وواشنطن تجد ثغرة تنفذ منها الى التحفظ. تبادر موسكوعلى الفور الى سد الثغرة لتعود واشنطن الى اثارة أمر آخر. وهكذا كانت لعبة مسلية لأولئك الذين يديرون الأزمة في واشنطن، اما في موسكو فقد كانت مصيرية على صعيد اختبار الاوزان بالنسبة للقيادة السوفياتية، ومصيرية ايضا على صعيد الانعطاف الجديد المرتقب نحو الفصل الاخير من فصول الازمة .

تحدث طارق عزيز باقتضاب مشحون بالتأثر عن شراسة القصف الامريكي مستخدما عبارة « الغاشم اكثر من كل التوقعات»،وكانت كلمات « استحالة الركوع والاستسلام » تنز من بين اسنانه المطبقة مكتظة بالانفعالات الحارة .

اذن ما العمل ؟! كانت نظراتنا الحائرة تبدو كما لو اننا جميعاً ننقب في جيوبنا عن ورقة ما غائرة في الثنايا كي نشدها ونحن في هذه البقعة النائية عن أرض العراق .

– « سيدي الوزير هل تأذن لي باقتراح،دعني اجري اتصالا مع أبو عمار في تونس، اعرض عليه فكرة تحريك الجزائر والمغرب وآخرين في جهد اخير مع البيت الابيض، دعنا نحاول فتح قناة موازية للقناة السوفيتية « لعل وعسى .»

تم استحسان الفكرة من قبل الجميع، لم يكن الامر متعلقا باكتشاف حل سحري، انما لان الوضع النفسي، آنذاك، كان جاهزاً للترحيب باية فكرة. طلبت المغادرة لتأمين الاتصال .

كان الشعور بكارثة قادمة يلقي بظلاله الكئيبة على روحنا، وكان يقيننا الاعمق بلا جدوى اي شيء يخلق فينا شعوراً بالحزن والمرارة. كنا بحاجة للالتصاق الانساني، لتوفير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعض الطمأنينة،لذا اقترح ياسر عبدربه أن نجري الاتصال من الغرفة المجاورة، كان حريصا فيما يبدو على ان لا يغادر غرفة الالم اي واحد منا .

توجهت الى شقتي. لم تكن بعيدة عن تلال لينين، اجريت اتصالا مع الرئيس عرفات. كان قد مضى على مغادرتي تلال لينين، زهاء ساعة،وحين كنت اتحدث اليه، راودني احساس بسذاجة الاقتراح، واكتشفت لحظتها أن للمناخ النفسي سطوة هائلة على العقل، انه يعطله تماما، او انه يدفعه الى شطحات غير معقولة. مع ذلك طلب مني الرئيس الفلسطيني ان ابلغ ابو زياد تحياته وامنياته بالتوفيق، ووعد ان لا يضيع لحظة واحدة لاتمام امر الاتصال بمن يستطيع من زعماء العرب .

كان ميخائيل غورباتشوف ينتظر في الكرملين رد بغداد على تعديل جديد أغلب الظن انه يتعلق بمفردة واحدة تخص التزام العراق بكافة القرارات الدولية . وكان طارق عزيز المكبل بقيود الاعتبارات البغدادية الصارمة، في اتخاذ القرار قد وجد في موسكو قيدا آخر هو انعدام الاتصال مع بغداد،ذلك الى جانب تنامي اليقين لديه بأن وساطة موسكو قليلة الفاعلية في الاتجاه المنشود. عند الثانية صباحا اتصل بي الزميل غافل حسين سفير العراق في موسكو طالبا مني باسم السيد طارق عزيز ابلاغ الاخوة أبو مازن وياسر عبدربه ان موافقة بغداد على التعديل الاخير قد وصلت، وانهم يفتشون عن مسؤول سوفيتي لتلقي الموافقة .

في اليوم التالي اعلن طارق عزيز كل ما طلب منه اعلانه في موسكو، وبعد ساعات قليلة، اعلنت واشنطن ان الرئيس بوش اصدر اوامره ببدء الهجوم البري .

ذات مساء، كنت اتناول طعام العشاء مع صديقي طاهر العدوان الكاتب الصحفي والسياسي الاردني المرموق، وابن عمه الدكتور محمد العدوان سفير الاردن في موسكو الذي يعمل لحظة كتابة هذه السطور رئيساً للتشريفات الملكية في الأردن .

كان ذلك اثناء الحرب، وعلى احدى الطاولات الصغيرة في مطعم أردني يقع في احدى ضواحي موسكو الغربية .

حين يلتقي الاردني بالفلسطيني في الغربة يكتشفان كل الروابط التي تشد بعضهما إلى بعض، اما حين يلتقيان في عمان فانهما احيانا يكتشفان امورا اخرى .

كنا نشترك في احساس مؤرق بالخطر. ان العراق بالنسبة لكلينا عزيز، وعلى نحو عميق، اما الثمن الذي ينتظرنا لقاء مواقفنا فقد كان مجرد التفكير فيه يثير الرعب .

لم يكن يشاركنا الطاولة الصغيرة احد آخر، وفي ركن آخر، كانت طاولة مستطيلة تلاصق البقعة المخصصة للغناء والرقص مليئة بما لذّ وطاب من الطعام والشراب والحسان، تنتصب على امتداد اكثر من ستة امتار، يتحلق حولها حشد من الرجال والنساء .

تقدم مني احد الدبلوماسيين العرب، وكان مخمورا الى اقصى حد، سألني :

« اريد ان اعرف هل انت سفير فلسطين ام وزير اعلام العراق » .

اجبته بكل ما أوتيت من قدرة على الهدوء:

— « انا سفير فلسطين » .

—« اذن لماذا تعقد المؤتمر الصحفي تلو الآخر للدفاع عن موقف العراق »؟!

أجبته :

— « ان نشاطي الصحفي هنا غير مكرس للدفاع عن العراق »؟!

قال :

— « هذا غير صحيح » .

قلت: « صديقي العزيز، لقد قدمت من تلك الطاولة العامرة بالمتعة، وجذبت كرسيا وجلست، وبحكم تقاليدنا العربية تغاضينا عن العرف البروتوكولي، ورحبنا بك، لا أريد ان اطيل النقاش معك ولكن اود ان تجيبني على سؤال :

— هل توجد في حياتك دائما طاولتان؟! واحدة للمتعة، واخرى للنكد، واحدة للخمر واخرى للأمر، دعنا في حالنا وعد من حيث اتيت »، كان طردا مهذبا الى حد ما .

نعم، طيلة الأزمة قمت بعقد العديد من الندوات والمؤتمرات الصحفية، واجريت اتصالات مكثفة مع كل من كان اجتهادي المتواضع يرى فيه بابا أو مفتاحاً او اي شيء مؤثر .

ان اشياء كثيرة وعميقة كانت تدفعني لمضاعفة عملي في هذه الساحة، واكثر هذه الاشياء صدقا وعمقا هي فلسطين، كنت شديد الخوف عليها في اتون الاحتدام الجهنمي للاحداث من حولها. وفي ازمة من هذا النوع فاننا، حكما، نخاف على اغلى الاشياء في حياتنا، كانت معالجتي وزملائي اعضاء السفارة للأزمة تنطلق ،على الدوام، من الحرص

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاكيد على ضرورة تفادي الحرب. كان كل يوم ينقضي يضاعف في تصوري حجم الدمار الذي سيحل بالعراق، اذ اننا - كنا عن بعد - نرى الامور بقدر اكثر من التجرد الممنوح في عمان مثلا . ان اذى تدمير العراق ليس بحاجة الى اشهار او ايراد قرائن. غير اني هنا اسجل انفعالات شخصية شاركني فيها آنذاك كل من في داخله قلب عربي ينبض. كان تدمير العراق يعني ببساطة تدمير فصل جبار من فصول اعادة بناء هذا البلد الذي انهكته حرب ضروس مع ايران .

كنت كثير التردد على بغداد، وكنت بالطبع ولا ازال احمل لها في داخلي اعمق الحب، وفي مخيلتي اجمل الصور، وكان بديهيا ان تزداد الصورة قتامة كلما اعلن عن وصول قوات جديدة الى الصحراء، او ادخال تكنولوجيا جديدة للتجربة الميدانية في بغداد.

ان شيئا كهذا حدث معي في بيروت، غير ان الذي يحدث مع بغداد كان فيه الم من نوع خاص يتولد غالبا عن كونك بعيدا عن ان ترى الامور على حقيقتها، اي انك بلا شك لا بد ان تعيش تحت كابوس التخيلات المؤرقة .

« على من نضع اللوم ؟ »، هذا سؤال لم يكن طرحه في ذلك الوقت على الذات، او على الآخرين مفيدا في اي اتجاه .

بوسعنا القول بعد سنوات من انتهاء حقبة الحرب ان الخطأ الاول ارتكب حين سمح بتطور الازمة الاخوية بشأن اسعار النفط وكمية الانتاج. ما كا يجب لامر كهذا ان لا يجد حلا، او على الاقل، كان ينبغي ان ينصرف الحريصون على مصالح بلادهم الى سد الثغرات التي لا بد ان ينفذ منها المتربصون لدفع الامور الى مزيد من التصعيد .

مع ذلك ما كان مقبولا ان ينفذ اجتياح عسكري عراقي للكويت، حتى لو كان لدى القيادة العراقية يقين بأن المؤامرة قد وضعت وانها قيد التنفيذ، فان الاجتياح لم يكن يشكل عملا وقائيا مضمونا لتفادي المؤامرة، او اياً من سيناريوهاتها التي جرى الحديث عنها أنذاك . لقد وجد قوة عملاقة نجحت في جعله مصيدة وقع فيها الجيش العراقي، وبعد ذلك توالت الاخطاء من قبل جميع الاطراف لتصل الامور الى ما وصلت اليه. لم يكن الامريكيون وحدهم من حوّل الاجتياح العراقي الى مصيدة، بل هناك من التقط خيوط الازمة وراح ينسج منها الاثواب التي تلائمه غير آبه بالمضاعفات متوسطة المدى وبعيدة المدى. وأذى هذا النوع من القوى يتأتى من خلال طريقة استخدام الازمة من الجانبين، من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هم ضد العراق ومن هم معه، ولا شك ان أزمة في قلب حقول النفط وحول المال، تغري الجميع على الافادة منها، وغالبا ما تعمي الجميع عن رؤية موضوعية متجردة لما بعدها .

من كانوا ضد العراق، قرأوا مصالحهم الآنية وفق الحروف المكتوبة امريكيا، والامريكيون يتصرفون غالبا حيال الازمات بمنطقهم الخاص، منطق السرعة في التقاط المسدس، واطلاق النار على الهدف، فإن أصابوا حققوا نجاحا يشربون نخبه على نحو صاخب، وان لم يصيبوا فلدى الدولة العظمى من القدرات والامكانات ما يؤهلها لتجاوز الفشل، والبحث عن نجاح آخر. وقد نجح صاحب هذا المنطق في قيادة العالم أثناء الازمة وجر وراءه قوى كبرى وجدت نفسها متورطة في حرب ما كانت ترغب الانجرار اليها لو لم يكن التأثير الامريكي طاغيا، ما عدا بريطانيا. كان من الصعب ايجاد دولة أوروبية يمكن ان تشارك في حرب لمعالجة خطر يلحق بمصالحها، ناهيك عن التردد الياباني والالماني الذي جاهد اصحابه لجعل تورطهم في الحرب ضمن الحدود الدنيا للمشاركة .

كان الفريق الغربي في جهة الاحتشاد مدفوعاً الى الحرب بحكم الشروط الامريكية الصارمة لتوزيع الحصص القادمة. لا احد يأخذ دون ان يضع اسهما في شركة الحرب، حتى وهم يشاركون كانت مخاوفهم من احتمال الحصول على مجرد حصة متواضعة تبدو واضحة تماما .

والعرب والمسلمون، حيث اتحدت معظمهم دولهم في الائتلاف، ظهرت تلك المفارقة المذهلة، كانوا ثانويين في امر يخص بلادهم، لم يخل الامر من بعض المكاسب، غير ان الافق الاستراتيجي كان لغيرهم والتاريخ وحده سيحكم على النتائج النهائية لذلك الذي حدث .

أما جبهة القوى المتعاطفة مع العراق، فقد كانت في واقع الامر عبئا وليست مجالا حيويا. دعونا نسأل انفسنا السؤال التالي : « ماذا كان باستطاعتهم عمله من اجل العراق ». كان مندوب اليمن لدى مجلس الامن يجاهد من اجل وضع فاصلة بين جملتين، أو بتأجيل البت في امر اصدار قرار جديد لبضع ساعات . وكان ياسر عرفات يحط في مطار ليقلع الى آخر دون ان يفتح في وجهه مطار واحد من تلك التي تخص دولا ذات نفوذ جدي او شبه جدي في الازمة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الافق الاستراتيجي كان لغيرهم والتاريخ وحده سيحكم على النتائج النهائية لذلك الذي حدث .

أما جبهة القوى المتعاطفة مع العراق، فقد كانت في واقع الامر عبثا وليست مجالا حيويا. دعونا نسأل انفسنا السؤال التالي : « ماذا كان باستطاعتهم عمله من اجل العراق ». كان مندوب اليمن لدى مجلس الامن يجاهد من اجل وضع فاصلة بين جملتين، أو بتأجيل البت في امر اصدار قرار جديد لبضع ساعات . وكان ياسر عرفات يحط في مطار ليقلع الى آخر دون ان يفتح في وجهه مطار واحد من تلك التي تخص دولا ذات نفوذ جدي او شبه جدي في الازمة .

والملك حسين الرجل الذي يعرف الغرب جيداً كم كان اساسيا في معادلة استقرار المنطقة ، يرى الهوامش امامه تضيق وتضيق، ولا يتسع من حوله سوى بحر الجماهير المتلاطم الذي يمنح الحب والحماس، ولكنه في نفس الوقت يراكم ديونا هيهات ان تسدد .

كانت الشعوب العربية والاسلامية تتظاهر بالملايين ، وحين سقطت الصواريخ على اسرائيل اتسعت مساحات المتظاهرين غير ان ذلك كه لم يكن في جوهر الامر سوى اسيجة محكمة تحاصرصانع القرار العراقي، وتضيق هامش المناورة عليه. ان طلبات الجماهير كثيرة ،ويتعين على العراق ان لم يلبها فعلى الاقل ان لا يخذلها . والخذلان هنا يمكن استنباطه من مجرد مرونة اللغة ، لقد واجه العراق حالة موضوعية فريدة من نوعها، من هم ضده في أقصى الفاعلية، ومن هم معه خارج الملعب تماما . اما التاريخ الذي كان الاعلام العراقي يحاوره دون توقف فقد كان قابلا لشيء واحد . . . « كتابة الخلاصات الحقيقية للاحداث ».

ما إن وضعت حرب الخليج أوزارها حتى شرعت واشنطن بإرسال إشاراتها إلى أطراف النزاع العربي الاسرائيلي بأن يكونوا على استعداد لفتح ملف قضيتهم المزمنة في تلك الاثناء ، وتحدث الرئيس الفرنسي ميتران عن ضرورة الشروع الفوري بالعمل من اجل قضية الشرق الأوسط .

انصرف اهتمام القوى المعنية نحو هذه التطورات الجديدة بينما كان العراق يدخل مرحلة جديدة من مراحل الصراع المرير ضد العالم الامريكي الجديد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت ازمة الخليج عاملا محرضا لبدء جهود جدية نحو التسوية الشرق اوسطية ، فقد ظهرت الحاجة الملحة هذه إلى التسوية بذات القدر من ظهور الحاجة الى استقرار في اهم بقعة جغرافية تلتقي على ارضها مصالح الغرب ومصادر طاقته .

كانت الاستماتة الامريكية لتفادي الترابط بين أزمة الخليج وأزمة الشرق الاوسط تخفي تحت قشرتها السميكة يقينا امريكيا لا يتزعزع بعمق الترابط، واستحالة فصل العناصر المتداخلة، المكونة لشبكة الازمة الشرق اوسطية. كان لا بد للمهندس الامريكي من الاوسطية بجناحيها الخليجي والفلسطيني.

القيام بفصل مؤقت ، ولمدى زمني لا يتجاوز المدى المطلوب لاخراج العراق من الكويت وتدمير قوته العسكرية. ان فصلا كهذا كان ضروريا من اجل ابعاد احتمال اندماج القضيتين في مجرى واحد، على نحو يجعل الحل العاجل مستحيلا ، فضلا عن احتمال خلط الاوراق على نحو يظهر البعد الأسرائيلي في الأزمة، مما يؤثر حتما على صيغة الاحتشاد الدولي الذي يشكل العرب احد فصائله الضرورية. كانت معالجة الازمة الخليجية باختلاق انفصال مؤقت بينها وبين ازمة الشرق الاوسط اشبه بالمشي على حبل دقيق ، لا يحتمل خطأ ولو صغيرا، ويحتاج الى قدرة خارقة على التوازن.

لا شك في ان الأمريكيين ادوا هذا الجانب الدقيق من اللعبة بكفاءة عالية ، ولم يأبهوا بالأثمان السياسية والمادية التي دفعت بسخاء لرمز الربط أو الانفصال الرئيس الا وهو اسرائيل .

لقد امكن للادارة الامريكية تفادي الوقوع في الكمين الذي نصبته لهم صواريخ صدام حسين، حين تساقطت على المدن الاسرائيلية، كما امكن لهم في ذات الوقت استغلال الخطأ الفادح الذي وقع فيه العراق حين وضع الرياض، وتل أبيب، على قدم المساواة في أهداف القصف الصاروخي . لقد تم تجاوز هذا العمل النوعي لجعل الربط مسألة واقعية غير ان هذا التجاوز لا يمكن أن يستمر مفعوله إلى الأبد .

أما فيما يخص الفلسطينيين فقد سجل العالم عليهم تعاطفا شعبياً ورسميا مع العراق ، ويسمح بالاقتصاص منهم ، أولاً بالتغاضي عن تهجير مئات الألوف منهم عن أرض الكويت وثانياً بفرض حصار سياسي على منظمة التحرير، وثالثا باخراج الفلسطينيين من قائمة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المتضررين من الحرب وحرمانهم من أبسط حقوق التعويض مع أنهم اكثر المتضررين على الاطلاق .

لقد خرج الفلسطينيون من أزمة الخليج منهكي القوى على الصعيدين الرسمي والشعبي، لقد واجهوا نكبة جديدة توازي في العديد من جوانبها نكبات ١٩٤٨، ١٩٦٧، ١٩٨٢....

إن مئات الالوف من الذين ساهموا في بناء الكويت يطردون إلى أي مكان بتهمة التعامل مع (المحتلين) ، إنها تهمة مخجلة حقاً ، ومبعث حزن عميق للروح ، انها في الحقيقة غير صحيحة .

لقد تولت آلة دعائية هائلة تصوير الفلسطينيين في الكويت على هذا النحو، وجرى اختراع قرائن ساذجة من نوع أن الفلسطينيين كانوا يدلون العراقيين على مواقع المقاومة أو إلى أهداف خفيّة .

إن العراقيين ذوي الحلم الدائم باستعادة الكويت ذا ويؤمنون بأنها جزء من أرضهم ، لم يكونوا بحاجة لخدمات من هذا النوع ، ناهيك عن أن الفلسطينيين وبشهادة الكويتيين الذين بقوا في بلادهم أدوا خدمات جليلة لمضيفيهم الصامدين .

لست هنا في معرض الحديث عن هذا الجانب من جوانب الأزمة الخليجية، وإنما أشرت إليها في سياق إظهار الأذى الذي لحق بالفلسطينيين جرائها .

حين انتهت الحرب ، كان وضع القوى المرشحة للتفاوض على النحو التالي : -

- الاسرائيليون ، يقع قرارهم السياسي في قبضة حكومة يمينية تراودها أحلام فرض الأمر الواقع المتكرس منذ حرب ١٩٦٧ كوضع نهائي للمناطق المحتلة مع استعداد غامض لتقديم بعض التنازلات الشكلية تحت سقف « حكم ذاتي » يخص السكان، ولا يمس أرض اسرائيل. كانت رؤية الحكومة اليمينية للحاضر والمستقبل محكومة بعقدة أيديولوجية تؤمن بامكانية أو ضرورة الفصل المطلق بين ترتيبات تخص السكان مع عدم المساس بالأرض، وهذه العقدة الأيديولوجية وجدت روافد تمدها بماء جديد ، مثل انهيار الاتحاد السوفياتي الذي كان مصدر السلاح الرئيسي لخصومهم ، فتحول بفعل الانهيار إلى مصدر السلاح البشري لأحلامهم ، اضافة إلى تغيير الخريطة الدولية من حولهم، مما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كسر جوانب هامة من طوق الحصار المفروض عليهم حيث ولدت لاسرائيا
صورتها الراهنة رئات إضافية تتنفس منها في أوروبا الشرقية-حتى الصين الشعبية. ك
أغرى اسرائيل بمزيد من التشدد ، غير ان القادة المحكومين بعقدة « ارض اس
والذين رأوا في التطورات المحيطة بهم مصادر دعم لأفكارهم، وبالذات الاستيطا
تجاهلوا درساً جوهرياً أثبتته حرب الخليج، وهو ذلك الانقلاب الذي حدث على
مكانة اسرائيل الاستراتيجية في أولويات البرامج الاستراتيجية الأمريكية والغربية عمو

لم تعد اسرائيل قدراً استراتيجياً عسكرياً ،بل إنها أصبحت وأثناء الأزمة، عبئاً
جهدا خارقا لاحتوائه، ومنعه من « لخبطة» اللعبة المبرمجة ونسفها من أساسها .

كانت اسرائيل تعيش على مبرر استراتيجي أمريكي غربي ، كرسته الحرب اا
لاعوام طويلة خلت، فجاءت حرب الخليج الساخنة لتضعف هذا المبرر ،غير أن
يعني استخلاص نتائج ساذجة ومبالغ فيها حول وضع اسرائيل الذاتي والدولي والأ
إن فقدانها الدور في حرب الخليج، أو تحول هذا الدور إلى عكس ما كان مطلوبا
ظروف مختلفة لا يعني أنها خرجت من سلم الاولويات الأمريكية والعربية عموماً .

إن لاسرائيل مكانة راسخة في هذا السلم بحكم مكانة الصهيونية العالمية في
السياسية الدولية المعاصرة، وبالذات داخل حصون الولايات المتحدة الأمريكية
عن أن اسرائيل تمتلك مقومات ذاتية تؤهلها للحياة في ظل انخفاض سقف
الاستراتيجي ومع ذلك فإن مؤشر الأوزان الذي يسجل اضافة هنا، ونقصاناً هناك
إلى قراءة واضحة يمكن اختصارها على النحو التالي :

فقدت اسرائيل كثيراً من النقاط مع انتهاء الحرب الباردة . .

أمامها فرص كسب نقاط بديلة مع ولادة الوضع الجديد . .

إن العقلاء وحدهم من يجدوا معادلة المواءمة بين خسارة نقاط جراء وضـ
وكسب بديل عنها في وضع آخر. هذا النوع من العقلاء لم يكن موجوداً في اا
الاسرائيلية ، تلك الحكومة التي كانت ترى كل شيء في العالم يجري في نهر تطلع

وحين أظهرت الحكومة الاسرائيلية بعض الاشارات حول استعدادها للد
عملية سلام مع العرب ، لم يكن ليغيب عن ذهنها تلك المساحة الواسعة التي يـ
التحرك فيها لجعل العملية مجرد محادثات تبدأ ولا تنتهي .

بعد اسرائيل ، يتم التطلع عادة نحو سوريا حيث الدولة التي لعبت على مدى العشرين سنة الماضية أخطر الادوار وأصعب المجازفات من أجل تكريس مكانتها المفصلية على خريطة الجزء المتبقي من عمليةالصراع العربي – الاسرائيلي بعد أن أنجزت مصر اتفاقياتها السلمية مع اسرائيل .

كانت سوريا التي أدارت الأزمة اللبنانية ممسكة بمعظم خيوطها ، ولعبت دوراً عربيا في الحرب الطويلة بين ايران والعراق ، واحتفظت بجسورها مع الولايات المتحدة، واستفادت، على نحو استراتيجي، من جسورها الأقوى مع الاتحاد السوفياتي .

سوريا التي تجاوزت حرباً داخلية مبكرة مع الأصولية الاسلامية ، وابتكرت نوعا من الأصولية العربية – عراقية – مصرية – فلسطينية وحتى مغاربية لتوظيفها في محاولة الدخول إلى القرارات السياسية لهذه الدول والقوى .

سوريا هذه ، وجدت نفسها في حرب الخليج تتخذ موقفاً ووضعاً يتنافى على الأرض مع كل الأصول الفكرية والمبدئية للحزب الحاكم ، إلا أنه وفق الحسابات المجردة كان منطقيا تماماً .

إن كل ما كان يقال عن خطأ وخطر صدام حسين لم يكن في واقع الأمر كافيا لتفسير الصورة السورية في حرب الخليج أمام من يدقق في الشعارات والمنطلقات .

لا أعرف على وجه الدقة ما إذا كانت سوريا قد استفادت كثيرا من وضعها الجديد في الأزمة الخليجية – غير ان الذي بدا محسوما وعلى نحو نهائي – هو الاستعداد السوري للعب لعبة التسوية بعد ان اجتازت اختباراً أمريكياً صعبا، ونالت به درجات ايجابية وفورية ظهرت على الساحة اللبنانية ، ويحق لها أن تتطلع بعد ذلك إلى النوع نفسه من العلامات فيما يخص الجولان .

كانت سوريا متحمسة لبدء عملية السلام ، فلقد كانت الرياح مواتية للاقلاع نحو التسوية، وبعيداً عن مناخات الازدواجية المرهقة في حرب الخليج ،ولبنان المثخن الجراح لا يملك إلا تأبط ذراع الشقيق الأكبر، والذهاب معه إلى حيث المصير الأخوي المشترك.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفلسطينيون والأردنيون . .

كانت الشهور الطويلة التي سبقت الذهاب إلى مدريد بمثابة اختصار نهائي للعبة التنافس على النفوذ بين الدولة الأردنية ومنظمة التحرير الفلسطينية . لقد قام الملك بجهد استثنائي وخطوات في غاية الشجاعة لوضع حد لهذه اللعبة التي لم تحقق شيئا ملموساً سوى الاستنزاف النفسي والسياسي لكلا الطرفين اللذين صدق عليهما المثل القائل « تشاجرا طويلا على سمك البحر أو على الدب قبل اصطياده» .

كان الحسين قد أقدم على خطوة فك الارتباط بين الضفتين وأعلن فتح الباب أمام أي مبادرة فلسطينية نحو التنسيق والتكامل أو حتى الاندماج ، لقد نقل الملك الكرة إلى المرمى الفلسطيني معلنا انه لم يقدم على اية خطوة إلا بناء على طلب تتقدم به منظمة التحرير بوصفها الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني .

إن خطوة الملك هذه أثبتت مفعولها حين صارت عمليةالسلام حقيقة واقعة ، لقد نأى بمملكته عن التعقيدات، وفي نفس الوقت حفظ لهذه المملكة مكانتها البديهية في حل يختاره الفلسطينيون.

كل ذلك يفضي بداهة إلى استنتاج مفاده ان العقدة الداخلية الفلسطينية الأردنية حلت على نحو عملي، وأن الذهاب إلى مدريد أصبح ممكنا وفق صيغة مبتكرة للتمثيل الفلسطيني .

هذه الخلاصات العامة تخفي تحتها ملايين التفاصيل والوقائع ، غير أني آثرت الاختصار كي لا أغادر ضفاف البحيرة السوفياتية التي هي موضوع هذا الكتاب أصلاً .

إن السوفيات الذين أظهروا ارتباكاً واضحاً في معالجة أزمة الخليج لم يظهروا ذا الارتباك ذاته في معالجة مسألة الشرق الأوسط. إنهم ذووخبرة كافية في المنطقة. لقد عملوا فيها طويلاً ، دخلوا وخرجوا وعادوا للدخول من أبواب كانت متاحة ثم أصبحت موصدة لتفتح مرة أخرى. وهكذا كان الشرق الاوسط حلما سوفياتيا دفعوا من اجله الكثير الكثير ، غير أنهم، ومهما ارتفعت صروحهم كانوا في محصلة الأمر يبنون فوق رمال متحركة، ولم يحدث ان تمكنوا من امر شرق اوسطي وفق ما يريدون .

مع ذلك فإن النجاحات الجزئية والخيبات المتتالية يمكن أن تفضي إلى شيء ايجابي واحد ألا وهو ثراء التجربة وصقل الخبرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفيما يخص مسألة الحل والربط فقد كان السوفييت ولأمد طويل قوة اعتراضية قادرة على احباط أي حل دون ان تمتلك في الوقت ذاته القدرة على فرض ما تريد . كانت تمول القدرة العسكرية كوسيلة لمنع الآلة السياسية الأمريكية من العمل ،وكان الأمريكيون فيما يبدو مطمئنين تماما الى ان هذه اللعبة لن تفضي الى نهايات خطرة .

كانت الضربة القاصمة التي وضعت السوفيات خارج الملعب الشرق اوسطي هي تلك التي وجهها لهم الرئيس أنور السادات حين قرر خلط الأوراق والاقدام على مجازفة الصلح مع اسرائيل .

لقد حقق السادات بضربته الماحقة للنفوذ السوفياتي في مصر نقلة نوعية في ميزان القوى الشرق أوسطي بأكمله ، ذلك أن خسارة مصر هي من النوع الذي لا مجال لتعويضه خاصة ان باقي العرب ممن يقيمون صلات جيدة مع موسكو يتخذون من علاقتهم مع الدولة العظمى دعماً ضروريا، ليس من أجل تحيق أحلام مشتركة مع قادة الكرملين ، وإنما من اجل المضي قدماً نحو أحلامهم الخاصة .

كانت حمى الاستقطاب تحمل موسكو على التغاضي عن هذه المسارات غير المنطقية. كانت موسكو تعرف أن العديد من الدول العربية تستلف من الرصيد السوفياتي لتودع السلفة في البنك الامريكي، وفي لعبة من هذا النوع يمكن ان يحصل الطرف العربي على فوائد مزدوجة . أما الطرف السوفياتي فبوسعه الاكتفاء باضفاء ألوان رمادية جديدة على مساحات واسعة من مساحات الصراع الكوني على جغرافيا العالم .

حين جاءت بريسترويكا غورباتشوف حاملة معها وعود التغيير الجوهري في سياسة الدولة العظمى على الصعيد الخارجي، كان الشرق الأوسط يحتل مكانة بارزة في أجندة التغيير، وابتكر له عنوان الحل الوسط التاريخي ، أي التسوية المقبولة من جميع الأطراف دون أن يكون للسوفيات معايير محددة، أما الاداة التي احتلت المكانة الأولى في المعالجة السوفياتية فهي أيضاً خاضعة لاتفاق الأطراف مع أن السوفيات يفضلون المؤتمر الدولي والأمم المتحدة .

بدأت حركة جيمس بيكر إلى الشرق الأوسط تتخذ اتجاهاً ينبيء عن جدية ودأب ظاهرين لنقل تصاميم الخبراء من الورق إلى الأرض . كان تصميم الحل الشرق اوسطي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذي ابتكره المهندسون الأمريكيون قد راعى في صياغاته الأخيرة خلاصة التطورات المستجدة على ساحة الشرق الأوسط ، غير أن الادخال الجوهري الجديد كان متمثلا بالعنصر الفلسطيني حيث أمكن اختراع صيغة الوجود الفعلي للمنظمة، والغياب الشكلي لها في ذات الوقت ، كما جرى ابتكار هيكليةالمشاركة الفلسطينية – الأردنية على نحو يوفر قدراً من مظهرية الاستقلالية الفلسطينية من التأثير المستقل في مجرى المفاوضات ، ومن أجل حماية هذه الصيغة المبتكرة للمشاركة في المفاوضات جرى تعديل الصيغة بفرض مسألة المسارات، والتي جاءت بمثابة الدم الذي يمنح الصيغة بفرض مسألة المسارات، والتي جاءت بمثابة الدم الذي يمنح الصيغة الأردنية الفلسطينية نسغ الحياة .

كانت منظمة التحرير تتابع زيارات جيمس بيكر إلى المنطقة بشغف ودقة متناهيين، كانت حركته على الملعب الفلسطيني تشير على الدوام هواجس القيادة المنفية على بعد أربعة آلاف كيلومتر من المركز الجغرافي للعبة .

وكانت الاضاءة الأمريكية المبهرة على لاعبي الداخل ، تغذي هذه الهواجس، وتدفع بكثيرين إلى منطقة أمان من الأخطار، وأعني بها الدعوة الى إغلاق الملف جملة وتفصيلا تحت مقولات عديدة لم تظهر حديتها على الصعيد العلني (الخوف من بديل الداخل). كان جيمس بيكر الذي يقود عملياً حصاراً سياسيا حول القيادة الفلسطينية في تونس ، يجاهد من اجل تهدئه مخاوف القيادة المحاصرة ليقينه من قدرتها على نسف كل شيء حين يلغ التجاوز « البيكري » حدود التهديد الجدي باخراج منظمة التحرير من اللعبة، لكنه في نفس الوقت كان قد حدد لحركته تجاه منظمة التحرير مساحة شديدة الضيق ولكنها مكتظة بالأعصاب الحساسة، وأعني بها تلك المساحة المتأنية من المعادلة التالية:

كيف يستفيد من المنظمة صاحبة القرار المطلق على الصعيد الفلسطيني لاتمام الجزءالأول من عمليةالسلام ، وفي نفس الوقت يواصل الحصار السياسي عليها في سياق استمرار السيناريو الذي وضع لجر الخليج، والذي كانت فيه المنظمة محاطة بأصابع الاتهام والادانة .

كذلك ، كيف يمنح منظمة التحرير ما تحتاجه من « بريستيج» سياسي ليسهل عليها ممارسةالمرونة في التعامل معه دون ان تجنح الأمور إلى اتجاه يثير حفيظة القيادة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاسرائيلية التي دأبت على وضع جيمس بيكر، وادارته، وتحركاته تحت مجهر مكبر منذ انطلاق الاشارة الأولى نحو عملية السلام .

كان التعامل مع وضع منظمة التحرير في عملية السلام وفق التصميم الهندسي للجزء المتعلق بالبدايات العملية من أصعب المهام التي واجهت الوزير الأمريكي ، غير أنها لم تكن مستحيلة بالطبع .

لقد أدى بيكر لعبة توازن أظهرت براعته كمهندس ميداني قليل الأخطاء . كان في إغداقه المعنوي على لاعبي الداخل لا يغفل احتمالات رود الفعل السلبية من قبل لاعبي الخارج ، فأقدم على عملية توزيع الحصص متفاديا دفع القيادة في تونس إلي الشعور بالظلم والتجاوز.

كان بيكر قد اسند مهمة مخاطبة تونس الى شريكه السوفياتي فكثرت حركة المبعوثين بين موسكو وتونس. كان الخط الفلسطيني بمثابة رئة ضرورية يتنفس منها السوفياتي المتعب ،ويعمل من خلالها الفلسطيني المبعد عن دائرة الكاميرا. كان خطاً ضرورياً للمنظمة وللسوفيات في ذات الوقت ، غير أن مجاله الحيوي أخذ بالانحسار ذلك بحكم تفاقم الأزمات في قلب الدولة العظمى وتراجع النفوذ إلى أضيق نطاق ممكن .

مع ذلك كان الأمريكيون شديدي الحرص على تجاهل تناقص الوزن المتسارع لدى الشريك المعين، فحرصوا على التعامل معه كشريك فعلي ، لقد أعلنا معاً كلمة السر الأولى التي أذنت ببدء مسيرة السلام، وتشاور خبراؤهم كثيرا حول الصياغات الأخيرة للأسس والآفاق ، وأظهر الخبراء السوفيات أنهم لا يقلون دراية في شؤون الشرق الأوسط ومداخل التسوية فيه ومخارجها عن نظرائهم الأمريكيين مع فارق كبير في الشهرة بالطبع .

كانت ادارة غورباتشوف قد اختارت شخصية كفوءة لتبوء مركز القيادة الدبلوماسية السوفياتية، هو السيد الكسندر بسميرتنخ، ذلك عقب الأستقالة الدرامية للوزير الأشهر ادوارد شيفرنادزه . وكانت علاقات بسميرتنخ بالفلسطينيين قد توثقت على مدى السنة التي تولى فيها منصب نائب وزير الخارجية اثر انتداب يولي فورونتسوف إلى مهمته الأصعب كسفير في أفغانستان. لقد التقينا به مرات عدة كانت كافية لمد الجسور، وتبادل المعلومات على أوسع نطاق . كان أول لقاء رسمي أجراه مع أطراف شرق أوسطية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قد تم مع السيد محمود عباس (أبو مازن) في موسكو ، وكان دمثا ومتواضعاً إلى أبعد حد حين قال : « إنني جديد في منصبي كنائب وزير كلفت بمتابعة شؤون الشرق الأوسط، وسأحرص على التعلم والاستفادة قدر الامكان .»

لم يكن تواضع المسؤول الجديد مفتعلاً، ذلك ان مسيرته في وزارة الخارجية تؤكد ابتعاده عن تفاصيل الشرق الأوسط، وفي الشرق الأوسط مثل أي مكان حساس يعتبر الالمام بالتفاصيل هو الشرط الحيوي لأداء دور سياسي فعال .

وحدثت بعد ذلك لقاءات عديدة في موسكو، وكنت الاحظ في كل لقاء مدى قدرة الرجل على التقاط الخيوط ونسجها في تحليل محكم ، لقد كان دبلوماسياً ماهراً ومؤهلا، والأهم من ذلك، عصرياً وليبرالياً في التعاطي مع التطورات ، وهنا أدخل إلى السياق حكايتنا معه في مرحلة الاعداد للحوار الفلسطيني الأمريكي .

كانت العلاقة التنسيقية بيننا وبين الجانب السوفياتي دقيقة ومنتظمة ومواظبة. كنا نتجاهل – ولهدف بناء – تلك العواصف الداخلية الهائجة داخل الدولة العظمى ، ونتجاهل بالطبع النتيجة المنطقية للصراع الداخلي على صعيد إضعاف اهتمام وتأثير هذه الدولة في القضايا الخارجية ، ونصر على التعامل معها كدولة عظمى ذي موقع شرعي وحقيقي في عملية السلام، وعلى نحو ما في تقرير مصائر مناطق معينة في العالم .

كنا نحصل منهم على معلومات قيمة ساعدتنا كثيراً على توضيح الرؤيا أمامنا ، كما كنا في الوقت ذاته نزودهم بمعلومات حيوية تثري دورهم الميداني وتعطيه بعض النكهة المميزة في هذا السياق ، وحين بدأت الاتصالات الأمريكية الفلسطينية عبر الوسيط ، وتم الاتفاق على نحو أولي على إتمام صفقة سياسية مع واشنطن تتضمن اعلانا فلسطينيا اكثر وضوحا تجاه الشروط الأمريكية لبدء الحوار، كان لا بد من التشاور مع الطرف السوفياتي قبل قول الكلمة الأخيرة في هذا الشأن . طلب إلي الرئيس ياسر عرفات الحضور إلى تونس وعرفت في تلك الأثناء بأن الحماس الفلسطيني لبدء الحوار مع الأمريكيين، كتطور نوعي، يدخل إلى السياق الرتيب في معادلة التسوية ، قد ألغى في حقيقة الأمر كثيرا من التحفظات المألوفة حيال أمر كهذا خاصة إذا لم يكن قيد الانجاز. إن التشدد الفلسطيني أو التحفظ الفلسطيني يبدو لي في غالب الأحيان متعلقاً بجدية الصفقة وليس بمحتواها، حين تكون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصفقة جدية تزدهر المواهب الفلسطينية تحت عنوان المرونة المسؤولة ، وحين تكون صفقة قليلة الحظ من التطبيق العملي تزدهر اللغة الفلسطينية المعدة لمناسبات من هذا النوع، وهي لغة في معظم مفرداتها وتراكيبها شديدة العناد وقاطعة الرفض .

إن المعيار الأدمي لهذه المعادلة هو ياسر عرفات المرن إلى أقصى الحدود حين يكون اللعب جدياً ، والمتشنج إلى حد الافراط حين يكون الأمر عكس ذلك ، ومن وجهة نظري الشخصية فهذا هو السلوك الأفضل للتعامل مع السوق السياسية . . .

كان الحوار الفلسطيني في تونس يتخذ منحى شديد العقلانية. لقد تبارى الفلسطينيون في إظهار المزايا التاريخية والواقعية للحوار المباشر مع الادارة الامريكية. لم يبق أحد من ذلك الرعيل السياسي الذي أمل في يوم ما بهزيمة الولايات المتحدة أمام صلابة المناضلين من أجل الحرية المتكئين على جدار الكرملين الصعب . كان الجميع قد أشهر تراكمات العقل الباطن وأظهرها إلى العلن ، أي ان الحماس « المحلي » للحوار مع الأمريكيين جاء بمثابة افراج عن يقين داخلي كان الكثيرون منا يخبئونه في أعماقهم بأن واشنطن لم تكن حاملة مفتاح الحل والربط في منطقتنا فهي على الأقل الطرف الأكثر قدرة على إدارته بالاتجاه الفعال .

لم يجد ياسر عرفات صعوبة تذكر في إقناع قيادته (!) بقبول الصفقة ، وحصل من هذه القيادة، وإن بصعوبة توازي صعوبة ارتشاف كأس من الشاي الساخن، على تفويض بالحركة، وهنا كان لا بد من جولة عربية ومشاورات عالمية واسعة النطاق .

- الجولة العربية ، كانت من نصيب عرفات في الحركة . . .
- والاتصالات الدولية من نصيب الاخوة أعضاء القيادة ...
- والاتصال بالسوفيات ، كان من نصيب محمود عباس أبو مازن .

انطلقت وفود الفلسطينيين في كل اتجاه ، وحلقت طائرة عرفات في الفضاءات العربية المفتوحة . . (اذ لم تكن انذاك قد تلبدت الغيوم السوداء المنطلقة من النار المشتعلة في الخليج) . كان في ذهن عرفات الحصول على غطاء عربي شامل للشق الثاني من معادلة الحوار مع الولايات المتحدة ، ألا وهو الشروط السياسية المطلوبة، وأهمها بالطبع اشارة أكثر وضوحاً نحو الاعتراف بحق جميع دول المنطقة في العيش بسلام، وضمن حدود آمنة ومعترف بها ... الخ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان ياسر عرفات حريصاً على أن يشرك العرب فقط في قفزة من هذا النوع، بل والعالم أيضاً. إن ياسر عرفات ما كان يجد نفسه مضطراً لتأليف جبهة عربية وعالمية لتمرير بديهية سياسية . إن المواقف التي تبدو بديهية وفق ميزان اللحظة التي تعيش تبدو مغامرة قاتلة وفق موازين الاصولية اليسارية التي لم تنته بعد في ساحتنا ، كان عرفات يطير من مطار ليحط في مطار آخر ونحن في طريقنا إلى موسكو حيث جرى ترتيب لقاء مع بسميرتنخ في العاشرة من صباح الأحد ، أي أن اللقاء كان اضطرارياً اذ أن أبواب المبنى الضخم لا تفتح يوم العطلة إلا لأمر من هذا النوع .

في جو صامت ، قطعنا الردهة الفسيحة المفضية إلى المصعد ، كان يرافقنا آنذاك هينادي تراسوف ، وحين التقينا النائب الأول لوزير الخارجية أمكن لنا عرض ما لدينا، والاستماع إلى ما لديهم خلال فترة زمنية لا تزيد عن نصف الساعة. كان الدبلوماسيون السوفيات قد تحرروا من المقدمات الانشائية المطولة المقررة في عرضهم لمواقف دولتهم، قال لنا بسميرتنخ :

« اكملوا الصفقة ، ان مزايا الاعتراف الامريكي بكم أهم بكثير من تلك البؤر التي ترونها خطرة.إن الصيغة المعروضة عليكم فيها أبواب كثيرة باستطاعتكم الدخول منها إلى تطوير مطالبكم ، وفيما يخص الضمانات ، فأعتقد انه من الصعب الحصول عليها بالطريقة التي تريدون ، لكن لو حدث وتراجع الأمريكيون، عن تعهد ما، فذلك لن يمنعكم من التراجع عن الصفقة بكاملها، وهنا أنصح بجعل الوسيط السويدي شاهداً حياً على مواقفكم ومواقف الأمريكيين، وسيكون لكلمته وزن كبير حال احتدام الخلاف حول الصيغ وتطبيقاتها. إننا نبارك الحوار الفلسطيني – الأمريكي ونراه ضرورياً من أجل البدء بمسيرة السلام ولو أنه جاء متأخراً » .

طلب إلي أبو مازن التوجه إلى تونس لنقل الرد السوفياتي ، وهناك وجدت الرئيس عرفات قد أعد المسرح لمناورةالساعة الأخيرة. كانت القيادة الفلسطينية قد أسندت دوراً سياسياً للشاعر الفلسطيني المرهف محمود درويش. كان دوراً صعباً وأنيقاً في ذات الوقت، المكوث في ستوكهولم بقرب وزير الخارجية السويدي ستيف اندرسون وتزويده أولا بأول بمؤشرات ميزان الحرارة الفلسطيني . كان لدى الشاعر السياسي جواب فلسطيني مشجع ، وبكل الأناقة السويدية والولع الفلسطيني بمجاكاتها ، جرى في مكتب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوزير احتفال لطيف فتحت فيه زجاجة شمبانيا تقاسم شربها الوزير والشاعر. لقد شرب السويدي نخب الصدفةالتي منحته دوراً مرموقا في أخطر العمليات السياسية المعاصرة « حل أزمةالشرق الأوسط» ، اما الشاعر فقد كانت دوافعه للشرب لا تحصى .

لم يكن محمود درويش – على ما أظن – يراوده اي شك في أن « اقداح الراح» قد تذهب سدى، أو قد يفسد مذاقها في الذاكرة بفعل ما سيأتي من تونس من اخبار جديدة مفادها ان الفلسطينين أدخلوا تعديلات جديدة على بنود الصفقة ستجعلها حتما عديمة الجدوى .

التقيت برئيسي الأعلى في منزل العميد أبو المعتصم (صار لواء) ، كان قد وصل لتوه من اخر محطة عربية في جولته الشاملة ، وكان عضو اللجنة التنفيذية ياسر عبدربه إلى جانبه، وكذلك السيد عبدالله الحوراني الذي كان قد كلف بمتابعة مهمة محمود درويش في ستوكهولم. قدم الحوراني عرضه الايجابي، ونقل ما عرف به من أخبار حول فرح وزير خارجية السويد بالقرار الفلسطيني الشجاع والمسؤول ، وبعده واحتراما للاصول البروتوكولية أذن لي بالحديث ، فعرضت على الرئيس ما حدث معنا في موسكو .

إن لي خبرة ما في قراءة ملامح ياسر عرفات ، ويبدو لي على الأقل أنها خبرة معقولة إلى حد ما ، ودون ان ينطق الرئيس بكلمة واحدة عرفت بأنه « غير موقفه » .

كانت ترتيبات اخراج الصفقة قد استقرت على النحو التالي :

يعلن عرفات في خطابه امام الجمعية العامة للأمم المتحدة في جنيف موقفاً سياسياً محدداً بالنص وفق رسالة تسلمها عرفات من شولتز عبر الوسيط السويدي، وفورا وربما قبل انهاء الخطاب تعلن الادارة الأمريكية عن استعدادها لبدء الحوار السياسي مع منظمة التحرير في تونس . لم يبق على الوقت المحدد لاعلانه سوى ساعات قليلة ، طلبنا من الرئيس أن يطلعنا على نص الخطاب الذي سيلقيه في جنيف غداً ، وحين قرأناه لم نجد النص المطلوب، أين هو إذن ؟ .

تولى السيد عبدالله الحوراني المهمةالصعبة أي الدخول على خط المناورة الأخيرة لعرفات. حاول الرئيس اقناعنا بأنه وضع النص المطلوب، ولكن لغة جديدة وفي أماكن متفرقة من الخطاب غير أننا لم نقتنع ، وأبلغنا الرئيس بأن الرد الأمريكي سيكون سلبياً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم يستمع عرفات إلى ملاحظات وزيره ، بل إنه كان يرد عليها بمنتهى القسوة والحسم ، فانتهت الجلسة .

وبالفعل كان الرد الأمريكي على خطاب عرفات سلبيا ثم ما لبث أن تحول إلى إيجابي بعد ساعات حيث أعلن عرفات ما كان مطلوباً منه في مؤتمر صحفي. كانت مناورة الساعة الأخيرة مفيدة على نحو ما ، هكذا قال الرئيس في إحدى جلساته، ولم يتسنَ لي آنذاك التوسع في فضول معرفة . . كيف!!

معذرة على الاسهاب في سرد واقعة حدثت في وقت مبكر غير أنها كانت ذات شأن في الطريق إلى مدريد، وذات مغزى في إظهار صورة جديدة للدبلوماسية السوفياتية «البراغماتية» الاكتفاء بالملاحظات الفنية واقتراح صيغ عملية لتفادي المأزق، أو لتجاوزها حال ظهورها .

حين أطاحت العاصفة السوفياتية بوزير الخارجية ادوارد شيفرنادزه تردد في الأوساط السياسية الموسكوفية اسمان لخلافته ، الأول كان يولي فورنتسوف الذي يعمل ممثلا للاتحاد السوفياتي لدى الأمم المتحدة ، والثاني الكسندر بسميرتنخ. إن الاثنين يتمتعان بمزايا تؤهلهما لقيادة وزارة خارجية الدولة العظمى بكفاءة وإقناع. كان الأول وزيراً ميدانيا حيث كان عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، ونائباً أول لوزير الخارجية ، أما الثاني وهو الكسندر بسميرتنخ ، فقد كان رئيسا لدائرة امريكا في وزارة الخارجية، ثم سفيراً في واشنطن. لقد وقع الاختيار أخيراً على بسميرتنخ فحظيت وزارة خارجية الدولة العظمى بوزير يجيد المهنة بعد أن تعاقب عليها لفترة طويلة زعماء مثل غروميكو عضو المكتب السياسي، وشيفرنادزه الذراع الأيمن لسيد البريسترويكا ميخائيل غورباتشوف.

حين تسلم بسميرتنخ مهامه كوزير للخارجية كانت تحركات جيمس بيكر قد اثمرت اقترابا حقيقياً نحو عقد مؤتمر السلام، ووجدت الدوائر الخارجية السوفياتية أنه من الضروري القيام بنشاط على أعلى مستوى لتأمين مصداقية كافية للوضع السوفياتي في العملية كشريك في رعاية المؤتمر. وجرى تنظيم زيارة يقوم بها الوزير الجديد إلى المنطقة. كان التنسيق ، كما علمنا من موظفي الخارجية ، يكاد يكون يوميا بين الوزيرين السوفياتي والامريكي ،أما الخبراء في موسكو وواشنطن فقد بدوا في حالات عدة كما لو أنهم فريق عمل واحد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت تسمية المؤتمر تمثل إشكالاً جدياً ، هل هو دولي أم أقليمي أم ماذا ؟! واقترح السوفيات بأن يسمى مؤتمر السلام ؟ وكانت صلة الأمم المتحدة مثار جدل حاد فاسرائيل لا تحب رؤية أية اشارة تنم عن وجود الأمم المتحدة في عملية السلام بكل اطاراتها. والعرب ومعهم السوفيات يرون وجود المنظمة الدولية ضرورة حيوية بعد أن انجزت حرب الخليج كلها باسمها ، وبعد ان حققت حضوراً جوهرياً في المسألة الافغانية. وهنا اقترح بسميرتنخ عدة صيغ لوجود الأمم المتحدة كانت بمثابة حل وسط هي موجودة في كل المراحل وغير مؤثرة في أية مرحلة .

كان تفسير بسميرتنخ لهذه الصيغة أثناء لقائه مع ياسر عرفات في جنيف بأنها أقصى ما أمكن تمريره ، فضلاً عن أن الأمم المتحدة هي ليست الأمم المتحدة التي كنا نعرفها من قبل ، أي في تلك المرحلة التي كنا نصر على وجودها ليس فقط كمشارك في اعمال المؤتمر وإنما كأرضية وإطار له .

كذلك جرى التفاهم على صيغة مشاركة أوروبا الغربية. كانت صيغة غير مرضية لجميع الأطراف مع أنها حظيت بالموافقة حين انجزت كافة الترتيبات لعقد مؤتمر السلام في مدريد، واحتل الاتحاد السوفياتي وضع الشريك في رعاية المؤتمر الى جانب الولايات المتحدة الأمريكية . كان الاتحاد السوفياتي قد وصل الى ادنى درجة الفاعلية والنفوذ على الصعيد الدولي . كان أشبه بمريض انتشر السرطان في جسده على نحو لا أمل في شفائه . كانت محاولة العلاج بالصدمة الكهربائية التي أقدم عليها عدد من القادة المحافظين في منتصف آب عام ١٩٩١ بمثابة اختصار لزمن نحو نهاية الدولة العظمى ، مع ذلك فقد كان السوفيات حريصين على المكابرة وملء المقعد ،وجرى لقاء فلسطيني سوفياتي في باريس. رئس الوفد الفلسطيني فيه ياسر عرفات ، ورئس الوفد السوفياتي بوريس بانكين الذي خلف بسميرتنخ في وزارة الخارجية . كان التبديل الوزاري الذي أبعد بسميرتنخ لمصلحة بانكين بمثابة واحدة من الحركات اليائسة التي قام بها غورباتشوف لاظهار صلابته المفتعلة بعد فشل الانقلاب . كان بانكين رمزا للدبلوماسية السوفياتية التي أقدمت على خطوة إدانة الانقلاب في حين كان بسميرتنخ رمزاً لذات الدبلوماسية التي اتهمت باتخاذ موقف مؤيد له . كان التبديل على قمة هرم الخارجية قد تم وفق مبدأ الثواب والعقاب ، وهو مبدأ يحمل خطر المجازفة بالتغاضي عن شرط الكفاءة لمصلحة شرط الولاء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في لقاء باريس كان بانكين وهو قليل الخبرة بشؤون الشرق الأوسط، محاطاً بمجموعة كبيرة من الخبراء ذوي المعرفة المتمكنة بالمنطقة ، كان يصغي لما يسمع ويجيل بنظراته على وجوه الخبراء المحيطين به كما انه يوجه ايعازات صامتة بتسجيل الملاحظات، وحين جاء دوره في الكلام قرأ حرفياً نصاً كان موضوعا أمامه ، لقد حاول الوزير الذي انتشله الانقلاب الفاشل من سفارته في براغ ليضعه في المكتب التاريخي الذي جلس فيه أقطاب من عيار غروميكو وشيفرنادزه ،يحاول ايصال رسالة لنا تقول ..« من الأن فصاعداً، أي منذ أصبحنا شريكاً في رعاية مؤتمر السلام ، لا بد من بعض التحفظات الاعلامية ، سنقلل الجرعة الاعلامية التي تغطي عملنا ».

أخذ عرفات علما بهذه الرسالة، لقد قرأها بعض أعضاء وفدنا كما لو أنها مؤشر على خفض مستوى التنسيق الذي كان قد بلغ أوج فاعليته ومستواه عبر اللجنة السياسية المشتركة التي كانت حتى ذلك الوقت قد عقدت أكثر من عشرين اجتماعاً رسمياً بين تونس وموسكو، وحين استوضحنا الأمر بتوجيه سؤال إلى أحد أعضاء الوفد المرافق للوزير عن الغرض الكامن وراء ايضاح من هذا النوع أجابنا عضو الوفد :

« قد يكون الوزير غير دقيق في التعبير، إن الذي كان يرغب في قوله هو أنه سيتواصل التنسيق، ولكن دون ان يظهر أي تصريح رسمي يفهم منه انحياز سوفياتي إلى جانب الفلسطينيين.»

أجبناه : من هذه الناحية كن مطمئناً .

حشد الامريكيون كل ما لديهم من أضواء كاشفة وعدسات تلفزيونية وأقنية بث عبر الأقمار الصناعية، واتخذوا قراراً رئاسيا بأن تكون مدريد مركز الكون عدة أيام. إن الاعلام الامريكي هو الجيش الخطر الذي لا يحتمل الهزيمة. ولقد أمرت فيالقه الاحتشاد في مدريد. كانت الترتيبات المعدة بدقة متناهية قد راعت – حتى في أدق تفاصيلها – منح مظهرية الشراكة العادلة بين القوتين العظميين كل متطلباتها الاجرائية ، فمنح ميخائيل غورباتشوف – المنهك بالانقلاب الذي فشل في كل شيء إلافي شيء واحد ألا وهو « تحطيم البريسترويكا» – ذات الفرصة الممنوحة لجورج بوش لاحتلال كادر الكاميرا الامريكية ، كما سلمت المطرقة الخشبية التي تدل على رئاسة الجلسة لبوريس بانكين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مثلما سلمت لنظيره جيمس بيكر. وكان الوفد السوفييتي إلى مدريد متكافئا من حيث العدد مع الوفد الامريكي سوى ان ضخامة العدد السوفياتي أثارت في موسكو قضية جدية حول نفقات هذا الوفد ، اذ لم تجد العديد من الصحف السوفياتية ما تقوله حول مدريد سوى أن مهمة الوفد السوفياتي استنزفت اقتصاد البلد المنهك.

وحين تحدث الراعيان ، تقيدا في المساحة الزمنية المخصصة لهما بالتساوي . كان خطاب ميخائيل غورباتشوف سوفياتياً بكل ما للكلمة من معنى ، كان حائراً عاماً شديد التركيز على البديهيات، وكثير الابتعاد عن المواقف المحددة من المسائل المطروحة . كان ما بين السطور وما وراءها يقيناً مستتراً بالعجز وانعدام اي مستوى من مستويات التكافؤ مع الشريك .

تحضرني هنا حكاية وبطلها هذه المرة شيخنا الجليل حيدر عبدالشافي ، حين قابل جورج بوش رؤساء الوفود كان بديهياً ان يحذو الرئيس السوفياتي حذوه ، لم ألحظ على الشاشة لقاء بين عبدالشافي وغورباتشوف مع أنه جرى لقاء مع شامير ، راودني إحساس بأن في الأمر خطأ غير مقصود ، فما الذي يمنع غورباتشوف من لقاء عبدالشافي ؟

كانت أجواء مدريد الاحتفالية مزدهرة على نحو انساني بمتابعة هذه المسألة التي من المفترض ان تكون واقعة في نطاق مسؤوليتي واختصاصي . بعد أيام همست في أذن صديقي فاسيلي كالاتوف سائلاً : لماذا لم يتم لقاء غورباتشوف مع رئيس وفدنا ؟

أجابني: لقد طلبنا منه ذلك غير أن الدكتور عبدالشافي لم يتمكن نظراً لارتباطه بموعد مسبق، وكان الرئيس على وشك المغادرة فلم يكن باستطاعتنا تحديد موعد جديد.

فوجئت بما سمعت،كان خطأ يتعين عدم الاقدام عليه. إن لقاء غورباتشوف ومهما بلغ التدني في مكانته، يستحق تأجيل الموعد القديم. وضعت احتمال سوء الفهم، وافترضت أن الذي حاول ترتيب الموعد من الجانب السوفياتي لم يقم بدوره على نحو دقيق غير اني في محصلة الأمر فكرت في استجلاء الغموض باتصال مع رئيس وفدنا .

بعد مدريد بأسابيع قليلة دعي وفد فلسطين إلى موسكو للتشاور مع ادوارد شيفرنادزه الذي عين وزيراً للخارجية خلفاً لوزير مدريد بوريس بانكين (بالمناسبة كان بانكين يكثر من التصريح حتى حين أصبح وزير خارجية بأنه لا يتصور نفسه أحق من أستاذه شيفرنادزه بهذا المنصب) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان مقررا ان يتكون الوفد من – محمود عباس (أبو مازن) ، وياسر عبدربه – عضو اللجنة التنفيذية ،وحيدر عبدالشافي ، وفيصل الحسيني وآخرين من أعضاء الوفد المفاوض .

كما كان متفقا مع الجانب السوفياتي أن يتم الاجتماع مع الوزير دون تغطية تلفزية، أو اذا كانت التغطية ضرورية فان رسميي المنظمة يغادرون القاعة قبل التصوير أو يحضرون بعده .

حين التقيت في مطار موسكو بالرفيق أوليغ ديركوفسكي نائب مدير دائرة الشرق الاوسط، حيث كان منتدبا من قبل الوزير لاستقبال وفدنا ، أبلغني أن الترتيبات المتفق عليها قد ألغيت ، وأن الوزير لا يستطيع الالتقاء بالوفد وفق تركيبته الراهنة. ان تسريب خبر عن لقاء من هذا النوع سيؤثر على مكانة الاتحاد السوفياتي كراع للمؤتمر، وسيخدش حياده وتقيده بالاصول المتبعة بالتعامل الرسمي مع الجانب الفلسطيني. سألته . . اذن ما هي الترتيبات الجديدة؟

– غداً في العاشرة صباحاً يستقبل الوزير الدكتور حيدر ورفاقه ، وبعد ذلك نحاول ترتيب لقاء مع السيدين أبو مازن وياسر عبدربه.

أقلقتني كمة نحاول . كانت الدقائق المتبقية على وصول وفدنا غير كافية للتوسع في الحوار مع المسؤول السوفياتي فاتفقنا على اجتماع عمل حول هذه النقطة بالذات يتم في الفندق حال وصولنا إليه.

كنت قلقا من رد الفعل المتوقع. ان حكاية الداخل والخارج لها ايقاع شديد التأثير وخاصة على أولئك المبعدين بقرار دولي عن طاولة المفاوضات، والكاميرا المخصصة لتغطيتها، ان ظهور عضوي اللجنة التنفيذية واحدهم تاريخي على هامش لقاء رسمي بين الوفد والقيادة السوفياتية سيشكل بلا جدال ضربة مؤثرة لوضع منظمة التحرير التي ترتبط مع الاتحاد السوفياتي بعلاقات رسمية بلغت مستوى السفارة، أما ظهور الجميع في لقاء رسمي مع وزير خارجية الدولة الشريك في رعاية المؤتمر فإن ردود الفعل البديهية المتوقعة جراء هذه الخطوة ، هي اعلان انسحاب اسرائيل من المفاوضات تحت ذريعة دخول المنظمة إلى مؤتمر السلام عبر النافذة السوفياتية . لم استبعد احتمال نصيحة امريكية حازمة حول هذا الامر ، لذا وجدت نفسي أواجه مأزقا جدياً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مع ذلك ، كان لا بد من الاتفاق على حد أقصى للمعالجة مع وزيري منظمة التحرير.

حين وصلنا الفندق أبلغنا ديركوفسكي بالمحاذير المترتبة على الترتيبات المستجدة، وطلبت منه ومن رفاقه في الخارجية تدبر الامر مع تعهد حازم بعدم نشر أي خبر، وتم اللقاء المشترك وفق الصيغة التي كان متفقاً عليها.

أبدى ديركوفسكي شكوكه الأقوى من اليقين بامكانية لقاء مشترك وبذلك أفسح لي المجال امام اقتراح كنت قد تشاورت بشأنه مع أبو مازن، وهو ترتيب لقاءين منفصلين الأول مع الوفد، والثاني مع وزراء المنظمة ، وحدث ذلك بالفعل .

افتتح شيفرنادزه يومه بلقاء الوفد واختتمه بلقاء وزيري المنظمة. كان ذلك اليوم هو آخر يوم يلتقي فيه الوزير بوفد شرق أوسطي، والسبب كما صار واضحاً للجميع هو انهيار الاتحاد السوفياتي – وفقدان مبرر وجود وزير لخارجيته .

سألت الدكتور حيدر هل حقا اعتذرت عن لقاء غورباتشوف في مدريد ؟

أجاب :نعم . لقد حصل ذلك ..

سألته لماذا ؟

قال : حقيقة كنت مرتبطا بموعد مع سفير دولة كندا .

بعد شهور وحين قذف الزلزال السوفياتي ميخائيل غورباتشوف إلى الرصيف ، وافق ملياردير يهودي على ترتيب زيارة له الى اسرائيل، وكان شرط الزيارة الحاسمة أن لا يلتقي الرئيس المخلوع بالفلسطينيين. أعلن غورباتشوف أنه لن يلتقي بالفلسطينيين لأنه غير راض عن موقفهم في حرب الخليج ؟.

كان واضحاً ان الرئيس السابق يفتعل ذريعة ساذجة لتغطية شرط الملياردير بعدم اللقاء مع الفلسطينيين، غير أنه دون أن يدري جعل من خطوة حيدر عبدالشافي بالاعتذار عن لقائه في مدريد تبدو كما لو أنها انجاز دبلوماسي مميز ، نسجه القدر .

بالمناسبة ، عقب زيارة غورباتشوف لاسرائيل ، زارني في السفارة أحد سماسرة الزيارات، واقترح علي الاتصال بسيد البريسترويكا وإغرائه بمنحه خمسين ألف دولار لقاء حصوله على دكتوراة فخرية من جامعة بيرزيت أو اى جامعة فلسطينية . . فاعتذرت حتى عن مبدأ مناقشة الفكرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجزء الثالث

تمهيد :

عرفت أحقاب التاريخ امبراطورية عظمى، حملت اسم الامبراطورية الروسية، ويجتهد بعض مفكري الغرب، باعتبار الثورة البولشفية هي التي أنجبت الاتحاد السوفيتي وارتقت به، وخصوصاً في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية إلى موقع احد قطبي السيطرةالكونية، بمثابة الحدث التاريخي الذي أجل انهيار الامبراطورية الروسية سبعين سنة

ولا شك في أن لهذا الاجتهاد، بعض المسوغات المنطقية إذا ما نظر للأمر من زاوية موقع روسيا الفعلي في بناء الاتحاد السوفيتي العملاق، وكذلك إذا ما نظر للأمر من خلال الوعاء الجغرافي الذي جرت بداخله عملية تأسيس الدولة السوفيتية، والمجتمع السوفيتي، ذلك ان الامبراطورية السوفيتية بنيت على الاراضي الموروثةعن الامبراطورية الروسية، وأقامت مجتمعها الاشتراكي على ذات الشعوب التي فتحت أراضيها من قبل الروس، وكان في عهد بطرس الأكبر، صاحب الفضل الرئيسي في مد رقعة الامبراطورية الروسية، وتحريكها وجعلها قوة إقليمية عظمى في القرن الثامن عشر، وما تلاه من قرون .

وعلى مدى تاريخ الدولة السوفياتية العظمى، كانت روسيا هي الاسمنت الذي بنيت عليه وبه الدولةالعظمى، وكانت اكبر المساهمين في أفكار الذات القومية والثقافية والكيانية، التي توفر للتجربة الاشتراكية مصداقيّة منطلقاتها وادائها كتجربة رائدة، تنصهر فيها مجتمعات بكل مقوماتها الخاصة في بوتقة واحدة، لتبني دولة امية ذات معايير اخلاقية وثقافية واجتماعية مبتكرة بعيدة كل البعد عن الماضي بمعاييره العرقية والثقافية والاجتماعية والايديولوجية.

كانت روسيا الجغرافيا المتسعة، والكثافة البشرية الهائلة، والتراث الروحي المسيحي العريق والعميق، قد عكست صورة علاقاتها بمستعمرات الامس،وقدمت نفسها عبر اساطير التجربة الاشتراكية الكبرى، كحام مقتدر لأثقال الكيان الجديد، فأطفأت روحها المسيحية المتقدة،لتبعث روحاً جديدة في الكيان الجديد .

تحولت الكنيسة الى مخزن، والمسجد الى اثرسياحي، ومحيت سير الأنبياء والقديسين، وطقوس العبادة وتقاليد الولاء التاريخي المتوارث في أفدح مجازفة شهدها التاريخ، لتحويل الذاكرة الجماعية إلى صفحة بيضاء يكتب عليها سدنة التجربة الأممية الطموحة سيرا جدية، ويفرضون على الملايين طقوسا وتقاليد .. هيهات ان تكتسب وضع الروح في الجسد .

كانت روسيا الحاضر الغائب في هذه التجربة المجازفة قد انجزت ثورتها بعد مخاطرات دامية، وأسست اتحادها السوفيتي الجديد وفق شراكة أيديولوجية مع مستعمرات الأمس. وللحق كانت شراكة شديدة الانصاف للآخرين، ومغالية في الاجحاف بحق الشقيق الأكبر، غير ان هذه الشراكة والتي بدت منصفة وفق مقاييس الاشتراكية والأممية والرفاقية الكونية، كانت وفق مقاييس أخرى مغالية في الظلم، وماحقة في الغاء اغلى ما تملكه الشعوب والأقوام والمجتمعات، ألا وهو الشخصية القومية بكل جذورها وأعماقها ومكوناتها المعنوية والمادية .

كانت هذه المحاذير مختفية وراء زخم الصعود العظيم للكيان الجديد،غير انها في ذات الوقت، ومنذ البدايات المبكرة ترسبت في كل ذرات حياة هذا الكيان، لتشكل نوبات أولية قابلة للتحول إلى خلايا سرطانية تقتل الجسد والروح .

حسم البلاشفة أمر سيطرتهم على روسيا، وطوى المنتصرون تلك الصفحات الدامية من تاريخ روسيا الحديث، وانصرفوا إلى تأسيس دولتهم الاشتراكية، دولة لينين .

كانت التجربة الوليدة، تشق طريقها قدما على أرض مهدها الحماس الجماعي لبناء مجتمع جديد على أنقاض مجتمع الظلم الامبراطوري المنقرض . كانت عربة التجربة الاشتراكية مندفعة بتصميم لا يلين، وعلى أرض بدت ممهدة تماماً عبر المدى اللامتناهي لأحلام القادة الطليعيين والتزامهم الثوري بتجسيد نظريات ماركس وانجلز على أرض تشكل مساحة سدس الكرة الأرضية .

أسس لينين هياكل السلطة القوية، ونشر اجتهاداته المبدعة في فقه الديانة الماركسية. كان مؤسسا مستنيرا وعميق الوعي لرسالته، يجرب، ينجح، يخفق، يتقدم، يتراجع، وينشر الدروس والعبر. واذا كان يخفي داخل اعماقه أشياء كثيرة فإن أعمق واخطر تلك الأشياء – هو الخوف من ذلك القادم بعده – الا وهو الجيورجي جوزيف ستالين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد حكم هذا الرجل القادم إلى روسيا محمولا على أجنحة الحلم الأممي الاشتراكي قرابة ثلاثين سنة، أي حوالي نصف عمر التجربة الاشتراكية إذا ما تجاوزنا سنوات التأسيس وسنوات الاحتضار .

وإن الزعيم القادم من بلاد القفقاس، وجد نفسه على رأس هرم عملاق، هو الحزب الشيوعي السوفيتي، الممسك بمقدرات ملايين البشر ممن اصطلح على تسميتهم بالمواطنين السوفيات. والممسك بداهة بامكانيات هذه الكيانات الممتدة جميعاً من أقصي نقطة في سيبيريا حتى اخر نقطة في آسيا الوسطى .

لقد اجتهد الزعيم الثاني للدولة السوفياتية، او انه اخترع نظرية خاصة لبناء المجتمع والدولة والسلطة، « وما دام الحكم الاشتراكي يتيح له حق الاجتهاد بتحقيقه عبر سلطة مطلقة»، فلم لا يمضي في استغلال هذه السلطة بكل جرأة وحزم،ولم لا تتم التضحية ببضعة ملايين من البشر لانجاز التحول الأسطوري وفق تصاميم ماركس وانجلز، والتعديلات المدخلة عليها من قبل الرجل الذي ساقته الأقدار لصنع التاريخ الجديد للبشرية.

كان العهد الستاليني، بمساحته الزمنية الطويلة (ثلث قرن) قد أنجز بناء الدولة الصناعية العظمى، والسلطة المركزية المطلقة، والقوة الاستراتيجية الماحقة. كان عهد الانجازات الكبرى والموت الجماعي العظيم .

لقد جرت خلال هذا العهد، اكبر وأوسع عملية دمج بشري قسري للشعوب والمجتمعات، نقلت الملايين من مواطن آبائها وأجدادها الى مواطن جديدة، والغيت الديانات والثقافات بأوامر سلطوية صارمة، وتحت مظلة شعار التحالف بين العمال والفلاحين، ألغيت المقومات التي تؤهل رجل الريف الروسي لاعتبار نفسه فلاحا، وفرض على سكان سدس الكرة الأرضية أن يتحولوا إلى حجارة يضعها المعلم في المكان الذي يختاره في البناء العظيم .

وحين فرضت الحرب العالمية الثانية نفسها كتحد كوني ماحق يواجه الدولة الكبرى النامية، ووجد ستالين عرشه في قلب موسكو تحت مرمى المدفعية الألمانية متوسطة المدى، وأن الذي نأى بالعرش الستاليني عن الدمار والحريق هو مجرد إعجاب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القادة الألمان بالفخامة المعمارية للكرملين، وتوقهم الى التجوال في أروقته الأسطورية. ظهرت للعالم تلك السمة العبقرية للزعيم، فأمكن له في نهاية المطاف حسم الحرب العالمية الثانية لمصلحة امبراطوريته،فلقد قاد الرجل جهداً اسطوريا لبناء القوة العسكرية والاقتصادية السوفياتية التي تلاشت أمامه الاندفاعة الألمانية الأولى في أسابيع قليلة .

لقد افرز كسب الحرب العالمية الثانية وضعاً كونياً طاغيا للدولة السوفياتية، ووفر لستالين فرصة اقتسام العالم الجديد وقلبه أوروبا مناصفة مع القطب الأمريكي، وشهد العالم تصنيفا للنفوذ، شرقا وغرباً، لتستكين البشرية كلها بين شقي معادلة القطبين إلى مدى زمني بلغ قرابة نصف قرن .

لم يكن الانتصار الخلاب في الحرب العالمية الثانية، ليخفي فداحة الأثمان التي تم دفعها لأجله، او لتحقيق امكانات كافية لتفادي الأثمان التي يتعين دفعها مؤخراً. لقد قتل في ميدان المعركة ملايين السوفيات، ودمرت أجزاء هامة من البنية الأساسية للصناعة والانتاج، أما المجتمع الذي كسب الحرب بقوة شكيمته وقدرة قائده الخارقة على الاقدام والتضحية، فقد ابتلى بأمراض الحرب وتكاليف التطلع نحو السيادة الكونية .

لقد استقر الكيان السوفياتي أخيراً على الصيغة التي فرضها ستالين، وحيال ظاهرةالقوة الطاغية للزعيم الجدي، رجل السلطة والدولة والتاريخ،نشأت على نحو تلقائي ظاهرة الولاء العميق للقائد والنفور العميق منه، كان ستالين معبوداً لقطاعات غير قليلة من قطاعات الشعب السوفياتي المتعدد والمنصهر، كما كان في ذات الوقت كابوسا ثقيل الوطأة على نفوس قطاعات أخرى وما ينطبق على المجتمع ينطبق حتماً على الحزب والدولة .

لقد مات ستالين في العام ١٩٥٣، وخلفه احد قادة الحرب نيكيتا خروتشوف، لم يستطع الخليفةالجديد ان يعيش كرجل دولة في ظل هيمنة الظاهرة الستالينية القوية على المجتمع والحزب والدولة، فأقدم على مجازفة التمرد، كان لا بد من محاولة اصلاحية توفر للمنكوبين والمتطلعين الى الراحة من أعباء العهد الستاليني الطويل رئات للتنفس، ولقد أقدم الزعيم الجديد على اختراع هذه الرئات، لقد خفف كثيراً من القيود الستالينية، وحاول فتح آفاق جديدة للأبداع والمشاركة الشعبية الأكثر حرية في الحياة السياسية العامة، لم يقترب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأمين العام من مصادر القوة الرئيسية للدولةالعظمى . . السلطة والجيش والأجهزة . . غير أنه وبفعل الصراع المرير الذي كان يخوضه مع الحرس القديم، سدنة الايديولوجية بحرفيتها الماركسية اللنينية المنقوشة في عقول الأجيال الحزبية المحافظة، وجد نفسه بعد عشر سنوات مبعداً وعلى نحو نهائي عن القيادة والحياة السياسية برمتها .

كانت شعوب الاتحاد السوفياتي قد ورثت عن ستالين بناءاً عملاقا للدولة وأجهزة السلطة، وحين غرق النظام الدولي المنبثق عن الحرب العالمية الثانية بحمى الاستقطاب وصراع النفوذ فيما اصطلح على تسميته بالحرب الباردة،وجدت هذه الشعوب نفسها تواجه قدراً مرعباً، إنه السباق المتواصل للتسلح، وفي وضع كوضع الاتحاد السوفياتي حيث تحكم الحياة بالمطلق لتخطيط وتنفيذ السلطة كان بديهياً ان تنشأ ظاهرة النمو الخيالي للقوة العسكرية والامنية على حساب التخلف الخيالي، وعلى صعيد الاقتصاد وتوفير الحاجات الحياتية .

كان بوسع النظام ذي الآلة الجبارة أن يخفي الشق الآخر من معادلة القوة تحت أجنحته المهيمنة، وعبر أدواته السلطوية الكلية القدرة، كان المسؤولون الحزبيون قد استسهلوا عملية التعاطي مع الانجازات بأسلوب احصائي مبتكر، تقدم على صعيد الأرقام والمعدلات عبر التقارير السنوية، وتراجع على الارض يئن المواطن تحت وطأته دون ان يكون متاحاً له مجرد الأشارة إلى الاخفاق. لقد تكرست وتوطنت أمراض التجربة السوفياتية في العهد البريجينيفي الذي تلا محاولة الاصلاح التي قادها خروتشوف. لقد جرى توقيف عجلة الاندفاع نحو التغيير لمصلحة توجه العجلة إلى تفتيش جديد عن طريق جديدة تفضي إلى معالجة الأزمات .

كانت القوة الكونية العملاقة تشيخ من وراء الستار، وتضمحل خلف الاستعراضات المهيبة للقوات العظيمة في الساحة الحمراء . . كان الانتاج في تراجع ملحوظ والسياسةالخارجية تتخبط من هزيمة الى اخرى، وتندفع من مغامرة فاشلة الى مغامرة اكثر فشلا . . لقد سقطت السياسة السوفياتية في الشرق الأوسط، وحوصرت في أوروبا ووصلت الي نتيجة عبثية في أفريقيا. كان السقوط او التراجع على هذه الساحات . .قد فرض على الدولة العظمى أعباء وتكاليف المحافظة على المواقع المتبقية والاغداق عليها في عملية الرهان اليائس لاستعادة المواقع المفقودة . . كان يتعين على الدولة العظمى أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

توفر الخبز لثورة مانجستو في أثيوبيا، وأن توفر الصواريخ لسوريا، وأن توفر الدعم للحزب المتداعي في عقر دار حلف الشرق المرعب (وارسو) .. وان تراقب بعيون مفتوحة تداعيات الخلل الاستراتيجي الذي بدأت أعراضه بالظهور في قلب اوروبا، وفي رئاته الشرق أوسطية والخليجية والآسيوية . .كان الأمريكيون يواصلون التقدم في أماكن عديدة وكان الارتباك السوفياتي قد اسفر اخيراً عن اخطر مجازفة الا وهي فتح حرب جديدة في أفغانستان . .

في العام ١٩٨٢ . . مات بريجنيف..

في العام ١٩٨٤ مات خليفته المصلح المحتضر اندروبوف.

في العام ١٩٨٥ . . جاء ميخائيل غورباتشوف . . كان الأخير واحدا من أتباع أندروبوف . .حيث أخذ على عاتقه إنقاذ المريض فأنبأنا التاريخ بعد ست سنوات ان كل الذي جرى فعله يتلخص بعبارة واحدة :

إطلاق رصاصة الرحمة على الكيان العملاق، وفتح باب القمقم لانطلاقة المارد الروسي .

غورباتشوف . . .

في مطع العام ١٩٨٥ اختار المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي أصغر اعضائه سنا لمنصب الأمين العام . . لقد سئم سدنة الكرملين الوقوف على المنصة المرمرية لتأبين الراحلين، مثلما سئم الشعب السوفيتي من تحول الساحة الحمراء الى مكان تعرض فيه أجساد قادتهم الاموات، أو الذين سيموتون عما قريب، وحين تضيق الشعوب ذرعا بظاهرة سلبية متمادية تزدهر القريحة لتنتج أفضل الطرائف ...

سأل جينادي صديقه ايفان : هل حضرت الإحتفال الجنائزي في الساحة الحمراء ؟

أجاب بالتأكيد . .فلدي اشتراك .

غير ان صغر السن على وجاهته لم يكن هو العامل الأكثر تأثيرا في إختيار غورباتشوف لمنصب القيصر الأحمر، فلقد كان يتمتع بمزايا كثيرة يصعب تجاهلها، ولعل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أبرز هذه المزايا كونه فرس الرهان الذي اختاره الراحل القوي اندروبوف ليكون تلميذه الواعد وخليفته الأمين في قياة الحزب والدولة .

ويتردد في موسكو قول مفاده ان اندروبوف الذي امضى شهورا على فراش الموت كان يسند مهمة ادارة جلسات المكتب السياسي لغورباتشوف كتمهيد عملي لتأمين موقع الأمين العام بعد رحيله، بل إنه ذهب الى ما هو أبعد من ذلك حين أوصى به – خليفة له – ولولا يقظة اقطاب الحرس القديم وجرأتهم على تعاليم العراب المحتضر. . لما عرف الكريملين أمينا عاما يدعى شيرنينكو.

ولقد عرف غورباتشوف على ما يبدو كيف يتعامل مع الأمين العام الجديد او بتعبير أقرب كيف يتعامل مع المحطة قبل الأخيرة في الطريق الى رأس الهرم، لذا اذعن لارادة السدنة التاريخيين، لم يكن الأمر تعبيرا عن روح رياضية متأصلة في أعماق المرشح الشاب وإنما كان بدافع من ادراك سليم لقواعد لعبة القمة حيث لا مناص من ممالأة التاريخيين الذين يتخوفون على نحو تلقائي من الصعود المدوي للشباب، وفي نفس الوقت الدخول بأعصاب باردة وخطوات محسوبة الى منطقة الاختبار الأخير التي يكون التوازن الحذر فيها هو الشرط الضروري وربما الشرط الضروري الوحيد للإرتقاء .

كان إنتخاب شيرنينكو بمثابة فرصة ثمينة لتعزيز أوراق غورباتشوف في لعبة القمة، وإذا كنا نؤمن – كأناس عاديين – بأن الأعمار بيد الله وبالتالي لا يصح أخلاقيا المجاهرة برهاننا على الموت إلا أن الأمر يبدو مختلفا تماماًحين يكون الرهان من اجل زعامة نصف العالم، كانت حالة شيرنينكو الصحية تغري غورباتشوف بحتمية النجاح، فعما قريب ستأذن السماء برحيل سيد الكريملين وسيكون ميخائيل سيرغييفيتش رئيس حفل التأبين . . أي أمين عام الحزب الحاكم في دولة لينين العظمى .

عقب رحيل شيرنينكو أنتخب ميخائيل سيرغييفيتش أمينا عاما – لقد انتصر في معركته السهلة على مرشح الجيل الثاني – غريشين زعيم الحزب في موسكو، كان اندريه غروميكو – أشهر وزير خارجية في العالم هو بطل المعركة الأخيرة، أو انه كان الشعرة التي قصمت ظهر البعير، لقد منح صوته المرجح لتلميذ اندروبوف . . ذلك أن الدبلوماسي المحنك يعرف تماما ماذا يعني تبني جهاز الكي جي بي لغورباتشوف، هذا التبني الذي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أشهره في اللحظات الحاسمة رئيس الجهاز شيرنينكو - حين شن هجوما كاسحا على غريشين ادى الي اخراجه نهائيا من اللعبة .

حين تقدم آخر العجائز بترشيح غورباتشوف بإسم المكتب السياسي طالباتأييد اللجنة المركزية لم يكن يخطر ببال غروميكو انه سيكون الضحية الأولى لمرشحه. إن الرجل الذي وصفه بصاحب الابتسامة الساحرة والأنياب الحديديةلن يغفر لمن قد يحملونه في يوم ما جميل اختياره، فكان أول عمل يقوم به غداة تسلمه السلطة التخلص من المؤيدين قبل المعارضين .

لقد قوبل انتخاب زعيم شاب للبلاد برضى شعبي ظاهر ومتحمس في العديد من مظاهره الإحتفالية. إن شعوب الدولة العظمى تشاهد على شاشة التلفزيون رجلا مفعما بالحيوية والنشاط، كان قد تمرد على المبدأ القيادي الراسخ الذي التزمه معظم اسلافه والقاضي بتفادي رعونة الابتسام وخفة النزول الى الشارع، ومجاراة زعماء الغرب في بدعهم الانتخابية مثل التحدث مباشرة الى الناس. كان نوعا جديدا من الزعماء، يعد مظهره المريح بنوع جديد من العلاقة بين القيصر المتواضع، والشعب المتعطش للراحة من رؤية التجهم الشمعي الذي يطبع وجوه الأمناء العامين . . لقد سبقه ستة منهم . . كان كل واحد من اسلافه العظام قد بلغ وضع الألوهية المطلقة، ذلك ان سلطة الحزب المركزية وطريقة العمل، وتقاليد الحكم توفر لأي أمين عام إمكانية مضمونة لجمع كل السلطات في قبضته، ولعل ابرز ما يدل على ذلك تمكن الجميع بإستثناء خروتشوف . . من الحكم حتى في فترة العجز الجسدي والإحتضار الطويل .

كان قادة الكريملين يطلون على الشعب في مناسبات نادرة يقفون على منصة الضريح بلباسهم المغرق في السواد، وقبعاتهم التي تغطي نصف وجوههم يلوحون بأيديهم المتثاقلة للجيوش الزاحفة على ارض الساحة الحمراء، ولألاف الشغيلة الذين يستعرضون أنفسهم وشعارات مصانعهم مرة كل سنة للتدليل على تواصل المسيرة الاشتراكية وإدمانها صنع النجاح .

كان من يحصل على مقعد في المكتب السياسي يحصل معه على أشياء كثيرة أقلها ممر خاص لسيارة الزيل الفخمة المصنعة يدويا والمجهزة بوسائل العمل والراحة على نحو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تفتقر اليه سيارات الإمبريالية الأمريكية أو الألمانية أو اليابانية، ولعله لا يوجد مكان في العالم تأتمر فيه إشارة المرور بأمرة سيارة سوى في موسكو.

إن الأمين العام الجديد الذي حصل بالطبع على مزايا اسلافه لم يغفل عن ضرورة ابتكار طريقة تمكنه من الحصول على مزايا اضافية فأوجد لنفسه مساحة حركة جديدة وغير مألوفة من قبل الناس النزول الى الشارع، التبسط .. الابتسام الدائم . . والتفاؤل المتواصل بجعل الدولة والمجتمع أكثر حداثة وهناء.

لم يكن بوسع الجمهور السوفيتي إلا التفاؤل. إن الأمين العام الجديد يبدو كما لو أنه نبتة يانعة انبثقت من أرض شقائهم وجفاف حياتهم. إنه مثلهم ومن موقعه كزعيم يقر ويعترف بالأمراض المتفشية في جسد الكيان العملاق، ويعد بشفاء اكيد منها، ولم لا يصدقه الناس وهو صاحب السلطة المطلقة . .والممسك بمقدرات الدولة العظمى بيد من حديد، كان الإعجاب بشخص ومسلك الزعيم الشاب يتعزز مع كل خطوة جديدة يخطوها على طريق الإعتراف بالخطأ والوعد بتلافيه. كان يبدو خارق الشجاعة وهو يمس على نحو صريح مسألة الفساد الحزبي والإداري، فإتصلت في وجدان الناس صورة اندروبوف المصلح الذي مات قبل ان يفعل شيئا يذكر، بصورة غورباتشوف الثائر الذي لن يلتزم فقط بتنفيذ تعاليم معلمه المتوفي، وإنما سيتجاوز كل الخطوط، ويمحو كل الحرمات، لتصحيح الخطأ ووضع البلاد والعباد على الطريق الصحيح. . بعد شهر من انتخاب الأمين العام الجديد وافق الحزب على برنامجه الإصلاحي، لم يكن الأمر صعبا فالزعيم الجديد يستحق فرصة. . فضلا عن أن سيد البريسترويكا كان شديد الذكاء في مخاطبة لجنة حزبه المركزية . . اذ لم يغالي في اقتحام حصونهم.

كان ميخائيل سيرغيفتش ابن الحزب، وسليل شبكته البروقراطية يعرف جيدا تلك المحرمات التي لا يصح الاقتراب منها، إنه في غنى عن إضافة ثمانية عشر مليون إنسان نافذ يشكلون جيش البيروقراطية العملاق في الدولة العظمى، فهو بحاجة ماسة لهذه الالة لتثبيت دعائم سلطته، وتنفيذ تطلعاته الكبرى بإنجاز ثورة إصلاحية شاملة .

لم يذهب الأمين العام الجديد بعيدا في إشهار طموحه . . لقد اكتفى بطرح شعار عام مثل التنشيط والتجديد . .وهي كلمات لا تؤذي معتقدات أولئك الذين يحرسون

حرفية النص الماركسي وأصولية التطبيق اللينيني، كان – ومن خلال بداية هادئه كهذه– قد شرع في عملية ترويض مبرمجة لحزب عقائدي توارث السلطة ذات الوقود الأيدولوجي على مدى سبعين سنة، غير أنه، ورغم الحذر الشديد الذي اظهره في البدايات، أقدم على مجازفة لفتت أنظار سدنة الحرس القديم، ورسمت في وعيهم علامة استفهام مبكرة . حين تحدث بصراحة عن أهمية الإقلاع عن مركزية التخطيط في الاقتصاد، وإطلاق العنان لعملية تسيير ذاتي في العديد من مجالاته، فهنالك من وجدها خطوة على الطريق الصحيح نحو حل الأزمة الاقتصادية المتفاقمة في البلاد، وهناك من رأى فيها جرس إنذار مبكر يشي بخطر قادم يهز الأركان الرئيسية للفكر الماركسي والتجربة الإشتراكية .

غير ان الأمين العام الجديد نجح في جعل هذه المجازفة مادة جدل داخلي ليس اكثر، فقبل تفسير المحافظين لها على انها يجب ان لا تصل الى حدود اللامركزية الرأسمالية، وتغاضى عن ترحيب المجددين بها كخطوة نحو ما هو أبعد بكثير من رؤية المحافظين لحدودها.إن الأمين العام الجديد لا بد انه قرأ بتمعن تاريخ بلده روسيا، وتاريخ حزبه الشيوعي . . .قرأ محاولات التحديث القديمة والجديدة وعرف على نحو كاف موقع السلطة من هذه المحاولات .

يقول التاريخ القيصري ان بطرس الأكبر قاد أهم عملية تجديد في تاريخ روسيا، فلقد أقدم مؤسس أسرة رومانوف على تحطيم التحالف المقدس بين الكنيسة والكرملين، وصادر أجراس الكنائس ليصنع منها المدافع، وأسس جيشا عملاقا رفع روسيا من قاع التخلف والشعوذة والضعف الى أوج القوة والنفوذ، وبفضله إتسعت الإمبراطورية الروسية لتضم الاراضي التي أقيم عليها الإتحاد السوفيتي فيما بعد،وبفضله تحولت الامبراطورية الى دولة صناعية كبرى. إن بطرس الاكبر الذي أقدم على كل هذا كان حريصا على الامساك بمفاتيح السلطة الحاسمة، لم يتوان من اجل ذلك عن التنكيل بخصومة، لقد نفى شقيقته القوية الى سيبريا، واودع زوجته المتآمرة الدير، وقتل إبنه المتهم بالتواطؤ مع المتآمرين، وأعدم بيده عشرات الضباط الذين تجرأوا علي الوقوف في وجهه . . . لم يكن باستطاعة القيصر الشاب آنذاك ان يقطع خطوة واحدة نحو حلم روسيا الجديدة الا بعد أن قطع الاف الرقاب في معركة السلطة.

كان حازما وحاسما ومبادراً . . .ويقظا ايضا . . .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقول التاريخ السوفيتي ان نيكيتا خروتشوف، الذي عاش الحقبة الستالينية كلها، قام بمحاولة اصلاحية. كان لا بد من اعطاء الشعب والحزب حقنةإنعاش قوية بعد قرابة ثلث قرن من العهد الستاليني شديد القسوة والفظاظة والدم. لقد امكن لخروتشوف ان يحكم تسع سنوات استطاع خلالها الحفاظ على وتيرة تقدم الدولة العظمى في الطريق الإشتراكي المرسوم، الاأنه في نهاية الأمر وجد نفسه محكوما للعبة الاصوات داخل المكتب السياسي، حيث تمكن الحرس القديم من الانقضاض عليه وإخراجه نهائيا من الحياة السياسية.

إن من يقرأ هذه العبر والدروس القيصرية والسوفيتية لا بد أن يمتليء حذرا من الاطارات والقوى التي تملك قدرة الحفاظ عليه، أو الإطاحة به لذا انصرف الأمين العام الجديد الى تعزيز سلطته في المكتب السياسي واللجنة المركزية، ولم ينس اسناد مفاتيح الجهاز العملاق لمن يثق بهم على الاقل لبعض الوقت. ان اكثر الخطوات جرأة كانت زرع رجلين مؤهلين في مواقع مفاتيح الدماغ الحزبي والاداري . . الأول الكسندر ياكوفيف الذي اسندت اليه مهمة الدعاية والتعبئة في اللجنة المركزية. كان الرجل متمردا على الحزب، وصاحب ملاحظات جارحة تمس الزعيم لينين نفسه . . والآخر ناتولي لوكيانوف الذي تسلم منصباً إدارياً في الحزب .

كان اندروبوف قد فتح الطرق امام قادة شبان لمساعدته على تنفيذ تطلعاته الإصلاحية، فما كان من خلفه – غورباتشو – سوى وراثتهم،فظهر ريشكوف كممثل لجيل الشباب، وكلف برئاسة الحكومة، وظهر ليغاتشوف كقائد نظيف الكف . .أميناً على الأيدولوجيه المقدسة . .وظهر شيفرنادزه، وتشيرنينكوف، وغيرهم من الأسماء اللامعة كفريق عمل ذي خصائص نوعية متفردة تحيط بالأمين العام وتعمل معه .

إن اصلاح الدولة العظمى . . يرتبط نجاحه او اخفاقه بالعالم الخارجي. لقد كان اندريه غروميكو . . رمز السياسة الخارجية السوفيتية على مدى ثلث قرن، والذي اشتغل في السياسة منذ منتصف العهد الستاليني قد طبع السياسة الدولية ببصماته المميزة . . . انه الرجل الذي قاد دبلوماسية الدولة العظمى وفق قاعدة الإندماج بين الأيديولوجيا والسياسة، غروميكو هذا، لم يعد له مكان في الترتيب الجديد للقمة . . لقد تم ايداعه في فترينه بروتوكوليه اسمها رئاسة الدولة، وأسند منصبه الأهم للزعيم القادم من جورجيا ادورد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شيفارنادزه. العالمون ببواطن الأمور أو حتى القريبين من رجال القمة، أدهشهم إختيار شيفارنادزه وزيرا للخارجية. لم يكن الرجل قد مارس أي عمل ديبلوماسي طيلة حياته الحزبية والسلطوية . . لم يكن مؤهلا مهنيا لهذا المنصب الخطر بيد أنه كان يملك المؤهل الأهم . .ثقة الأمين العام بولائه المطلق له . . ويقال في موسكو ان شيفرنادزه إن لم يكن أول من اقترح البريسترويكا فهو على الأقل من فاتحه صاحبها بها، لقد جاء شيفارنادزه من اجل تنفيذ التحول الأعمق في السياسة الخارجية السوفيتية والذي يمكن تركيز عناوينه على النحو التالي :

* عزل الأيدولوجية عن السياسة.
* توازن المصالح بديلا عن توازن القوى.
* تسريع وتيرة الخفض المتبادل للتسلح.
* التهيئة لإنهاء الحرب الباردة.

إن هذه العناوين تعني إنقلابا شاملا في منطلقات وآفاق السياسة الخارجية للدولة العظمى . .إنها تعني على نحو بديهي . . التخلي المفاجيء عن وضع الدولة العظمى في معادلة القوى الكونية.

في العام الأول لولاية غورباتشوف . . انتبه العالم للزعيم الجديد، وإنتبه الحزب لطلائع الخطر القادم .

كان ميخائيل غورباتشوف يعد العدة للحصول على شرعية توجهاته الاصلاحية، وبيت الشرعية الوحيد هو المؤتمر العام للحزب الشيوعي . . إن الأمين العام الجديد لا يزال يمشي على أرض ممهدة، وان عمليةالترويض المزدوج تشق طريقها بوتيرة لا بأس بها، فالمحافظون يقبلون على تلقي طلائع الأفكار الجديدة، ويكتفون باختلاق تفسيرات تبسيطية لها، والمجددون يظهرون سخطهم حيال بطء التقدم الاصلاحي وضيق مساحته، غير أنهم جميعا المحافظون والمجددون، لا يملكون مكانا لاحراز النقاط سوى الحزب (وقد عقد في العام ١٩٨٦ مؤتمره العام). في ذلك المؤتمرحاول ميخائيل غورباتشوف تكريس لعبة السلطة بصيغها المفضلة للزعماء العصريين: يمين، يسار، ووسط. كان اليمين قد نما حول رمز جديد له هو ايغور ليغاتشوف حليف الأمس، أما اليسار الإصلاحي فقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان متحدا في اللغة ومتناثرا في الأفراد والهيكلية التنظيمية، ولقد ساعد هذا الوضع الأمين العام على اللعب بحرية أكثر. كان يتعامل مع افراد ذوي أفكار على جبهة اليسار، وكوادر وقيادات ذوي تحفظات وتخوفات على جبهة اليمين. كان اليسار لا يملك، وهو في بداياته، سوى الرهان على الأمين العام الجديد، أما اليمين فكان في محصلة الأمر مضطراً للإذعان الى القرارات الحزبية، التي وفرتها كما ينبغي ان تكون، براعة غورباتشوف في التكتيك الداخلي .

كان زعيم الحزب في موسكو بوريس يلتسن، والذي يدين بموقعه لغورباتشوف قد إتخذ من الأفكار الجديدة للأمين العام أرضا يقف عليها لاشهار معارضة صاخبة لكل جوانب الفساد والإنحراف والجمود في الجهاز الحزبي والإداري. كان قد ظهر ومن خلال موقعه الحساس كنموذج ثوري شديد الجرأة في الإفصاح عن رأيه وموقفه. لقد أدار حملته التحريضية معتمدا على نبض الشارع المكتظ بالإنفعالات السلبية تجاه الحزب والجهاز الإداري. كان يلتسين، وهو يتحدث في مؤتمر الحزب، يخاطب الجماهير العريضة التي ضاقت ذرعا بإمتيازات القادة وترفهم وسطوتهم الماحقة على كل شؤون حياتهم . . لم تكن أجهزة الاعلام المركزية بادىء الامر مستعدة لبث خطب يلتسين الجريئة عبر منابرها سوى أن هذه الخطب كانت تصل الى كل زاوية في روسيا، وتنتشر كإنتشار النار في الهشيم عبر منشورات سرية .

لقد حاول الأمين العام الافادة من جهود يلتسين ونجاحاته الشعبية، إذ أن أمين موسكو لا يزال بلدوزر البريسترويكا والمروج لها بجدارة منقطعة النظير، كما أنه « البعبع» النموذجي الذي يخيف به الامين العام غلاة المحافظين ...

لقد سرت في أوساط الحزب آنذاك مقولة تصف يلتسين بالضمير العلني لغورباتشوف، وكان الأمين العام سعيدا بذلك . . . اقر المؤتمر السابع والعشرون للحزب جميع الأفكار والتوجهات التي تضمنها التقرير السياسي الشامل، لقد استخدم الأمين العام في صياغته الحذرة لتقريره - مفردات حزبيةتدغدغ مشاعر المندوبين القادمين من جهات الامبراطورية الأربع، كان لا بد من عمل ذلك من اجل تمرير نقطتين هما الأخطر .

الأولى: ضرورة التحول الى مبدأ الادارة الذاتية في الاقتصاد، أي التخلص من مركزية الانتاج وهي بالضبط عصب إقتصاد الدولة الإشتراكية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والثانية: الغلاسنوست اي اباحة الحوار العلني العام .

إن سدنة الحزب الذين انصاعوا للموافقة على هذين التحولين كانوا، في واقع الامر، يعتمدون على قدرة الجهاز العملاق، في جعل العبارات مجردحبرعلى ورق. إن للمحافظين تفسيرا مختلفا عن تفسير المجددين لمبدأ الادارة الذاتية، انه تفسير يستبعد تماما امكانية اي تغيير في البنى، او اي تفعيل على صعيد النقابات، وبالتالي فان صمام الأمان الأول والأخير هو الجهاز الذي سيتولى تنفيذ المباديء النظرية او الاسترشاد بها. كانت ظاهرة التضامن البولونية تخيم على عقول وأفئدة حراس الماركسية اللينينية، وكان الرعب في توسيع دور النقابات في الحياة العملية يملأ نفوس أرباب الحزب القائد. إن النقابات المنتخبة على نحو ديمقراطي تعني بداهة اقصاء جيش المتنفذين عن مواقعهم الحاسمة في وسائل الانتاج والادارة فضلا عن أنه سيفضي حتما الى جعل التخلص من مركزة الاقتصادي امرا حتميا. إن الادارة الذاتية أو التسيير الذاتي هي النقيض الموضوعي « للمركزة» وحين يتم اعتمادها فذلك لابد أن يؤدي الى تشكيل صيغ وبنى ادارية وتنظيميةوربما تسويقية مختلفة عن ما هو قائم منذ سبعين سنة .

لقد انتفض الحرس القديم – داخل المؤتمر – في وجه هذه الصيغة، وقدم يغور ليغاتشوف تحديدا ماركسيا لها، غير أن الأمين العام تعامل مع الموقف بدرجة عالية من الدهاء اذ تبنى التفسير المحافظ للصيغة الجديدة مراهنا على أن الأزمة الإقتصادية المتفاقمة وعجز المحافظين عن حلها سيوفر له فيما بعد امكانيات إضافية تساعده على جعل صيغة التسيير الذاتي بمثابة خطوة تحول نحو ما هو اكثر جسارة – اي اقتصاد السوق – .

إن ميخائيل يرغيفيتش لا يزال يواصل ترويض حزبه الضخم، ويقوم بعمل شبه اسطوري « غسل الادمغة جماعيا وكتابة مفاهيم جديدة عليها». ورغم صراخ وانين القمة والقاعدة على السواء فان العجلة الغورباتشوفية أخذت تشق طريقها نحو أهدافها المحددة دون خوف من المقاومة المترددة التي تواجهها .

قد يخالفني بعضهم حين استخدم كلمة (مقاومة مترددة) نظرا لضراوة الهجوم الذي شنته القوى المحافظة على من يريدون هدم المعبد الإشتراكي، وهنا أجتهد بالقول ان ضراوة، وحتى ضخامة الامكانات السلطوية المتوفرة لدى المحافظين لم تكن ذات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تأثير يذكر حين يكون صانع التحول هو الأمين العام للحزب، ومعه أعضاء مهمون في المكتب السياسي فضلا عن ان من بدأت الشكوك تحيط به « كمتآمر على الحزب والدولة الاشتراكية » يتفوق على زملائه المحافظين بميزة جوهرية الاوهي محاولته الجسورة لتقديم الجديد، بينما سدنة الحزب لا يملكون سوى إجترار القديم، وعرضه على الناس الذين فقدوا الثقة تماما، ولم يعودوا يروا أفقاً مشجعا للخروج من التردي المتواصل لحياتهم اليومية بأبسط مقوماتها.

كان غورباتشوف، ومن خلال مفاداته بالغلاسنوست، او الحوار العلني الصريح والعام قد عقد العزم على تطويق خصومه في الحزب بطوفان شعبي جارف، انها المجازفة الاكبر التي اقدم عليها الامين العام حين اقدم على تأسيس حزب البريسترويكا الشعبي الذي ينمو على نحو خيالي يوما بعد يوم. كان الامين المصلح يغذي حزبه الشعبي بظهور دائم على شاشات التلفزيون، ونزول غير متحفظ الى الشارع. كان لايزال في العام ١٩٨٦ الزعيم الشعبي المميز والواعد والمضحي « بالالوهية» التي تميز بها أسلافه من الامناء العامين .

لقد بهر الحزب والشعب حين رفض تسمية البرنامج الذي أقر في المؤتمرالسابع والعشرين باسم برنامج غورباتشوف معللا ذلك برفضه المبدئي الحاسم لكل ما يشي بعبادة الفرد.

ان ميخائيل سير غيفتيش – حين اقدم على هذه التضحية المعنوية – كان ينظر الى الامام. لم يكن جاهزا لتحمل الفشل فآثر ان يمنح تسمية البرنامج لحزبه العظيم .

كان العام ١٩٨٦ هوعام الدخول الى حصون الأزمة الاقتصادية فما ان اختتم المؤتمر اعماله حتى انصرف الامين العام الى معالجة الأزمة الاقتصادية .

لقد بدأ المصلح العظيم النزول الالزامي عن عرش الشعارات الاصلاحية المدوية الى « ارض الأزمة » حيث ملايين التفاصيل والجزيئيات المجهولة له، ولكل من اسند اليه دور اقتصادي من قبل الزعيم. ان استنتاج العناوين العامة للازمة امر في غاية السهولة، اما تحديد عناصره وكيفية معالجتها فتلك هي المعضلة. ان الأمين العام يبدوا حائراً في امر بديهي: من أين يبدأ. ان معالجة الأزمة الاقتصادية في سدس الكرة الأرضية وداخل حصن التجربة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاشتراكية ذاتها لم يعد ممكنا بمزيد من التجارب والاشتراكية المبتكرة، ذلك ان الاداة المنوط بها مهمة المعالجة هي الادارة ذاتها التي اوصلت الامور الى ما هي عليه من تفاقم وتردٍ ، حتى المصلح الاكبر نفسه، وهو الان سيد البريسترويكا وسيد الثورة الاصلاحية الشاملة كان قد فشل فشلا ذريعا حين تسلم، ولفترة غير قليلة، مسؤولية الاشراف على الزراعة. لقد تدنى الانتاج في عهده الى أسوأ المستويات. إن ميخائيل سيرغيفتش سكرتير زراعة نجح في أمر واحد هو ايجاد التفسير المناسب لاسباب الفشل « قلة الصلاحيات وكثرة المعوقات » .

إن هذا التفسير سيكون عما قريب هو المتكأ الوحيد الذي يستند اليه الزعيم الاصلاحي حين يسأله الناس « اين نحن الان» .

كان ازدهار الغلاسنوست قد بلغ اوجه. لقد اشتعلت البلاد بحوار صاخب كان ممنوعا على مدى السنوات السبعين المنصرمة. كل المنابر الغت جميع الخطوط الحمراء، فصار بوسع اي شخص ان يقول ما يشاء، وان يدعو لما يراه أفضل السبل لإنقاذ البلاد من أزماتها. إن من يقرأ عينات من مقالات كبار الكتاب آنذاك يجد جامعا مشتركا بين ما كتبوا «تحليل حاذق لأسباب الأزمة، واقتراح مخارج عامة منها».

لقد استباحت الغلاسنوست تاريخ الدولة الاشتراكية منذ اول يوم من ايام الاعداد لإنشائها حتى اخر لحظة نعيشها في الثمانينات. كل شيء يبدو مكتظا بالأخطاء والاخفاق، وحينما انفتح الباب لـ «حريةالرأي» على مصراعيه فإن « ملطمة» على الماضي أقتدت ساحتها بمساحة الدولة العظمى، وخوفا من الغد انبثق في وعي الناس جميعاً، لم يكن لدى سيد البريسترويكا من وصفه لمكافحة القلق الشعبي سوى تلوين الخيال بأزهى الألوان « غداً حين نتخلص من البيروقراطية، وننهي السلطة الشمولية، ونجتث الفساد من جذوره، ونقصي قوى الجمود عن اطارات الحزب والدولة، ونستغل أفضل استغلال كل ما في باطن أرضنا من ثروات ساعتئذ ستكون الحياة اكثر إشراقاً، والغد أكثر وعداً، ساعتئذ نكون قد بدأنا خطوتنا الفعلية نحو تحديث دولتنا وتطوير مجتمعنا وإزدهار إقتصادنا » .

كان السوفيت يصفقون لهذا الكلام، ويتفاعلون معه ويتلذذون به. كانت الحرية الممنوحة لهم حديثا بمثابة الخمرة السحرية التي تملأ الروح بالبهجة وتفتح الباب واسعاً

امام الرغبات والامال الكبيرة. ان متعة التخلص من القديم طردت من وعي الناس محاولة التعمق في فهم ما يجري وما يمكن أن يحدث .

غير أن الأمين العام الذي اطلق الشعب من عقاله، ولون الآفاق بأفضل الألوان الوردية الزاهية كان ينزلق تدريجياً الى منطقة المحاذير الخطرة. إن العناوين العامة التي تبدأ غالبا بكلمة (لا بد من) يمكن ان تجند ملايين المحبين والمتحمسين، غير أن هذه الملايين ستجد نفسها في لحظة ما أمام السؤال أين ما وعدنا به، إن الذي يتعين عليه الإجابة هو ميخائيل سيرغيفيتش صاحب السلطة والمعارضة معا، إنه ينتقد الفساد والبيروقراطية والمركزية والجمود، وهذه جميعها من صنع الدولة التي يتربع على عرشها ويدعو الشعب للإنتفاض ضدها، وهو يعرف حق المعرفة أن الشعب الضحية لا يملك سوى الآهات والألم.

إن شيئا لم يتحسن حتى اللحظة، والحرية التي كانت هدية البريسترويكا الأولى تبدو كما لو أنها الأخيرة أيضا. لقد صارت عبئا على الدولة والحزب، عبئا على وعود البريسترويكا المغدقة. إن طعم الحرية لذيذ ودائم اللذة حين يقترن بالجدوى، أما حين يكون مجرد « فشة خلق » فانه يصبح لا محالة آفة المجتمع ومصدر آلامه وأحزانه، كان الأمين العام مدركا للحالة العامة التي وصلت اليها البلاد. إن طلائع التساؤلات الشعبية تلامس أذنيه في كل زيارة يقوم بها الى مدينة أو قرية أو منشأة زراعية أو صناعية. لقد بدأ الناس يفكرون في واقعهم على نحو اكثر عقلانية وهدوء. لقد منحوا سيد البريسترويكا حبهم وإعجابهم لقاء وعد بتحسين ظروف الحياة، وهذا الوعد لم يتحقق إذن فمن أين للمواطن تلك القدرة التي يتمتع بها السياسي أو الاعلامي على تفسير الاشياء؟! من أين له القدرة على تفهم تواصل البؤس والشقاء رغم وعود التغير والإصلاح ؟!

هنا بدأ الأمين العام على نحو مبكر عملية هروب الى الامام، هروب الى اللغة والذرائع والبحث عن الأضحيات .

لقد إعترف الامين العام بأن كل الذي تم إقتراحه لمعالجة الأزمة العامة في البلاد لم يكن كافيا. تحدث عن حقبة التغيير الجذري، وسمح بتداول مصطلح التحول الى إقتصاد السوق، وصعّد من حربة التحريضية ضد البيروقراطية والجمود، ووسع الدائرة إذ عرض هدفا براقا ومغريا للتعبئة الشعبية . . . ألا وهو محاربة الضاغطين على الفرامل، أولئك الذين يتربصون بكل محاولات الإصلاح ويخنقونها في مهدها .

كان الأمين العام شديد الخوف من زملائه المحافظين في الحزب الذين يعدون العدة للجم إندفاعه نحو مزيد من الابتعاد عن تعاليم ماركس - لينين. إنهم القوة الوحيدة التي تملك اسنانا واظافر، وتملك شرعية الإطاحة بالأمين العام . وبالمقابل كان يخشى حلفاءه المجددين الذين ما إن يتقدم خطوةنحو منطقتهم حتى يطالبوه على الفور بخطوة أخرى. لم يكن قد كرس بعد وعلى نحو مستقر تلك الصيغة المفضلة لحكام العالم الثالث ممن يحبون عرض أنفسهم كحكام عصريين،أعني بها صيغة اليمين والوسط واليسار .

كان تواقاً لان يجلس على عرش الوسط غير ان شيئا كهذا صعب التحقق في الكريملين لأن دعائم العرش لا بد ان تكون مزروعة في حقول الطرفين . . . أليسوا جميعاً أبناء طبقة سياسية واحدة .

في العام ١٩٨٧ كان غورباتشوف يتعرض لأصعب عملية شد وجذب. كان يتنقل بين منطقة اليمين واليسار محاولاً توزيع الحصص على نحو يرضي الجميع، ويوفر له مساحة من الوقت والحركة، ليس من اجل تنفيذ تطلعاته التي بدأت تبتعد، وإنما من اجل الحفاظ على سلطته المهتزة بشدة تحت وطأة التجاذب المحتد .

كان العام ١٩٨٧ قد شهد نوعا أوضح من الفرز بين اليمين واليسار. . . تكرس أيغور ليغاكشيف كرمز لليمين، أما اليسار الذي كان بمثابة أفراد ذوي تطلعات ووجهات نظر فقد كان أبرز الناطقين بإسمهم يلتسين أمين الحزب في أهم معاقله . . موسكو.

في المؤتمر الذي عقد قبل سنة كان يلتسين بمثابة الضمير المعلن لرئيسه ميخائيل سيرغيفتش، كان قد أدى دور المعلن الناجح عن الآفاق المستقبلية للبريسترويكا، وكان قد تحرر بشجاعة منقطعة النظير من المحرمات والإعتبارات الحزبية الصارمة، ولقد أغراه نجاحه في احتلال موقع القائد اليساري الى تحويل الدفة الى مجرى آخر. لقد وجد لنفسه معادلة شديدة القوة والتأثير والدوام . . مخاطبة الشارع بلغة مطلوبة وتوفير دعامات سلطته العتيدة خارج الحزب المترهل والمعزول جماهيريا. .» .

هنا لا بد من أن يشهر يلتسين تميزا كافيا عن الرجل الذي أحضره إلى موسكو، وسلمه مهمة قيادة الحزب فيها. كان لا بد من أن ينطلق يلتسين من أجل يلتسين وليس من اجل غورباتشوف .

حين تحدث في احد الإجتماعات الحزبية الرئيسية شن هجوما عنيفا على رمز اليمين إيغور ليغاتشيف، ووسع دائرة الهجوم ليطال ميخائيل سيرغيفتش شخصيا، واصفا إياه بالمتردد، والأنكى من ذلك، الخاضع تماما لسيطرة زوجته رايسا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تنبه غورباتشوف الى ان هذا المارد الذي كان مسجونا في قفص البريسترويكا الغورباتشوفيه قد خلص نفسه من القيد، وشرع في اللعب وفق أغراضه الخاصة فعمل على إحتواء الصدمة بالذهاب مؤقتا الى منطقة اليمين من اجل الاجهاز على المتمرد، وبعد ذلك يجدد الخطوة التالية ....

تم إقصاء يلتسين عن منطقة روسيا وأضحى الزعيم الشجاع شهيدا يستحق تعاطف الشعب. كانت ظواهر الأمور تشير الى أن بوريس نيكولايفتش قدخرج نهائيا من الحياة السياسية. لقد حوصر داخل الجهاز الحزبي، وأمرت صحافة الحزب بشن حملات تشهيرية ضده كرجل أرعن متهور، وفطنت المراجع الحزبية الى انه كان امين سر فاشلا لمنطقته، وانهالت المثالب كالمطر على صورة المتمرد فهيمن ركود على هذه الظاهرة المحيرة.

إن كل ما بدا على السطح كعوامل تشير الى خروج يلتسين من الحياة السياسية كانت في واقع الأمر عناصر فعالة لتوطيد مكانته في الشارع الروسي، كان الحزب الشيوعي صاحب القدرات الخيالية على العزل والإنهاء يمارس نوعا من الدعاية شديدة المفعول للشهيد، لقد صار يلتسين ممثلا لكل من هو غير شيوعي على أرض روسيا فضلا عن تواطؤ جيش من الإنتهازيين الشيوعيين معه بدافع من الرهان على إحتمالات عودته الى المسرح في وقت ما .

كان العام ١٩٨٧ عاما حارا مثيرا مؤثرا في رزنامة التحولات القادمة، أليس هو أيضا عام هبوط الهاوي الألماني ماماياس روست بطائرته الصغيرة في قلب موسكو مخترقاً دفاعات أقوى قوة عسكرية في العصر؟! ثم أليس هو الهجوم الصريح على السياسة الخارجية السوفياتية والدعوة لتغيير أسسها ومنطلقاتها وأهدافها ؟!

لقد أجرى الأمين العام تغييرات كبرى في بنية المؤسسة العسكرية السوفيتية على ضوء الاخفاق«الفضيحة». كان في أفضل مواقعه واكثرها ملائمة للاقدام على خطوة كهذه، وإذا كان الجدل العام حول البريسترويكا قد بدأ يصل الى صرح الأمين العام، ويزعزع عرشه إلا أن فضيحة ماماياس روست وفرت للزعيم فرصة مواتية للدخول الي حمى المؤسسة العسكرية «الخجلة من فضيحتها » وأحداث تغييرات هامة في بنائها العريق.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان ميخائيل سيرغيفتش، وهو يعاني من متاعب السلطة في عقر داره، يجد في رسائله المتواترة الى العالم، ورد العالم عليها، مجالا سهلا لتحقيق النجاحات الآنية. إن العالم الغربي سلط أضواءه المبهرة على ميخائيل سيرغيفتش كفرس رهان أناط به القدر مهمة إنقاذ البشرية من معضلة الحرب الباردة وسباق التسلح،ويواصل بطريقة فعالة تشجيع الرجل على الإقدام على مزيد من المبادرات الاصلاحية. لقد تكفل الاعلام الغربي العملاق بتزيين صورة الفارس المنقذ حتى صار ميخائيل سيرغيفتش منافسا لأهم الزعماء الناجحين في بلدانهم. ان مظهره الشاب والابتسامة الساحرة، وأناقة زوجته رايسامنحته تفوقا على مضيفه العجوز في واشنطن، حتى أن أحد استطلاعات الرأي افاد بتفوق شعبية غورباتشوف على ريغان داخل أمريكا ذاتها.

إن الإعلام الغربي هو الجيش الوحيد-الذي « وجد من أجل ان ينتصر فقط». لقد وقع ميخائيل سيرغيفتش في أسر هذا الجيش . . إنه أسر لذيذ ومغرٍ إنه على نحو ما أشبه بتلك الحبوب التي ما أن يبتلعها الشخص حتى يجد نفسه في عالم آخر. . . عالم سعيد مليء بالنجاحات والإنجازات المضمونة. لقد أضحى الغرب في فكر وسلوك المصلح الكبير عصبا حيا بل ومصيرياً . كان يتعين على قائد البريسترويكا ان يواصل تزويد جيش الاعلام الغربي بالمبادرات واللفتات الحضارية المبهرة دون ان يعي، ولو لمرة واحدة، أن الدخول في دوامة الاعلام يعني ببساطة الدخول الى محاذير الخلط بين الحقيقي والوهمي. إن روعةالصورة المرسومة بريشة الاعلام الغربي المقتدر تخفي وراءها خيبات أمل مؤجلة .

لقد استدعى غورباتشوف مؤتمرا لمثقفي العالم، وأفاض في الحديث أمام آلاف النجوم، ومنارات الإبداع عن رؤيته للعالم الجديد والعلاقات الدولية، وكيف يجب ان تكون، ودعا لوقف التسلح كضرورة حيوية غير قابلة للتأجيل. كانت قصيدة رائعة اطلقها المصلح الكبيروحازت على تصفيق مثقفي العالم، اما دهاقنة السياسة فقد إستخرجوا منها خيوطاً ينسجون بها حبل مشنقة الدولة العظمى .

إن مبادرات ميخائيل سيرغيفتش لتوفير مناخ دولي صافٍ كانت جميعها أشبه بمواعظ أخلاقية، تصلح بالضبط كسيناريوهات لأفلام خيالية تمنح الأحلام الإنسانية بألواناً جديدة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تحدث كثيرا عن توقه لفرض نظرية إستراتيجية جديدة على المؤسسة العسكرية السوفيتية العملاقة. تساءل لماذا ننفق المليارات في سباق التسلح؟! ولماذا يزهوجنرالاتنا بإمتلاكهم قنابل بوسعها تدمير العالم خمسين مرة؟! . . ألا يكفي مرة واحدة (١).

كان بمثابة التقديم الضروري لأخطر قنبلة إستراتيجية يفجرها الأمين العام على هذا الصعيد . . ألا وهي التدرج في خفض سقف القوة العملاقة من التفوق الى التكافؤ الى الدفاع الكافي .

إن صاحب هذه النظرية ليس كاتبا صحفيا أو روائيا حتى ينظر لإقتراحه على أنه مبادرة ثقافية أملتها دوافع إبداعية – إنها نظرية رجل يحكم في بلاده ويؤثر في حركة العالم بأسره .

إن أية مبادرة من جانب واحد لا تعني بالضرورة أن تقابل من جانب الطرف الآخر بمبادرة مماثلة. إن في الأمر شيئاً يشبه واقعة ذلك الذي رضي بخلع صاحبه لتصبح النتيجة خلفا من جانب واحد.

إن بيروقراطية الدولة السوفيتية ربما تحول دون تحقيق مبادرات الأمين العام وفق ما يريد، غير إن الجالسين في واشنطن . . يفهمون جيدا مغزى التنازل ويعرفون كيف يتعاملون معه .

إن واشنطن فهمت المغزى الجوهري لمبادرات سيد الكريملين. إنها البداية العملية للعد التنازلي. كان فهمها هذا مستندا الى يقين بفشل التجربة الإشتراكية، وترنح الدولة العظمى تحت وطأة الاخفاق الاقتصادي. إن الولايات المتحدة قائدة معركة التصدي للخطر الشيوعي، وللنفوذ الشرقي على الساحة الدولية تعرف جيدا عناصر وتفاصيل أزمات الخصم، وبداهة فهي تعرف كيف تدير سياستها تجاه تراجعات الطرف الآخر. كان لا بد من التقاط الخيط وتنشيط المحادثات حول الخفض المتبادل للتسلح. كان حيويا للغاية منح غورباتشوف إنجازا ملفتا على هذا الصعيد إذ جرى التوقيع على معاهدة خفض التسلح التي أدت الى تدمير صواريخ نووية متوسطة المدى وأقل مدى. كانت المعاهدة تقضي بأن يتخلص الإتحاد السوفيتي من عدد كبير من الصواريخ مقابل عدد اقل على الطرف الآخر. إلا ان الصفقة بحد ذاتها لقيت قبولا عاما في البلاد، إذ أنها كمؤشر على ان مليارات التسلح ربما تملأ المخازن بالخبز واللحم والزبدة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجنبا الى جنب مع المبادرات الجريئة على صعيد الحد من سباق التسلح، طرح الأمين العام أفكارا جديدة بشأن السياسة الخارجية للدولة العظمى .

لقد فرض غورباتشوف تحولات جوهرية على الأسس،حين عزل السياسة عن الايدولوجيه، واستبدل توازن القوى بتوازن المصالح، ودعا الى تطبيع العلاقات الدولية، والإسراع في وقف التنافس لمصلحة التعاون والتكامل،وأسهب في الحديث عن البيت الأوروبي وإنتماء الدولة السوفيتية العظمى إليه (!!!) وأظهر إستعدادا للإنسحاب من أفغانستان. إن الأنبياء وحدهم المدعومين من الإله كلي القدرة، من يقدم على طرح دعوات بهذا الحجم، وبهذا المستوى من التبسيط واليقينية. واذا كان بوسع الأمين العام في دولة الحزب الواحد ان يقدم على مبادرات من هذا النوع فإن الأمر على صعيد الطرف الآخر، أو الاطراف الأخرى بحاجة الى شروط أكثر تعقيدا من اجل الإستجابة وجعل أفكار مصلح الكريملين ممكنةالتحقق . . . غير ان القطب الذي التقط المبادرات على أنها مؤشر على نضوج أزمة الدولة الإشتراكية وإقتراب سقوطها، أو على الأقل تضاؤل قدراتها على التهديد، وإلحاق الأذى، تعامل مع الدعوات المنطلقة من الكريملين بأسلوب « الإمتصاص والترويض » .

كان الحديث في واشنطن يدورفي فلك الثناء على مبادرات غورباتشوف، ولكنهم في الوقت نفسه يتحدثون اكثر عن « المصداقية» التي هي موضع شك، أو بتعبير أكثر اخلاقية موضع «اختبار وتمحيص ». كان بريق البريسترويكا المنتظر في أرجاء العالم والمنطلق أساسا من منبع الإشعاع الاعلامي الغربي يخفي تحت ضوئه الساطع تفاصيل الأزمة المتفاقمة داخل البلاد . لقد نشأ وضع مزدوج، « صورة خارجية متألقة» يبدو فيها الاتحاد السوفيتي سائراً بقوة على طريق التألف مع العالم، والإسهام الإيجابي في معالجة قضاياه، وكل ذلك يشكل في ظل الشعار البراق « النظام العالمي الجديد »، وخلق الصورة بواقع تبدو فيه أزمة الدولة سائرة نحو مزيد من التعقيد والتعمق .

في أوائل العام ١٩٨٨ كانت الصورة على النحو التالي :

«شعور متعاظم بخيبة الأمل بعد مرور ثلاث سنوات على عمر البريسترويكا. . . تراجع ملفت في شعبية غورباتشوف مع تراخ في سيطرة الأجهزة المركزية بسبب احتدام الصراع على السلطة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

موسكو

حضرت الى موسكو في ذلك الوقت ربيع العام ١٩٨٨. كانت البريسترويكا التي سمعت بها، أو بمقدماتها، ترتسم أمامي عبر تفاصيل الحياة اليومية، وعبر أيقاعات التغيير المتسارع. إن أكبر مدينة في العالم وعاصمة أصعب طموح بشري تبدو في الربيع المشمس كما لو أنها تعيش خريفا مستديما. كل شيء في المدينة العظمي كالح باهت قاتم. إن الاشياء الجديدة التي تمنحها إشراقا عصريا لا وجود لها، البنايات الضخمة والشوارع العريضة والمخازن الفسيحة التي تخلو من محتوياتها تبدو أمام ناظري كفترينة تعرض بؤس وشقاء التجربة الإشتراكية وأزماتها، أما الناس الذين يروحون ويجيئون على الأرصفة العريضة ويصطفون في طوابير طويلة أمام المخازن العامة فقد كانوا التعبير الأكثر دقة عن الازمة العامة. كنت أسمع تأوهاتهم الحرى وهم ينتظرون تلك اللحظة التي يصلون فيها الى حيث يستطيعون الحصول على أبسط إحتياجاتهم التموينية .

موسكو هي الإتحاد السوفيتي، تقرأ على وجهها الداكن تاريخه وحاضره ومستقبله، وهي كذلك روسيا التي ظلت علامة فارقة لا تزول عن وجه المدينة وذاكرتها رغم مرور سبعين سنة على الثورة التي لم تطح بالقياصرة فحسب، وإنما عملت على الإطاحة بالذاكرة الروسية المحفورة سطورها على مدى مئات السنين .

إن موسكو الروسية تتجلى بأجمل بقعة معمارية في الدنيا . . ألا وهي الكريملين الذي بناه القياصرة، وأنجبته تلك الاحقاب المتواترة على هيئة مهيبة رسمتها ريشة التحالف المقدس بين الملكية والكنيسة. إن قبابه الخضراء وأبراج كنائسه الذهبية وصلبانه المتشابكة في الفضاء تعلن، مع كل نقلة لعقارب الثواني، ومع كل دقة من دقات الساعة، ان العلم الأحمر الخافق في سمائه إنما يحل ضيفا على التاريخ ولا أحد يعرف الى أي مدى سيبقى وفي أية ليلة سيرحل .

أما موسكو السوفيتية فتبدو كما لو أنها ترتدي موسكو الروسية . . . إن الرمز الآدمي للدولة العظمى، يرقد تحت كتلة ضخمة من حجارة مرمرية سوداء، إنه ليس مجرد ضريح لمؤسس الدولة بقدر ما هو «عرش» لحارس التاريخ، ولرقيب على تقيد الأجيال الماركسية اللينينية بالنصوص والتعاليم المقدسة. إن فلاديمير ايلتش النائم تحت لوح

زجاجي سميك يراقب بعينيه وأذنيه وروحه نبض الدولة العظمى. إنهم في كل سنة يعرضون افضل ما لديهم، على مرأى ومسمع النائم. إنهم يقدمون تقريرا إلزاميا عن نجاحاتهم الخارقة والمستمرة، ويؤكدون لصانع دولة الشغيلة أن الوطن الاشتراكي يواصل الإزدهار ويقترن بالخلود .وتقرأ على وجه المدينة، وفي جوفها، بصمات الرجل الفولاذي جوزيف ستالين. إنها الأكثر وضوحا وعمقا وإبهاراً . . العمارات السبع التي أراد بها تخليد إنتصار دولة الشغيلة في الحرب العالمية الثانية. لقد أمر أسرى الألمان ببنائها في جهات موسكو الأربع كي لا يخفى الإنجاز لحظة عن عيون الذاكرة. إن واحدة من هذه العمارات العملاقة تحتضن أكبر جامعة في العالم هي جامعة موسكو، أما الباقي فقد جرى استخدامه لبعض الوزارات ودور السكن .

إن كل شيء ضخم عملاق في موسكو يقترن بستالين، أي يقترن بالتطلعات الكبيرة لصناع الوطن الإشتراكي، وسدنة الحلم الأممي بجعل هذا الوطن قدر العالم .

إن لدى موسكو ولعا بالرموز القياسية من نوع اكبر شركة طيران في العالم، واكبر فندق على سطح الأرض، وأعلى برج يمتد في السماء . . الخ إن الأشياء الجبارة المنتشرة على أرض المدينة المترامية تفصح عن طموح جدي ودؤوب لجعل موسكو عاصمة العالم الأممي المرتقب .

وتحت الأرض صرح عملاق (أو بتعبير اكثر واقعية) انعدم وجود نظير له في اي مكان . . شبكة من شرايين اسطورية تصل أجزاء المدينة العظمى وتوفر لملايين البشر انتقالا مريحاً ومجانيا. انها احدى عجائب الكون «الأندرغراون». إن شبكة المترو في موسكوتتولّد يقيناً لدى الزائر يقينا بقدرة صناعها على حمل رسالة تغيير الكون .

إن تجربة ستالين الراشحة بالدم كانت من وجهة اخرى مكتظة بإنجازات الصروح العظمى. أنها المفارقة الأزلية في روسيا بطرس الاكبر واتحاد سوفيات لينين وستالين. أغرتني شمس الربيع الساطعة بجولة في المدينة التي سأعيش فيها وأعمل. كان صديقي ميلتشانيف يتولى دور الدليل السياحي والتاريخي – أنه يجيد العربية – ويعتنق الروسية، لم أسمع منه، على مدى جولتنا التي استغرقت اكثر من ست ساعات، كلمة واحدة عن الاتحاد السوفيتي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت الغالاسنوست قد بدأت تؤتي ثمارها اللذيذة والخطرة في الوقت نفسه، الحنين الى التراث، الى القومية، الى الشخصية الوطنية الصافية من كل الشوائب، وآفات التفاعل القسري مع الآخرين. كان صديقي يتحدث عن روسيا – على نحو بدا لي ان ما تمّ تحقيقه على مدى سنوات الدولة الإشتراكية الطويلة يلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد، مع ان الاعلام الحمراء لا زالت تخفق في سماء البلاد. لقد حدثني صديقي عن الناس كيف يفكرون، كيف يرون الأشياء في عام البريسترويكا الثالث. قال لي « ان كلمة دولة عظمى تثير إشمئزاز الكثيرين من الروس . . ان لم أقل جميعهم. إن شعوراً عاما إنبثق الى العلن بأن المواطن الروسي دفع ماضيه وحاضره ومستقبله من اجل هذه الدولة العظمى دون ان يهنأ بيوم رغيد من أيامها الثقيلة. إن روسيا تتجدد في روح الناس، وحين تنطلق فلا أحد يعرف على وجه التحديد، كيف سيكون شكل الدولة « العظمى ». إن ما قاله صديقي الروسي أفصح لي عن ان فهم البريسترويكا بدأ يتجاوز الخطوط الحمراء .

كان العام ١٩٨٨ يشهد جدلا شاملا اشتعل في طول البلاد وعرضها، لم يكن ليتركز حول موضوع جوهري واحد . . كان كل شيء قد أضحى معضلة فكرية الماضي، هل هو مدان بالمطلق أم أنه قابل للافادة منه؟!

– الاشتراكية . .هل هي قدر الشعوب السوفيتية ام مأساتها..؟

– الجيش العملاق . . هل هو ضروري ام ان بيعه في المزاد العلني أجدى وأسلم ؟

– الثقافة القومية . . هل هي ضرورة مجتمعية محلية . . أم أنها فيروس القضاء على روح المجتمع الإشتراكي الموحد ؟ .. لقد وفرت البريسترويكا والغلاسنوست مساحات واسعة للحديث حول هذه الأمور، وأطلقت العنان للأخيلة الجريئة كي تصل الى حيث تستطيع .

كانت مؤسسات الدولة في وضع يسمح لها باحتواء هذا الجدل، وتوجيهه « نسبيا» الى مسالك يمكن السيطرة عليها، فلا يزال الحزب هو السلطة الفعلية في البلاد، ولا زالت الأجهزة هي ذاتها صاحبة الكفاءة العالية في السيطرة والتحكم .

غير ان وضعاً كهذا، وبفعل ما يحيط به من جدل حاد وواسع في الحزب والمجتمع كان ينذر بمضاعفات أخرى، ذلك ان الحزب الحاكم الذي لازال متماسكا على صعيد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إطارته وصلاحياته يبدو حائراً في فهم العديد من الظواهر الجديدة المنبثقة من داخله . . إن قيادته العليا تشبه حكومة ائتلافية في دولة رأسمالية. إن الفرز داخل المكتب السياسي يبدو فكريا وسياسيا فلأول مرة في تاريخ الحزب العريق ينشأ داخل إطاراته على نحو علني يمين محافظ ووسط معتدل أو متردد ويسار جامح أو مغامر، لأول مرة في تاريخ الحزب يكون الأمين العام موضع إتهام بالتآمر على حزبه، ولأول مرة يسمح بتداول الخلافات القيادية على صعيد قاعدي .

أصدر محافظ الحزب البلاغ رقم واحد، كان مموها بتوقيع سيدة بإسم (نينا أندرييفا). ولقد نشر هذا المقال البلاغ في صحيفة سوفيتسكايا روسيا، ومما اعطى هذا المقال زخم البلاغ الحزبي كونه وزع على نطاق واسع، ووجدت الاف النسخ منه في صناديق بريد كبار موظفي الدولة والحزب ورجال الفكر والأدب والفن. كانت رسالة نينا أندرييفا هي أول شأن داخلي سوفيتي أواجهه في الأيام الأولى لوصولي موسكو فأحببت معرفة الخلفيات والآفاق .

طلبت الى زميلي سعيد أبو عماره تأمين لقاء مع شخصية حزبية على مائدة عشاء هادىء في منزله، وكان ضيفنا تلك الليلة أحد موظفي جهاز اللجنة المركزية « ونظرا لأن ما أكتبه ربما يثير مشاكل معينة للرجل فقد تشاورت معه في أمر الإفصاح عن إسمه فآثر أن يبقى مجهولا ..» .

في ذلك اللقاء شرح لي الضيف أزمة الحزب الشيوعي مع البريسترويكا والغلاسنوست والشارع العريض. كان وهو يتحدث منطلقا من الأفكار المنشورة عبر المقال المدوي . .يظهر حماسا شديدا لأهمية إحتكار الحزب الشيوعي للسلطة، وحتى السياسية من مختلف جوانبها . . أظهر الاحتمالات الكارثية للدعوات الجدية المناوئه علنا بأقرار مبدأ التعددية الحزبية كتعبير أكثر عمقا وجدية عن الحريةالمكتسبة . . وقال: أن الأمور تجري بإتجاه نزع الحزب، والقائه مكتوفا في الشارع حيث الأفواه جاهزة لإفتراسه . . . تحدث بمرارة عن الأمين العام الذي انجرف بعيدا في تيار الدفاع عن سلطته، وأسلم نفسه لدوائر هدفها المعلن والملح هو القضاء على الحزب . . وتحدث بتفاؤل ظاهر عن الكونفرنس القادم الذي سيشهد حتما أوسع عملية كبح للجام البريسترويكا وبدعها المدمرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان رجل الحزب يتحدث عن الامكانيات السلطوية الماحقة التي لا زال يمتلكها الحزب . . ولقد كان سطحيا في رؤيته لهذه الامكانيات إذ أنه لم ير موقع الأمين العام الفعلي الذي صار له أنصار من أعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية بوسعهم إفساد خطط المحافظين في وقف المسيرة وإعادة عقارب الساعة الى الوراء .

كان لا بد لي من تدقيق أفكار الحزب المحافظ من خلال حوار حول نفس الموضوع مع احد العلماء ممن يجاهرون بحماسهم للبريسترويكا، ويدعون الى مزيد من المبادرات الجريئة على طريقها .

دعوته لإلقاء محاضرة في مقر الممثلية . . وحرصت ان يستمع له جميع العاملين وجعلنا الحوار مفتوحا .

تحدث ضيف الممثلية عن الوضع الراهن داخل الحزب الشيوعي . . تلا علينا الفقرة الإلزامية حول البيروقراطية والنفوذ، والفساد والفشل، وأكد على أن الاصلاحيين في صفوف الحزب يشكلون أغلبية ظاهرة . . ولن يكون بعيدا ذلك اليوم الذي يتخلصون فيه من المحافظين وإمتيازاتهم « المخجلة». وأسهب الرجل في الحديث عن الجيش، وأفصح عن إستنتاج كان صاعقا لنا في حينه أن القوى المحافظة موجودة فقط على صعيد ثلاثين بالمئه من طبقة كبار الضباط أي الجزالات، أما الاغلبية الساحقة من الجيش فهي ديمقراطية إصلاحية. تحدث العالم عن روسيا المصادرة الملغاة الممحوة من الوجود . . وأفصح عن أن كادرات حزبية ذات وزن ونفوذ تفكر جديا في أمر تأطير الحزب الشيوعي في روسيا، إذ لايصلح ان يكون أكبر تجميع للحزبيين في الاتحاد السوفيتي دون إطارات مستقلة .

سأله أحد الحضور. . . ألا ترى ان ما تقوله يشير صراحة الى وجود بذور إنشاق حتمي في صفوف الحزب. .

أجاب . . بالطبع

. . . إذن ألا تشعرون بخطر فقدان السلطة نتيجة هذا الإنشقاق؟

أجاب: نتمنى ذلك . . فليتحمل الشارع ساعتئذ مسؤولية ملء الفراغ، كان ذلك هو أخطر ما سمعت . . ان ما يجري من صراع . . تجاوز حدود الإصلاح في اطار الحزب والمؤسسات القائمة. إنه أبعد بكثير مما يظهر على السطح، ذلك ان نسبة كبيرة من أعضاء الحزب ذهبت في تصوراتها الى حدود الإستعداد للتضحية به .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانوا آنذاك يعدون لكونغرس جديد يناقش ماتم إحرازه ويضع ما يتعين وضعه من نصوص لدعم برنامج الاصلاح، أو على الأقل وقف التدهور المتسارع للحالة العامة في البلاد. كان شيوعيو الإتحاد السوفيتي يتقاتلون بحدة حول الماضي المكتظ بالأوهام. وكان الجدل يتخذ منحىً فكريا آيدولوجيا بينما هو في حقيقة الأمر صراع على تلك الأداة العملاقة للسلطة . . . الجميع يريدها في قبضته وإن لم يتسن ذلك فإلى الجحيم .

إن الصراع الداخلي في الحزب الشيوعي أفرز في العام ١٩٨٨ حقيقة، كان المحافظون يرتعدون منها، بينما الاصلاحيون يرونها تقدما جوهريا على طريق البريسترويكا. هذه الحقيقة تتمثل في تراجع هيبةالحزب، ونشوء التعددية المؤطرة واقعياً في جميع أنحاء البلاد، ولجوء رموز التيار الاصلاحي الى الشارع من اجل إغراق الحزب المحافظ في طوفان من القوى الجديدة .

في العام ١٩٨٨ كان يبدو على السطح ان السلطة الفعلية لا تزال في قبضةالمحافظين: قيادة الجيش، الـ كي جي بي، وقوى الأمن الداخلي، وكان يبدو على السطح ايضا ان الجهاز العملاق قد حسم أمر ولائه للمحافظين الذين هم وحدهم من سيحمي الحزب ويكرس إلامتيازات السلطوية لاعضائه .

وما كان يبدو على السطح بهذه الصورة كان منطقيا لو نظر للأمر من تلك الزوايا التي ننظر منها الى أوضاع الكيانات العادية، أو دول العالم الثالث. أن المسالة هنا أكثر تشابكا وتعقيدا خاصة بعد أن أدخلت البريسترويكا إعتبارات جديدة يتعين مراعاتها من قبل جميع التيارات المتصارعة وأولها « الديمقراطية » .

إن الشارع بملايينه المتوثبة دخل الحياة السياسة، وها هو يشق طريقه بسرعة قياسية ليكون في وقت ليس ببعيد صاحب الكلمة الفصل في مصير البلاد، وحين يدعى الشارع ومن قبل الزعيم الشرعي للبلاد للمشاركة في الحياة السياسية، ويمنح حقوقا لم يكن يعرف بها من قبل، فبوسعنا أن نرى تحولا متسارعا في المسارات والإعتبارات والنتائج .

إن عشرات من الروابط والمنظمات والتجمعات بدأت تفرض نفسها على الشوارع السوفيتية في القلب والأطراف البعيدة، انها طلائع الجيوش التي ستدك حصون المركزية الصارمة، وتجر الاتحاد العملاق الى المسارات المفضية حتما الى تفككه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن ولادة الروابط والمنظمات والأحزاب لم تكن كما بدت في ساعاتها الأولى ثمرات أو زهرات أينعت في تربة البريسترويكا لأنها بمعظمها كانت أسماء حركية لحزم المتفجرات التي زرعت في أساسات البناء العظيم لتنفجر في القريب .

إن روابط الحفاظ على البيئة . . مثلا . . تنطلق سريعا نحو أهداف خطرة. انها تنادي علينا بنقل المفاعلات النووية، أو تدميرها، وحين يكون منشأ هذه الروابط إقليميا أو قوميا فبوسعنا تصور المضاعفات المنطقية لأنشطتها،فهي بلا جدال تنعش التفكير الشعبي في المصالح القومية المتعارضة مع وجود مصدر خطر على المجتمع .

وكذلك الأمر بالنسبة لروابط إحياءالتراث، إن هذه الروابط توقظ في روسيا تراثا روحيا جرى محوه خلال السنوات السبعين الماضية، الا وهو المسيحية التي تهيء روسيا في هذه الأيام من العام ١٩٨٨، للإحتفال بالذكرى الألف لدخولها، وحين تستقيظ في داخل الروس روح الأرثذوكسية فلا مناص من أن تستيقظ في المسلم روح الديانة المحمدية بتراثها البالغ الغنى سواء داخل روسيا الأوروبية، حيث يعيش قرابة عشرين مليون مسلم، أو آسيا الوسطى حيث عشرات الملايين، أما اليهود فقد كانوا جاهزين للمجاهرة ليس بتراثهم الديني وإنما بصهيونيتهم المغالية.

كان الشعور القومي الروسي ينمو بسرعة قياسية، ينتشركالنار في النفوس التي انهكها الفشل الإشتراكي وأضناها ثقل الأرث الروحي المصادر.كنت ترى في شوارع موسكو الكنائس والصلبان والقديسين على نحو لم توازيه في الكثافة صورة لينين وماركس وانجلز وغيرهم من زعماء الثورة الذين لم تتوقف المطابع لحظة عن إصدار صورهم وشعاراتهم وتعاليمهم، وكانت الساحات العامة وخاصة في الجمهوريات السلافية: روسيا وليلاروسيا وأوكرانيا تمتلىء بالمؤمنين الذين يشاركون بعشرات الألوف في القداسات. إن راعي الكنيسة في العام ١٩٨٨ كان يمتلك قدرات على تحريك الناس أكثر بكثير من تلك التي يمتلكها حزب الثمانية عشر مليون عضو .

لقد بدأت الظاهرةالروسية بالنمو والإنتشار، ولم تجد أجهزة الدولة ومؤسساتها، وحتى دوائر الحزب ما يمكن فعله لمواجهتها سوى إمتطائها ومحاولة الافادة منها،حتى نينا اندييفا صاحبة البلاغ المحافظ رقم واحد لم تنس مهاجمة البريسترويكا من زاوية روسية صرفة اذ لم تتورع عن إعتبار الأصولية الإشتراكية كتراث روسي يتعين الحفاظ عليه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن روسيا تشكل مساحة وعدداً ما يزيد عن ثلثي الدولة العظمى . إنها ليست مجرد شقيقه كبرى لأربعة عشر جمهورية تشكل الإتحاد السوفيتي، بل إسمنت البناء وأرضه وأركانه وسكانه. إن قرابة ثلاثين مليون روسي يعيشون في مجتمعات الجمهوريات الأخرى، ويحتلون مناصب أساسية فيها. ووفق أكثر التقديرات إجحافا بمساهمة الروس في حياة الدولة العظمى لا بد وأن تشير الأرقام الى نسب تفوق الثمانين بالمئة في معظم المجالات. إن بعضهم يرى ان روسيا كانت تستعمر باقي شعوب الإتحاد السوفيتي، ومثل هذا الإعتقاد يحتاج الى جدل طويل وإلى تعريف محدد لمفردة الإستعمار . . إن ما رأيته ولمسته ويشاركني في ذلك كثيرون . . »

إن هاجس الدولة العظمى كان يستعمر الجميع، وإن اكثر المستعمرين تضررا هم الروس ،كانت الدولة الإشتراكية قد وفرت لنفسها مقاييس محددة وصارمة، حاسمة لتوزيع الثروة والسلطة والنفوذ. كانت المواقع السلطويةبعيدة عن التأثر بالإنتماء القومي، وكان الحزبيون يرتقون السلم بقوة دفع الكفاءة الحزبية أو السلطوية، أو بقوة دفع الصراع المحتدم على النفوذ. لم يكن صعبا على إبن اذربيجان (حيث لم تتجاوز نسبة الشيوعيين هناك الواحد بالمئه) ان يصبح عضوا متنفذا في المكتب السياسي، أي من خمسة عشر شخصا يوجهون دفة سفينة الدولة العظمى. كما لم يكن مستحيلا على إبن قرية صغيرة من قرى دولة صغيرة في البلطيق أن يصبح قائدا لجيوش الدولة العظمى، أو وزيرا مسؤولا عن أهم مرافقها العملاقة.

غير ان ذلك أضحى موضع جدل من نوع جديد على صعيد الثلاثماية مليون سوفيتي، ذلك انه حين تنبثق الروح الروسية من رمادها فإن باقي نزلاء المبنى العظيم لا بد أن يفكروا بطريقة أخرى .

بدأت نوبات الجبهات الشعبية بالتشكل في جميع أنحاء جمهوريات الإتحاد السوفيتي. كانت الجبهات الشعبية هي البلاغ القومي رقم واحد الذي أعلنته شعوب الدولة العظمى لزيادة مساحة إستقلالها الثقافي والإقتصادي، تلك المساحة التي لا بد أن تصل أخيرا الى الإستقلال الكامل .

هنا يحسن رؤية مشكلة نوغورنو كاراباخ . . إنها النموذج الأكثر سطوعا على نهوض الشعور القومي، وفهم المصالح القومية، فلقد بلغ الصراع الأرمني – الاذربيجاني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أرض كاراباخ مرحلة الحرب العسكرية، وبالمقابل أشهرت هذه الحرب عجز الدولة المركزية عن معالجتها، كانت حرب آرمينيا – اذربيجان بؤرة النار الذي ستنتشر لا محالة ولكن بأشكال مختلفة في جميع أنحاء البلاد .

إجتمع الشيوعيون في العام ١٩٨٨، ولم يجد سيد البريسترويكا ما يعرضه من إنجازات مقنعة، أما المحافظون فقد عرضوا أكبر « ملطمة» جماعية في تاريخ التجربة الإشتراكية الطويل، لقد أسهبوا في طرح منهجهم المتناقض على النحو التالي. . . «ضرورة كبح جماح البريسترويكا» دون أن يقدموا سوى ذات الجمل والمفردات التي كانت تقدم في الإجتماعات الحزبية منذ تأسيس الحزب .

كان الكونفرنس في ١٩٨٨ بمثابة إعلان رسمي عن فشل التجربة الإشتراكية، ولو قيض لأي باحث ان يدقق في جميع كلمات المتحدثين من على منبره لوجدها خالية تماما من تلك الجمل التي كانت تطبخ في غرف الحزب المغلقة ليعرضها المندوبون كنماذج على التقدم المتواصل في الإنتاج والحياة : قالوا . . « ان الفلاحين يعيشون في نهايات القرن العشرين حياة الرق والعبودية، وآن الأوان لإعادة أراضيهم أو جزء منها لهم . . كي يأكلوا. إن الصحة العامة تتدنى بإستمرار، وإن نسبة الوفيات بين اطفال الإتحاد السوفيتي هي أعلى نسبة في العالم .

إن خمسين بالمئة من المدارس لا تتوفر فيها التدفئه ومياه الشرب والخدمة، وأن ضيق الأمكنة المخصصة للتلاميذ فرضت نظام التعليم بالتناوب. إن هذه الخلاصة المختصرة للوضع في البلاد قادت الى إستنتاج مفاده « أن سياسة الاصلاح الغورباتشوفية قد فشلت، ويتعين إيجاد طريق آخر لحل هذه المعضلات» .

أما غورباتشوف نفسه الذي لمس ضيق أعضاء المؤتمر بأفكاره ومسيرته المتعثرة، فقد أحرز نجاحه المدوي معتمدا على وضعه الشرعي كزعيم للحزب اذ حصل على موافقة الرفاق على تسليم صلاحيتهم السلطوية الى إطار آخر الاوهو « سوفيات نواب الشعب » .

إن سوفيات نواب الشعب الذي سميت الدولة باسمه، وحكمت الحياة «ظاهريا » باسمه أيضا كان في جميع الاحقاب الاشتراكية مجرد هيكل شكلي لبرلمان دولة الحزب الواحد. كان يجتمع بأمر حزبي وينفض بأمر حزبي أيضاً، وكانت مناقشاته وقرارته معدة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سلفا وفق ما يلائم القيادة الحزبية. ولا شك أن موافقة أعضاء المؤتمر على بند يمنح هذه المجالس سلطات فعلية كان ناتجا عن إستحقاق بقدرة هذه المجالس على الحياة، أو أنه كان بدافع فهم تقليدي لنصوص القرارات المليئة بالعبارات الضخمة، غير أن الأمر هنا كان أكثر خطورة وجدية من فهم القاعدة الحزبية له، ذلك ان صاحب النص الذي هو الرجل الأول في الحزب والدولة كان عارفا بما يريد. كان مالكا للقدرة الكافية على جعل النص نقطة تحول جوهرية في أداة السلطة وإطاراتها. خصوصا أن الأمين العام حرص وهو يمرر هذه النقطة المفصلية على تمرير نقطة أخرى وهي حق المسؤول في جمع عدة وظائف سياسية في وقت واحد، اي يحق لأمين سر الحزب في منطقة ما أن يصبح رئيسا لمجلس السوفيت فيها، ولكن شريطة أن يفوز في إنتخابات حرة، إما اذا فشل فليس من حقه بأية وظيفة.

إن آلة غورباتشوف تشق طريقها بسرعة وسهولة داخل إطارات الحزب ومؤسساته. إن الرجل الذي تجاهر القاعدة الحزبية بشكوكها المتعاظمة حول دوره التخريبي في حزبهم يسوق الأعضاء بعصاه معتمدا على براعة تكتيكية لم يألفها الحزب الرصين من قبل، ومعتمدا أيضا على عامل أكثر عمقا وفاعلية ألا وهو فشل الماضي وإنعدام أفق المحافظين فيما يخص المستقبل .

إن غورباتشوف نقل الحزب الى ملاعب جديدة، وفرض عليه قواعد ألعاب جديدة. إن المؤتمرات السابقة كانت تتحدث عن سبل الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية وسبل تجاوز حالة النجاح الأكيد في رفع نسبة الانتاج الى حالة متقدمة على صعيد رفاهية المجتمع . كل ذلك كان يتم معززا بأرقام جرى تنسيقها في مطابخ الحزب وزواياه التعبوية والاعلامية، أما الآن فإن الامر يبدو منقلبا تماما الى عكسه. إن الأعضاء يناقشون الفشل الذريع ويطالبون بنجاح صعب. إنهم مطالبون بعد ان حصلوا على درجة الصفر في مقررهم الاشتراكي ان يحصلوا على درجة مئة في مقرر آخر.

كانت البلبلة وإنعدام الرؤيا وفرض الموضوعات الجديدة على الحزب بمثابة الارض القوية التي وقف عليها غورباتشوف، وهو يجر حزبه نحو التحولات الكبيرة والسريعة، اما أعضاء الحزب فكانوا في واقع الأمر قد فقدوا الأسلحة الكافية للدفاع عن الذات .

إن النسبة العددية للمحافظين في مؤتمر ١٩٨٨ كانت أعلى بكثير من نسبة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المجددين، غير أن فشل المحافظين أضيف تلقائيا الى وزن المجددين فبدوا من خلال غورباتشوف، وبعض القادة الجدد في المكتب السياسي واللجنة المركزية على أنهم القادة الحقيقيون والفاعلون .

..إنتهى العام ١٩٨٨ على الصورة التالية ...

تحجيم نفوذ الحزب « دستوريا » ..

توسيع نفوذ الشارع « واقعيا » ...

المضي قدما نحو إنتخابات حرة . . . .

عام ١٩٨٩

نواب الشعب . . .

سألت صديقي الكسي تشيستكوف لمن ستعطي صوتك في الإنتخابات؟

أجاب الموظف الرسمي فورا لبوريس يلتسين وأضاف . . هذه رغبة العائلة . .

كان الحزب الشيوعي والدولة السوفيتية قد أعلنا حربا مفتوحة على مرشح دائرة موسكو . . كان لا بد من إسقاط أبرز رموز المعارضة الحزبية والشعبية، فلقد ذهب الرجل بعيدا في إنتقاداته اللاذعة للقيادة التقليدية ممثلة بليغاتشوف . . والمهادنة والمترددة ممثلة بميخائيل غورباتشوف. كانت ظاهرة يلتسين قد عادت من جديد لتفرض نفسها على الحياة السياسية السوفيتية بكل قوة، وكان بطل الظاهرة محظوظا بخصومة وأنصاره على السواء، فالخصوم وهم قيادة الحزب يوفرون له، ومن خلال حربهم المعلنة ضد قطاعات واسعة من الناخبين، أما الانصار الذين رأوا في الرجل حصان طروادة الذي يصلح الرهان عليه من اجل إختراق حصون الحزب ومراكز قواه . . فقد وفروا له حزبا متكاملاً يقوم بمهام بالغة الحيوية تبدأ من حشد الناخبين، ولا تقف عند توفير الأمن الكافي للقائد المستهدف .

إن ظاهرة يلتسين بدأت في ربيع العام ١٩٨٩ تكتسب أبعادا جديدة وتطور لنفسها آفاقا أكثر إتساعاً. لم تعد مجرد مظهر صارخ من مظاهر المنافسة الحزبية أو الإنتخابية، وإنما أصبحت مجال فرز سياسي أفقي وعامودي شمل قطاعات الشعب والدولة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن الذين يقفون وراء يلتسين ويجازفون بمواجهة جهاز الحزب العملاق دعما لترشيحه، والمستعدون الى الذهاب بعيدا من أجله ليسوا محاربين من نوع واحد . . أو يمثلون تيارا سياسيا او فكريا واحداً، إنهم من يسمون أنفسهم آنذاك القوى الديمقراطية مضافاً إليهم الكم الشعبي الأضخم الذي بدأ بوريس نيقولايفيتش بمخاطبته (باللغة الروسية) بدلا عن السوفيتية .

لقد تربع يلتسين على عرش الرغبات الشعبية، ومشى على بساط القوى الديمقراطية، وقطع ثلاثة أرباع الطريق نحو القمة بفعل محاربة الدولة له . . كان زعيما شعبيا روسيا . . وفرس رهان سياسي لكل أعداء الحزب، وشهيدا يستحق العطف كونه ضحية الحزب والأجهزة. إن رجلا وفرت له الأقداركل هذه العناصر والأوراق لن يهزم إذا ما جرت الانتخابات بصورة نزيهه فعلا .

كانت الحملة الانتخابية تجري في طول البلاد وعرضها بحرية تبدو في العديد من مظاهرها أكثر من اللزوم. كان المرشحون المتهافتون على الأصوات قد تغلغلوا في أعماق الرغبات الشعبية، وذلك يعني أنهم جازفوا بأول عملية إحتكاك جدي مع الشعب، ولقد أمكن للأذكياء من المرشحين التعرف على حقيقة مفادها « إن الحزب الشيوعي التقليدي ليس له في الشارع حتى أعضاؤه، وأن من يتطلع الى النجاح لا بد أن ينضم صراحة الى معسكر منتقدي الحزب والمشهرين بإمتيازاته ومظالمه.

كانت الحملة مهرجانا شهد أوسع عملية نقد ذاتي يمكن أن تقدم عليه طبقة سياسية إحتكرت الحكم في البلاد زهاء سبعين سنة. كان ذلك أكثر وضوحا في موسكو عرين الحزب القائد، أما في الجمهوريات الأخرى فلقد ظهر جليا أن من يريد النجاح فلا بد أن يشهر نوازع قومية تتواءم مع ظاهرة الحنين الى التراث والتوق الشعبي للاستقلال به.

كان يتعين على الملايين السوفيتية إنتخاب ألفين ومئتين وخمسين مندوبا لمؤتمر نواب الشعب، ووفق النظام الإنتخابي المعدل تتولى المؤسسات الإجتماعية والأكاديمية انتخاب سبعماية وخمسين عضوا من بين كوادرها أو قياداتها، كما يحق لقيادة الحزب تسمية مئة عضو دون الدخول في إنتخابات شعبية، أما الباقي فليجرب حظه مع الشارع .

لم يكن واردا بالنسبة للقيادة التدخل لفرض النتائج التي تريد، ذلك أن الإنتخابات الحرة ، أضحت إنجازا جوهريا من إنجازات البريسترويكا لا يجوز تشويهه بالتزوير أو

الاملاء من أي نوع. إن مصداقية غورباتشوف الداخلية والخارجية تتوقف على طريقة إدارة أول عملية إنتخابية حرة في البلاد.

كان المحافظون مطمئنين الى أوهام النفوذ الحزبي والسلطوي الواسع، فلم يخف قادتهم كثيرا من مفاجآت الصناديق فضلا عن أن النافذين منهم في الأقاليم، إتخذوا الاجراءات الكفيلة بنجاحهم من خلال إحتكار حق الترشيح كما لم يخلُ الأمر من ضمانات إضافية، إذ أن إنتخاب سبعماية عضواً من قبل المؤسسات الاجتماعية والأكاديمية لا بد أن يوفر وبسهولة نجاح مرشحي السلطة الذين سيكونون مركز ثقل برلماني يحافظ على مصالح الحزب ونفوذه داخل المؤسسة الجديدة.

إن حسابات غرف العمليات المغلقة في الكريملين، أو أل كي جي بي تظل عرضه للإخفاق، ذلك أن الشارع المنفلت من عقاله والحزب المرتبك والمنقسم والحائر، فرض على البلاد حالة جديدة، لم تكتسب أجهزة الدولة أية خبرة في التعاطي معها فضلا عن عدم قدرتها أصلا على فهمها، كان قادة الحزب على دراية قليلة بوضعهم على صعيد القاعدة. ويظنون أن الحزب العملاق الذي تعود العمل وفق تقاليد الألوهية القيادية لا يزال باقيا على ولائه، والأدهى من ذلك لا يزال متمتعا بنفوذه وكفاءته. كانت قلة قليلة من هؤلاء القادة تعرف الحقيقة وأولهم غورباتشوف الذي لم يكتفِ فقط بأخذ العلم بها، وإنما بادر الى خطوة الانتخابات الحرة من اجل مواجهتها .

كان جيش الانتهازيين الحزبي قد حسم أمره مع المؤشر الصاعد لمرشحي خصوم القيادة التقليدية أو المتمردين عليها، أما الشارع المبتهج بديمقراطيته الطازجة فكان اتجاهه واضحاً لمصلحة من يصطنع مسافة معقولة تفصله عن الحزب التقليدي وأجهزة سلطته .

في موسكو ورغم الحملة الحزبية المكثفة لاسقاط يلتسين، ورغم إقدام القيادة على ترشيح شخصية محترمة وناجحة لمناقشته إلا أن النتيجة كانت لمصلحة البطل المتمرد، فقد حصل في عقر دار الحزب علي تسعين بالمئة من الأصوات .

كانت نتائج الانتخابات الحرة تفصح عن مدلول عميق اذ فشلت سلطة الحزب، ونجحت كادرات الحزب التي انتقدت السلطة ووفرت لنفسها جسورا مع الناس .

غير ان نجاح الكوادر الحزبية الشابة، أو ذات الفكر الجديد، أوحتى الانتهازية المتسلقة على الرغبات والنوازع الشعبية لم يكن بالحدث الذي يوفر امكانات حقيقية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لاحداث تغيير، فقاد نحو الأفضل في البناء الحزبي أو السلطوي، ذلك ان الكثير منهم لم يعد حزبيا حتى لو إحتفظ ببطاقة العضوية في جيبه. إن حزبهم الجديد هو ناخبوهم، أما برنامجهم السياسي فهو رغبات من سيصوتون لهم في المستقبل .

لقد أسقطت الانتخابات الحرة رموزا حزبية كانت قد وفرت لنفسها ضمانات قوية للنجاح، وحين لم يترشح في مناطق سوى قادة الحزب فإن الشعب عرف كيف يثأر لحقه الديمقراطي فملأ الصناديق بأوراق مكتوب عليها «لا»، وبنتيجة الفرز لم يحصل المرشح الوحيد على النسبة المطلوبة التي تؤهله للفوز فآثر الابتعاد عن الحياة السياسية .

لقد اصبح الاتحاد السوفيتي برلماناً يعمل على الطريقة الغربية. أصبح بوسع الثلاثماية مليون سوفيتي رؤية ممثليهم على شاشات التلفزيون. أن الحصانة البرلمانية فهمت كما ينبغي أن يفهمها المحروم أليا منها (بوسع النائب المنتخب من قبل الشعب ان يقول ما يشاء)، لقد إنهار حاجز الرعب من السلطة القوية، وحل محلها إستخفاف شديد المغالاة برموزها. لقد وفرت الحصانة البرلمانية جرأة كافية لدى أحد النواب، وكان بطلا محليا للمصارعة الحرة ليعلن عن حق البرلمان في الرقابة على نشاط جهاز الـ كي جي بي. كانت مناقشات المجلس تظهر على نحو جلي مثالب الانتقال المفاجيء من العبودية المطلقة الى الحرية المطلقة. كان معظم النواب الذين تعودوا العيش الطويل في الظلام غير قادرين على التعامل المتوازن مع النور الساطع الذي أضاء عيونهم. إنهم لم يوفروا التاريخ فوضعوه على المشرحة وامعنوا في تسليط الأضواء على أورامه ومفاسده وأخطار الانتماء اليه، اما عن الغد فلم يكن باستطاعة اي منهم قول جملة مفيدة تصلح للإنطلاق منها الى معالجة جدية وفعالة للأزمة العامة في البلاد .

كان النقاش يحتدم ليل نهار والشعب يراقب ابطال ملحمته الديمقراطية الجديدة، لم يكن معظم ما يقال مفهوما لدى اؤلئك الذين تزداد طلباتهم تواضعا . (قليلا من الزبدة الاضافية والسجق)، كان البرلمان الجديد بمثابة التجسيم الأكثر واقعية لما آل إليه المجتمع السوفيتي بعد أربع سنوات من التحولات المتسارعة والتدهور المتسارع في جميع جوانب الحياة العامة. كان الكلام الدائر بين جدران القاعة التاريخية يختصر الحل الواسع والمحتدم على مستوى البلاد كلها .

كانت كتل برلمانية تتشكل حول موقف لينفرط عقدها حول موقف آخر جديد، وكان المحافظون الذين نجحوا وفق دعاية ليبرالية يتذكرون أصولهم الفكرية فيتخذون مواقف منسجمة معها ثم يتذكرون فيما بعد أصوات ناخبيهم فيتخذون مواقف مغايرة كان الجميع يتحدث في أمر الاقتصاد دون أن تظهر ملامح برنامج واقعي جديد، أو حتى أفكار واقعية مفهومة. كانت العناوين العامة للموضوعات الحيوية قيد النقاش وغالباً ما كان يجري الفرز على اساسها. لقد تولدت قناعة جماعية لدى الأعضاء بأن كل شيء قابلٌ للتحقيق إذا ما حاز على أغلبية الأصوات. كانت مناقشة مسألة التحول الى إقتصاد السوق تجري بالطريقةنفسها التي تجري فيها مناقشة منح الثقة أو حجبها عن رئيس الوزراء أو وزير الدفاع. إن البرلمان الجديد الذي نظر الى نفسه، ونظر اليه الناس في الداخل والخارج على انه رمز التحول المجيد نحو الديمقراطية في « إمبراطورية السر » وجد نفسه يصوت بأغلبية ساحقة على تشريع يحصر جميع السلطات في يد ميخائيل غورباتشوف الذي حظي بمنصب رئيس هيئة رئاسة مجلس السوفيات الأعلى الى جانب منصبه الأهم كأمين عام للحزب الشيوعي السوفيتي .

إن المثالب العديدة التي أفرزتها ظاهرة الإنتقال الفجائي الى الديمقراطية لم تؤثر في واقع الأمر على الهدف الجدي الذي سعى ميخائيل سيرغيفيتش الى بلوغه جراء فرض برلمان من هذا النوع . . الا وهو خلق السلطة الموازية التي لا بد أن تكون اما وريثة لسلطة الحزب المتراجعة، أو وعاءاً مضمونا تجمع في أجزائه المتناثرة .

لقد وفر غورباتشوف لنفسه وضعا سلطويا نموذجيا كان غيره من الاسلاف يوفره داخل الاطارات الحزبية الضيقة. إن ميخائيل سيرغيفتش جمع كل السلطات بيده، ولكن هذه المرة ليس بقرارحزبي، وانما بفعل قوة ديمقراطية شعبية. لقد وفرت له البراعة التكتيكية ارضية مضمونة داخل البرلمان ذي الالفين ومئتين وخمسين عضوا، فهل بوسع ذات البراعة أن توفر له سلطه فعلية على البلاد ؟

ما إن أطفئت أضواء الاحتفال بالعرس الديمقراطي، وهدأت النفوس المشحونة بانفعالات الحملة الانتخابية الضخمة، والاداء الديمقراطي الصاخب داخل أروقة البرلمان حتى وجد صاحب السلطة المطلقة نفسه يواجه من جديد أخطر وأصعب عملية تجاذب له من اليمين واليسار .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن محاولته الوقوف في منطقة الوسط ترتب عليه أثمانا باهظة يتعين عليه دفعها مع تعب لا نهاية له . . . اليمين الذي شتت قواه وثقلت قيوده يعمل بضراوة الذئب الجريح لجذب الأمين العام الى مواقعه في معركته الشرسة مع الشارع، وما يطفو على سطحه من قوى أفراد أسموا أنفسهم بالتيار الديمقراطي .

واليسار الذي ذاق طعم إنجازات البريسترويكا على صعيد الحرية الديمقراطية يريد من الأمين العام الذي صار رئيسا للبرلمان أيضا أن يطلق رصاصة الرحمة على بقايا المحافظين الذين لم يعد حزب الملايين الخمسة عشر، ولاجيوش السلطة المدربة جيدا بقادرة على حمايتهم من الشارع المتربص والديمقراطية الفتاكة .

لقد طويت صفحة الانتخابات على امتيازات سلطوية جديدة حصل عليها غورباتشوف، وبالمقابل فتحت بابا واسعا لتحديات جديدة جعلت من العام ١٩٩٠ عام النزول المتسارع للزعيم ولدولته معا.

سنة ١٩٩٠

بوريس يلتسين . . .

دخلت الأزمة السوفيتية عام ١٩٩٠ دون ظهور أي أفق لحلها، أو تهدئه وتيرة التسارع في إنحدارها. تقول الأرقام ان إنخفاضا عاما ظهر على جميع مجالات الانتاج ولا شك ان لكل ظاهرة سلبية تفسيرها الموسكوفي الجاهز، المحافظون يتهمون البريسترويكا بالاخفاق، ويطالبون بالعدول عنها، والعودة الى السلطة المركزية القادرة وحدها على وقف التردي، وأنهاء الفوضى المستشرية في البلاد، والإصلاحيون من جانبهم يتهمون المحافظين بافتعال الأزمات وخفض الانتاج وإخفاء المواد التموينية لتعبئة الشعب نحو الكفر بالعملية الاصلاحية والمطالبة بعودة المركزية.

حفلت الصحف آنذاك بأخبار لا أحد يعرف على وجه الدقة مدى صحتها تشير الى ان آلاف الأطنان من المواد التموينية وجدت ملقاة في عمق الغابات، وان عشرات المصانع أتلفت، او اوقفت عن الإنتاج بفعل مدبر.

كانت الأزمة العامة ترتسم على وجه كل سوفيتي، وتعرض نفسها عبر الخواء المروع في المتاجر والمخازن، وعبر ما هو أخطر من ذلك (الجريمة) التي صارت رفيقة الحياة اليومية في بلد كان من أقل بلدان العالم معرفة بها .

إن البلبلة الشعبية وصلت أوجها في هذه السنة، وأهل الحكم ينصرفون بالمطلق الى صراعاتهم الداخلية والتفتيش عن طرق جدية لتعزيز سلطاتهم .

عاد يلتسين الى المسرح السياسي بقوة مضاعفة، إنه الآن البطل الشعبي الأكثر شهرة ولمعانا. لقد حاز على تسعين بالمئه من أصوات ناخبي موسكو، وقد رأى أن ذلك يكفيه كتعويض عن التخلص من موقعه الحزبي الوحيد في البلاد .

لقد أدخل يلتسين تعديلات جوهرية على خططه وسياساته. لم يعد مهتماً بالحزب كاطار عمل أو كمركز قوة يستحق الصراع من اجل التقدم في مواقعه، بل تضاعف اهتمامه بأمر إنهاء سلطة الحزب عبر إنهاء إحتكاره البديهي لقيادة الحياة السياسية في البلاد واجازة التعددية الحزبية كضرورة ديمقراطية جوهرية. كان يلتسين وهو يجاهر بهذا المطلب يعتمد كثيرا على الشارع الذي لم يعد يقيم وزنا للحزب وادواته دون ان يغفل أهمية إستقطاب أعداد من الحزبيين يضيفهم الى القوى الديمقراطية كمادة ضرورية لبناء صرحة القادم، فلقد كان الرجل يتطلع الى إحتلال موقع رئيس جمهورية روسيا الاتحادية .

كان ميخائيل غورباتشوف على دراية بحجم التردي المريع لمكانة الحزب في الشارع، وكان موقنا من أن حزبه الضخم لم يعد قادراً على اداء دور فعال في مسيرة البريسترويكا. لقد شل الحزب تماما أمام الحقائق الجديدة المتكرسة في البلاد، وأبرزها آنذاك ظهور السلطة الموازية عبر مجلس السوفيت الأعلى المنتخب، وإستفحال عملية الاستقطاب الداخلي حيث صارت قاعدة الحزب كقيادته موزعه على محاور وتيارات ورهانات متباينة .

في فبراير من العام ١٩٩٠ أقدم ميخائيل غورباتشوف على خطوة جديدة بدت في حينه كما لو أنها تكمل خطوة خلق السلطة الموازية ممثلة بمجلس السوفيت الأعلى المنتخب، فقد طلب من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المبادرة بإنهاء احتكار الحزب للعمل السياسي في البلاد، وبالفعل وافقت الهيئة القيادية العليا على هذا الطلب ومن أجل حفظ ماء الوجه، وتفادي فضيحة الأستقالة العلنية لثمانية عشر مليون عضو من الحياة السياسية، جرى ابتكار تفسير نضالي أخلاقي ثوري لهذه الخطوة إذ قيل عنها انها مبادرة جريئة لارجاع الحزب الى الشعب كي يسير الاثنان معا على الطريق الديمقراطي المفضي الى اقامة المجتمع الديمقراطي الجديد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان الضعف قد اعترى الحزب لمجرد دخول أفكار جديدة اليه، وهو في أوج السلطة والتحكم المطلق بالبلاد، فكيف اذن سيكون حاله بعد ان جرد من كلمة السر التي وفرت له إحتكار الحياة السياسية في البلاد سبعين سنة « شرعية الحزب القائد ». كان ميخائيل سيرغيفتش يوفر لسيارته المتعثرة وقودا حزبيا، فقد أظهر براعة منقطعة النظير في ترويض الحزب، والمقامرة به في سوق التنافس السلطوي. إن الحزب، أضحى رصيدا ينفق منه رجل الاصلاح، اما لمهادنة خصومة الجدد ممثلين بيلتسين ومن معه، أو لدرء خطر انتفاضة محتملة للمحافظين الذين لا تزال اطيافهم ماثلة في كل زاوية من زوايا الدولة وهرمها السلطوي العملاق .

كانت إنجازات غورباتشوف تبدو أمام الضعف العام للدولة والاجهزة بمثابة حروب ناحجة، ولكن على طريقة دون كيشوت. إن رجاله بدأو التخطيط بقفزة جديدة في الهواء لعلها تنفع، فما أن وافق الحزب على الاستقالة من منصبه كمحتكر للحياة السياسية في البلاد حتى شرع مستشارو المصلح في البحث عن مخرج معقول من مأزق الفراغ السلطوي المحتمل، فانجزت مطابخ الرأي مخرجا جديدا . . الذهاب سريعا الى النظام الرئاسي .

إن تحديات السلطة تصل في كثير من الحالات الى حمل المصارع على نسيان هدفه الأسمى . . لقد فرضت عليه أهدافاً أكثر تواضعا، وذلك بدا جليا في حالة غورباتشوف سنة ١٩٩١، إنه الآن لم يعد في وارد اضاعة الوقت في التفكير بإنقاذ البريسترويكا، أو تحقيق تقدم على طريقها الاصلاحي لان ما يبدو أكثر أهمية وواقعية هو كيف يحافظ على بقائه في السلطة، وأيضاً يحافظ على الدولة موحدة ولو بأضعف الصيغ والأشكال .

في ربيع العام ١٩٩٠ – اتضحت صورة البلاد على النحو التالي . .

– تحول الى نظام رئاسي أصبح ميخائيل سيرغيفيتش بمقتضاه رئيسا مطلق الصلاحيات للدولة .

– تنامي نزعة الاستقلال لدى شعوب الاتحاد، وتأهب العديد من الجمهوريات، عبر إستغلال الفوضى والعجز على صعيد المركز، لاعلان استقلال سياسي كامل .

– نضوج الظرف الموضوعي لبلوغ يلتسين موقعه الجديد كرئيس لروسيا الاتحادية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان الامين العام يدرك على نحو يقيني ان نجاح بوريس يلتسين في معركة رئاسة روسيا يعني انتقال الصراع بين الرجلين الى منطقة اكثر خطورة، إنه إنتقال الى منطقة يلتسين حيث الزعيم الشعبي المنتخب، والذي لم يعد مجرد رمز لمعارضة غورباتشوف والحزب الشيوعي وإنما رمز لروسيا بكل إمكاناتها وتطلعاتها .

مرة أخرى يجرب رئيس الدولة السوفيتية الدخول في معركة كسر عظم مع خصمه الرئيسي، فقد حشد جميع الأعضاء الشيوعيين في البرلمان الروسي، واستجمع كل أوراق الحزب والسلطة للحيلولة دون بلوغ يلتسين موقع الرجل الأول في روسيا، غير أن ما حدث في معركة مؤتمر نواب الشعب حدث مثيله في معركة رئاسة روسيا، فلقد أخفق الحزب في اسقاط يلتسين، وعلى الرغم من ضآلة الأصوات التي وفرت له فارق الفوز فانه في محصلة الامر صار رئيسا لروسيا، وأضحى يملك مقومات منطقية تدعوه الى اقتراح تغيير عاصمة الاتحاد السوفيتي كي تعود موسكو الى روسيتها الاصلية (ذات يوم سنحت لي فرصة زيارة وزارة خارجية جمهورية روسيا الاتحادية، والتقيت برجل مشهور في عالمنا العربي كان يحتل موقع وزير خارجية أكبر جمهورية في الاتحاد السوفيتي وحتى في أوروبا ينزوي في شقة متواضعة تقع في شارع خلفي من إحدى حارات موسكو المعتمة .. كان ذلك مؤشرا شديد الوضوح على الوضع الكياني لروسيا في العهد الشيوعي . . كانت كجمهورية تحوي جميع المؤسسات المظهرية لدولة . . فكان لها مجلس وزراء ومجلس سوفيت أعلى، غير ان كل هذه المؤسسات والوزارات لم تكن لتزيد في واقعها الفعلي عن أجهزة مكملة في نواحي جزئية لأجهزة الدولة العملاقة ووزاراتها التي تزيد في عددها عن المئة).

إن الأمور قد تبدلت على نحو جوهري . . فهذه الجمهورية الملقاة تعود الى الحياة من جديد عبر رئيس يعمل على بعث مكامن القوة في بلاده، واللعب بها جميعا في لعبة تحطيم الكيان السوفيتي بصورته الراهنة لمصلحة كيان جديد تتصدره روسيا المستقلة. وهذا الرئيس الذي بهر الروس بشجاعته واقدامه وتبنيه المطلق لآلامهم وأحلامهم ومجاهرته بالعمل من اجل إعادة العملاق الروسي إلى واقع الحياة الوطنية والعالمية، يجد نفسه في صيف ١٩٩٠ محاطا بقوى سياسية تؤهله لتطوير طموحه كرجل أقوى من ذلك القابع في الكريملين. كان غورباتشوف قد تحول خلال السنة الأخيرة الى ما يشبه كيميائي يعمل في مختبر لاختراع تراكيب جديدة للكيان المتداعي والسلطة الآفلة، ذلك انها وبعد ان صار رئيساً على غرار رئيس الولايات المتحدة مع فوارق في المحتوى، أحاط نفسه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بفريق عمل أطلق عليه أسم المجلس الرئاسي . . إنه المطبخ الرئيس الذي يضم مفاتيح السلطة وبعض النماذج الرمزية من الكتاب والعمال والاقتصاديين، وإستعان بالسيد سنونو مدير البيت الأبيض الذي قدم الى الكريملين ليقدم لموظفيه النصح في كيفية تحويل القصر الامبراطوري الى بيت أبيض عصري يدير سياسة الدولة على النمط الامريكي . . كانت صورةسيد الكريملين تتخذ بعض السمات الكاريكاتيرية بفعل إنعدام الآفاق، وتواتر الأزمات، وتسارع الانهيارات. كان الفشل يطبع وجه المصلح الكبير وسلوكه ببصمات ظاهرة، وكان المتحفز للوراثة يتقدم بخطى واثقة نحو شراكة متكافئة في إدارة شؤون الدولة لبعض الوقت، أي حين نضوج الثمرة تماما وسقوطها كاملة في حجره .

شهد العام ١٩٩٠ لقاءات متعددة بين الخصمين المتنافسين، كانت الرياح تهب باردة تارة وساخنة تارة أخرى مفصحة عن أجواء الزعيمين، وإلى أي مدى وصل الانسجام بينها أو الاختلاف، غير ان الناس كانوا يلمسون ذلك التقدم المضطرد في النفوذ لمصلحة الرئيس الروسي الذي لم يغفل عن إطلاق إشارات بين وقت وآخر، تشي بطموحه الجدي اقصاء غورباتشوف عن سدنة الحكم بعد أن أدرك ان التخلص من غورباتشوف لا يمكن أن يتم دون التخلص من مبرر وجوده . . إذا لا بد من نهاية الإتحاد السوفيتي .

المؤتمر الأخير :

في العام ١٩٨٩ قدم مئة من أعضاء اللجنة المركزية إستقالاتهم. لم يكن الدافع كما فسر في حينه « بسبب شعور الاعضاء المسنين بضرورة إفساح المجال أمام الجيل الجديد، وإنما كان بدافع من يقين دفين في الأعماق بأن المركب على وشك الغرق فليغادرها من يستطيع ». إن أزمة الحزب أخذت في عامي ١٩٨٨، ١٩٨٩ إتجاها، فلم تعد أزمة فكرية ينقسم الناس جراءها بين طروحات تجديدية وأخرى تقليدية، كما لم تعد أزمة تنظيمية يتمحور حولها الصراع الداخلي نحو المواقع والنفوذ بل غدت وعلى نحو شديد الوضوح أزمة وجود ومصير .

إن قراءة لمؤشر وضع الحزب في البلاد منذ المؤتمر الأول في عهد غورباتشوف، وحتى ما قبل المؤتمر الأخير، أي على مدى السنوات الخمس الماضية تظهر بوضوح شديد حركة النزول المتسارع من القمة الى الحضيض .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في العام الأول ١٩٨٦ جرى التخلي عن مركزة الاقتصاد باقرار مبدأ الادارة الذاتية لوسائل الانتاج .

في العام الثاني ١٩٨٧ نشأت أزمة اليمين واليسار إذ وجدت متنفسا لها بتمرد يلتسين وإقصائه عن أمانة سر الحزب في موسكو لتبدأ عملية إنشقاق قاعدي .

في العام ١٩٨٨ إقرار الكنفرنس مبدأ منح السوفيات سلطات فعلية مقتطعة من السلطات التقليدية للحزب .

في العام ١٩٨٩ إتخذ الحزب قراراً بالتخلي عن إحتكاره للحياة السياسية في البلاد والنزول الى الشارع لبدء مسيرة ديمقراطية.

كان مؤشر الهبوط يتحرك، على طريقة عقرب الثواني، مرئياً وسريعاً وكانت حركة المحافظين الذين أناطوا بأنفسهم مهمة حماية الحزب من بدع البريسترويكا . .تبدو دائما شديدة البطء وقليلة الفاعلية. كانوا يضجون بالشكوى والتذمر، ويلوذون على الأغلب بالنصوص المودعة في خزائن الايدولوجيا. كانوا يحاربون من أجل سلطة نفوذ نهبت بنهم شديد من قبل شارع وهبته الديمقراطية المفاجئة أسلحة لم تخطر على بال محتكر السلطة والنفوذ منذ سبعين سنة، ومن قبل قوى فرضت نفسها على الشارع لتصبح ذات نفوذ اكبر بكثيرمن نفوذ الحزب في أوج ازدهاره. إن الحزب الشيوعي السوفيتي الذي تخلى عن إحتكار الحياة السياسية يتأهب لعقد مؤتمر عام جديد من أجل لملمة الأشلاء وتوحيد الكلمة كي يعيد علاقته بالشارع من موقع أفضل وبكفاءات تنظيمية فعالة. مندوبو المؤتمر العام سيأتون من كل حدب وصوب للنظر في أمور حزبهم المتعب تحت مطارق اليمين واليسار، والدائخ لكثرة الجري وراء مناورات الأمين العام وتضحياته المتواترة. بصلاحياته سيجتمعون لأول مرة في التاريخ كحزب متنازل عن السلطة يتعين عليه أن يعود الى نقطة الصفر من أجل بدء مشوار طويل لاستعادتها. كم يبدو الأمر ساذجا وغريبا، وكم يبدو عبثيا مع ذلك، فإن أحلام اليقظة تبعث في روح الانسان نشوة أمل يوشك على التحقق. لقد اكتمل عقد المؤتمر، وحين رأى المندوبون أنفسهم على نحو جماعي تخفق فوق رؤوسهم رايات الاتحاد الحمراء ويطل أمامهم تمثال لينيين العظيم سرت في روحهم حياة جديدة، فها هو الحزب العظيم يجتمع في عرينه – الكريملين – وهيهات لغوغائي البريسترويكا ان يمسوا قلامة ظفر من جسده العملاق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان بدهياً، والحالة النفسية على هذا النحو، ان تنهض داخل نفوس الأعضاء نزعات التشدد والتزمت والحنين الى القيادة المطلقة. حين إعتلى رمز المحافظين منصة الخطابة صفق له الجميع وقوفا، وقيل في حينه لو جرى التصويت اللحظة على من يكون الأمين العام بدلا من غوررباتشوف لفاز إيغور ليغاتشوف بأغلبية ساحقة. كان التصفيق لرمز المحافظين أشبه في حقيقة الأمر بتشييع صاخب لرجل سيعجز بعد أيام عن الحصول على أصوات تعيده الى عضوية اللجنة المركزية. لقد وقف العالم حائرا أمام هذه المفارقة الغريبة: تصفيق متحمس لخطاب رمز المحافظين، وندرة في الاصوات أدت الى « سقوطه. لقد ظهرت تفسيرات متعددة لهذه الظاهرة . . هنالك من أرجع الامر الى عبقرية غورباتشوف التكتيكية حيث قام بسلسلة من المناورات الانتخابية ادت الى تشتيت الاصوات، وبالتالي إسقاط الرجل القوي . . غير أن هذا التفسير يبدو شديد التبسيط لظاهرة من هذا النوع .

وهنالك من قال أن اطالة أمد المؤتمر لعشرة أيام افسحت امام الأمين العام فرصا كافية للتأثير على المندوبين القادمين من المناطق النائية، فاستمال مجموعاتهم بعد أن أمعن في كشف حجم المأزق الذي وقع الحزب فيه جراء الجمود وإنعدام التطور والتجديد .

وهنالك من رأى الأمر على حقيقته إذ أن الحزب الذي استقال من منصبه كمحتكر للحياة السياسية في البلاد لم يعد بعد كل المستجدات المكرسة في روسيا وغيرها من الجمهوريات بحاجة لمناضل أيدولوجي، وانما لرئيس يملك موقعا وصلاحيات وفي حالة كهذه لا بد أن يكون غورباتشوف هو الأفضل .

لقد صوت الأعضاء بأغلبية كافية لكل مقترحات غورباتشوف. كان الرجل قد صاغ حزبا جديدا في أيام معدودات، فلقد ادخل تعديلات جوهرية على الافكار والبرامج والاطارات التنظيمية. افرز المؤتمر لجنة مركزية مطيعة ومكتبا سياسيا اقرب الى جهاز الرئيس منه الى قيادة حزب عقائدي. كانت الأسماء ذات العيار الثقيل قد نأت بنفسها عن المسرح التأبيني في عرضه الأخير. انسحب اقطاب مثل شيفرنادزه، وياكوفليف متذرعين بالتفرغ للعمل ضمن المجلس الرئاسي، ومقدمين على مآثرة الزهد بالموقع الاسمى على رأس الهرم .

وأسقط إيغور ليغاتشيوف معه اية احتمالات مقبلة لظهور زعامة حزبية مناوئه للأمين العام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما بوريس يلتسين رئيس روسيا القوي فقد أعلن إنسحابه، إذ لا يجوز لرئيس مئة وثمانين مليون روسي أن يكون عضوا في حزب .

سنة ١٩٩١ م

إن كارثة الحزب بالتحول فعليا الى مجرد تركة يتولى الامين العام تصفيتها على طريقته الخاصة، وتحت ساتر دخاني اسمه المكتب السياسي الجديد، بدت أبسط بكثير من كارثة التفكك التي بدت على مدى العام ١٩٩٠ كقدر لا راد له يدهم الاتحاد ويعصف به. لقد اعلنت خمس جمهوريات هي: ليتوانيا وإستونيا وجورجيا ولاتفيا وأرمينيا الاستقلال. وقد تعامل رئيس الاتحاد مع هذه الظاهرة بارتباك وتردد، فلم يعد باستطاعته إخضاع متمردي الأطراف بالقوة، إذ أنه لم يفعل ذلك حين كان بوسعه فعله، أي منذ بداية أحداث نوغورنوكاراباخ وما تلاها من أحداث مماثلة في اماكن متعددة من البلاد. في ذلك الوقت كانت شعارات البريسترويكا الديمقراطية تقيد حركة الرئيس في استخدام الجيش حتى أنه حين كان يفعل ذلك على نحو حزبي (أثناء أحداث بكو وتبليسي) لم يكن يجد حرجا من التنصل فيما بعد وتحميل المسؤولية لضباط محليين . . . والأن في العام ١٩٩٠ وبعد تضافر شعارات البريسترويكا مع القوى الجديدة في الاتحاد والقوى المستجدة في الجمهوريات صار تدخل القوات المسلحة لاخضاع الجمهوريات المتمردة يعني مجزرة مروعة دون نتيجة مضمونة. كان الاستقلال عن الاتحاد السوفيتي بمثابة رغبة جماعية لدى أغلبية الشعوب التي أعلنت الاستقلال أو التي تتأهب لذلك . . . إن إستقلال شعوب الاتحاد السوفيتي لا يعني فقط إنعتاقا من هيمنة الدولة المركزية، والاستمتاع بحق تقرير المصير، وبعث الثقافة الوطنية والدين وكل ما تتوق اليه الشعوب لصنع حياتها، وانما يعني من جهة أخرى مشاكل متبادلة يصعب تجاوزها ازاءها أو تفادي دفع أثمان باهظة لها .

في لقاء لي مع مجموعة من المثقين في مدينة طشقند عاصمة جمهورية أوزبكستان ذات الأغلبية المسلمة . . عرفت كم هو عزيز على النفس أن يشعر الانسان بحريته في اختيار مستقبله . . . قال لي أحدهم « نعرف أن الانفصال عن الاتحاد السوفيتي سينزع عنا درع الدولة العظمى وسيولد لنا مشاكل على صعيد الاقتصاد والانتاج وربما التعايش مع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أبناء القوميات الاخرى المتواجدين على أرضنا، غير أننا على إستعداد لنسيان كل ذلك من أجل حرية يوم واحد » .

لم يفلح رئيس الاتحاد في ثني الجمهوريات عن التمسك باستقلالها- كان يدرك جيدا أن اللعب على الاطراف هو مقدمة للعب في منطقة القلب، فحتى الآن تبدو الدول التي إستقلت قليلة الخطر ما دام فايروس الاستقلال لم يصب بعد مجتمعات الاعصاب مثل روسيا واوكرانيا وجمهوريات آسيا الوسطى .

كان بوريس يلتسين يعزف على إيقاع إستقلال جمهوريات الأطراف لاخافة رئيس الاتحاد، ولإكتشاف المدى الحيوي لاستقلال روسيا وعلاقاتها المستقبلية مع الجمهوريات الاخرى. كان يرحب بكل استقلال جديد، ويواصل الدعوة لخفض مستوى العلاقة بين الجمهوريات الى أدنى حد ممكن، ويتحدث عن ممتلكات روسيا ومصالحها على نحو تكتيكي بارع. كان متأنيا على نحو ما في امر سحب البساط من تحت اقدام غورباتشوف كي تبلغ الامور نهايتها المرسومة بهدوء بعيدا عن احتمالات الانفجار ومضاعفات الفوضى. صار رئيس الاتحاد يكافح من اجل ايجاد حصة له في الكعكة التي يجري اقتسامها من قبل الورثة. انه يكتفي بحق الاشراف على السياسة الخارجية والدفاعية والأمن، وليأخذ الآخرون ما يريدون بعد ذلك . . كان طرحه هذا بمثابة هذيان وهلوسة غير منطقية فما الذي يدعو بوريس يلتسين الممسك بمقدرات البلاد الفعلية لان يمنح ما يراه حقا طبيعيا له الى رئيس لم يعد له ما يبرر وجوده اصلا، كان رئيس الاتحاد قد دخل طور إحتضار أخير، فهو يحاول إختلاق صيغ جديدة للمواءمة بين تنامي نزعات، وحتى إجراءات الاستقلال من قبل شعوب الدولة. العظمى وبين بقاء الدولة لقد ذهب بعيدا في إقتراح الصيغ مثل إتحاد فيدرالي تتمتع فيه الشعوب باستقلال اقتصادي وثقافي واداري مع احتفاظ المركز بتنسيق امور السياسة الخارجية والدفاع والامن. ولقد أجرى إستفتاء حول هذه الصيغة واشارت صناديق الاقتراع الى نجاحها الا أن ما أفرزته الصناديق لم يكن قادرا على الصمود أياما أمام ما يفرزه الشارع المضطرم بالأزمات والتطلعات المنفلته .

الإنقلاب . . . ١٩٩١ . . .

الثالثة صباح التاسع عشر من آب ١٩٩١ رن جرس الهاتف في منزلي بعمان،كان رنينا ملحا ملأ بيتي المكتظ بالأولاد رعبا من الخبر القادم وراء هذا الرنين، فأي خبر عادي أو مفرح لا يحتمل إنتظار شروق الشمس ؟؟!!

كان غانم على الطرف الآخر، وهذا الصديق لي معه تجارب كثيرة عبر هواتف من هذا النوع . . إذ في مثل هذا الوقت منذ عام مضى تقريبا أنبأني بإغتيال الشهيدين صلاح خلف (أبو إياد) وهايل عبدالحميد . . وفي ذات الوقت تقريبا، ولكن بعد أكثر من سنة أخرى، أعلمني باختفاء طائرة ياسر عرفات في عمق الصحراء الليبية . . عرفت من المكالمة أن مجموعة من مراكز القوى في الدولة السوفيتية قامت بتنحية ميخائيل غورباتشوف عن السلطة وتسمية نائبه جيانديّ يناييف رئيسا مؤقتاً للبلاد .

كانت الظروف قد وفرت لي لقاء مع القائد الجديد للدولة السوفيتية قبل أشهر قليلة، لذا كان وقع الخبر صاعقاً . . فإذا كانت تنحية ميخائيل غورباتشوف أمر يمكن هضمه بصعوبة فإن اختيار نائبه بديلا عنه، ولو ليوم واحد امر مستحيل الهضم. بعد ساعة جرى إتصال هاتفي آخر كان هذه المرة مع رؤسائي في تونس الذين لم يناموا الليل ترقبا للتطورات .

تشاورت مع الرئيس عرفات وأبو مازن، واتفقنا على أن أتوجه فورا الى موسكو، ومن هناك اوافيهم بصورة مبدئية عن الوضع مع إقتراحات محددة للمعالجة. كانت طائرة الملكية الأردنية على وشك الإقلاع من مطار عمان الى موسكو، وعلى جناحها الميمون وصلت الى عاصمة الانقلاب (عصر يومه الأول).

توجهت على الفور الى أشهر مكان في العالم آنذاك، الى المبنى الحديث الناصع البياض الواقع في مركز المدينة والذي حمل في حينه اسم البيت الأبيض الروسي تيمنا بنظيره الأمريكي، أو تفاؤلا بمستقبل مشابه. وعلى الطريق الطويل الممتد من مطار شيرميتيفو دفا أمكن لي رؤية بعض المظاهر الإنقلابية التي كنت قد رأيت مثلها في بعض بلدان العرب في عهود الإنقلاب الناجحة أو الفاشلة، دبابات تحتل مفارق الطرق، وجنود يعرضون أجسادهم بإسترخاء تحت أشعة شمس ما بعد الظهيرة، وأناس يتفرجون على

الدبابات، وبعضهم يحاول إفتعال حوارات مع راكبيها، غير أن شيئا لم أكن قد رأيته من قبل في بلادنا . . « اطفال صغار يتسلقون أبراج الدبابات ويعبثون بأسلحتها ويمازحون الجنود الذين هم أبعد ما يكونوا عن الوضع القتالي المألوف في حالات كهذه. أبلغني زملائي الذي كانوا في إستقبالي عن ملاحظاتهم حول ردود الفعل الأولية عن الانقلاب، فهنالك من إستخف به الفرح وشرع يعانق من يصادفه على نحو هستيري . . وهنالك من إرتعد خوفا من إحتمال قيام هذه الوحوش المعدنية الكاسرة بإطلاق نارها في لحظة ما .

كان المبتهجون بوقوع الانقلاب ينظرون للأمر من زاوية الثمن الباهظ الذي دفعوه من حياتهم وأعصابهم نتيجة التسيب العام الذي شمل البلاد، والعباد مع تواتر إخفاقات البريسترويكا، وإنعدام أفق حل الأزمة الاقتصادية الطاحنة، ان المبتهجين هم أولئك الذين لم يصلهم رذاذ النعمة المستجدة التي يتمتع بها نفر قليل من المواطنين ممن يستخدمون السيارات الاوروبية، ويرتدون أفضل الملابس المستوردة، ويستعرضون هواتفهم المثبتة داخل سياراتهم الفاخرة عبر مكالمات مفتعلة يلهون بها لتمضية دقيقة وقوف أمام إشارة المرور الحمراء. لقد ظن هؤلاء أن الانقلاب يعني العودة الى التساوي في الشقاء بدل التمايز في الغنى والبذخ، فضلا عن أن توق الناس لسلطة قادرة كان قد تنامى خلال العامين الماضيين على نحو خفف كثيرا من وطأة أنكار الماضي حيث كانت سطوة الدولة تبعد على الأقل شبح الفوضى والجريمة والغليان الأخلاقي والمسلكي .

غير ان قطاعا آخر من البشر، وإن كان قليل الحجم في البداية، الا أنه كان شديد الفاعلية توجه الى الساحة الرمز حيث مقر الرئيس الروسي بوريس يلتسين. أنبرى نفر منهم الى وضع المتاريس حول المبنى الكبير، فيما ركب فريق آخر إذاعة صغيرة تذكر باذاعات الحواري في بدايات الحرب الأهلية اللبنانية. وحين ظهر بوريس يلتسين ليعلن حربه على الانقلابيين، ظهيرة اليوم الأول كان جيش الديمقراطية قد اكتمل، وكانت الاطلالة البطولية من على ظهر دبابة قد حفرت عميقا في قلوب الروس الذين بهرتهم شجاعة رئيسهم. لم يكن الحشد الديمقراطي في ساحة البيت الابيض الروسي كما رأيته مع غروب شمس اليوم الاول متناسبا في الكثافة مع موسكو تلك المدينة الكبرى التي يزيد تعداد سكانها عن الخمسة عشر مليون نسمة. انهم بضعة آلاف يرفعون أعلام روسيا، ويافطات كتب عليها شعارات تمجد الديمقراطية وتندد بأولئك الذين تجرأوا صباح اليوم، وانتهكوا قدسيتها،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غير أن هذه البضعة آلاف دخلت التاريخ بل وأدخلت معها أكبر تحول شهده العمر الا وهو إنتفاضة المارد الروسي التي ستطيح فيما بعد وعما قريب بالكيان السوفيتي كله .

نعم كانوا بضعة آلاف، لم تكن الساحة والشارع العريض الممتد أمامها بمحاذاة نهر موسكو مليئة تماما بالمتظاهرين، غير ان فردا واحدا سجل لنفسه مأثرة الوقوف بصدره العاري امام دبابات مدججة بالنار، لا بد أن يكون أكثر فعلا في لحظة من لحظات التاريخ من آلاف اختاروا المكوث في المنازل إنتظارا للتطورات، أو حتى من كادرات الحزب القائد الذين لم يسمع بهم أحد لا كمعارضين لإنقلاب ولا كمؤيدين له. كانوا جميعا فيما يبدو ينتظرون فعل الدبابة كي تفتح الطريق ليقطعوه من جديد وبأمان الى مكاتبهم وهواتفهم التي منها وبها أداروا الدولة العظمى جيلا بعد جيل .

كان حشد البيت الأبيض الروسي قد أخذ بالتنامي بعد أن استدارت بضع دبابات مغيرة هدفها، وداعية يلتسين لإمتطائها كتعبير عن ولاء جزء من العسكرية الروسية لرمز روسيا الجديد ولم يكن هذا الحشد أعزل من السلاح، فلقد كان مدجج بكاميرات التلفزيون المحلية والغربية التي لم تتوقف لحظة عن بث المشهد الديمقراطي المتواصل حريصة على إختيار زوايا تصوير تظهرالآلاف كما لو أنها ملايين تملأ المدى اللامتناهي .

توجهت الى مبنى السفارة، واتصلت هاتفيا بصديقي سفير اليمن، إذ كان من أكثر السفراء العرب دراية بالأوضاع الداخلية في الإتحاد السوفيتي.

– كيف ترى الأمور . . .

– غامضة حتى الآن– أجاب– غير أن الشيء الوحيد الواضح هو لا إنقلاب في البلد

– ما الذي يجرى أذن ؟.

– ربما إستعراض قوة، ربما تخوف، ربما شيء لا نعرفه .

كانت سيطرة الانقلابيين على البلاد تدو مطلقة وغير قابلة للنقاش، فمن هم الضباط هؤلاء القادة؟ وبعد الجواب، أي بعد التعرف على المكانات الفعلية الموضوعة بتصرفهم، فلن يجروء أحد على الشك لحظة في نجاحهم .

إنهم دون إغراق في التفاصيل مفاتيح القوة في الدولة العظمى: الجيش ممثلا بوزيره الاعلى يازوف، والـ كي جي بي ممثلاً برئيسها فلاديمير كريوتشكوف، واجهزة الأمن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الداخلي ممثلة بوزير الداخلية بوريس بوغو، ومن أجل إحكام السدادة كما يقال لم ينس رئيس مجلس الوزراء، ولا نائب رئيس المجلس الأعلى للدفاع، وكان المنظمون الرئيسيون قد إنتبهوا أخيرا الى وجود قطاع آخر في البلاد، فاستدعوا رئيس اتحاد الفلاحين ليظهر على المنصة .

إنها الدولة كلها من يقوم بإعلان حالة الطوارئ . . فمن أين يأتي الشك في حتمية بسط السلطة على نحو مطلق .

كانت لجنة الدولة لحالة الطوارئ قد أيقظت الملايين السوفيتية من نومها في الصباح الباكر لتعلن عبر وسائل الاعلام الحكومية انها ستأخذ على عاتقها المسؤولية عن مصير الوطن، وأنها لن تتوانى عن إتخاذ التدابير الضرورية لاخراج الدولة والمجتمع من الأزمة، ولم يفت البلاغ رقم واحد الاشارة الى الخطر المميت الذي يخيم على البلاد من جراء وصول سياسة الاصلاح الغورباتشوفية الى طريق مسدود .

وعلى طريقة إنقلابات العالم الثالث سمعت بعد ساعات قليلة الأصوات المنبعثة من جنازير الدبابات وهي تقطع الشوارع المعدة نحو أهدافها. وتوالت بيانات السلطة الجديدة التي أفادت بوضع يد لجنة الطوارئ مباشرة على المنشآت الاقتصادية في البلاد مع وقف فوري لفوضى الشارع بحظر التظاهر، وفوضى الاعلام بفرض رقابة صارمة على الصحافة. إن تتابع الخطوات على هذا النحو جعل معظم سكان موسكو يتوقعون سماع إطلاق نار بين لحظة وأخرى، ولم لا يتوقعون شيئا كهذا بعد أن خرج بوريس يلتسين الى جماهيره معتبرا لجنة الطوارئ غير شرعية، وداعيا الى عقد مؤتمر استثنائي لنواب شعب الاتحاد السوفيتي. والى ان تنجلي الأمور دعا العمال الى إضراب عام. إن المواجهة قد بدأت بالفعل. لقد وضع بوريس يلتسين لجنة الطوارئ أمام خيارات ينطوي أبسطها على مجازفة خطرة، فإما أن يواصلوا حركتهم مستخدمين ما لديهم من وسائل قوة وإما أن يفاوضوا في وقت مبكر، أو يتراجعوا مدحورين تحت طائلة الملاحقة القانونية قبل الوطنية والديمقراطية.

وعلى نحو مبكر بدأت لجنة الطوارئ ومعارضوها معركة التقاتل على الساحات المحلية والخارجية. كانت جمهوريات الدولة العظمى الخمس عشر قد قطعت عمليا —

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خطوات كبيرة على طريق التخلص من سطوة المركز. كان كل برلمان محلي قد شرع لنفسه ما يكفي من السلطات جعل الاستقلال الكامل في متناول اليد، أي حين يرى أصحاب القرار ضرورة لذلك، فضلا عن أن المعاهدة التي يتأهبون لاعلانها بعد التوقيع عليها تمنحهم حقا دستوريا بالاستقلال، لذا تميزت ردود فعل الجمهوريات الرئيسية بهدوء حذر ومترقب إنهم من على بعد آلاف الأميال عن المركز لا يعرفون الكثير عن ذلك الذي حدث صباح التاسع عشر من آب، كما لا يعرفون على وجه الدقة صورة بيانية واضحة المعالم والمؤشرات لحركة الفرز في موسكو، والى أي إتجاه تسير، ولقد أمكن لنا نحن المراقبون إستنتاج ذلك، من خلال القراءات الأولية لبيانات أقطاب الأطراف. ودعنا هنا نعتبر ليننغراد أحد الأرقام المميزة، إذ لا مناص من ذلك ما دامت موسكو حتى اللحظة عاصمة مشروع العودة الى المركزية السوفيتية المتجردة من المحتوى الوطني الروسي.

كانت لينغراد قاطعة وعبر عمدتها سابتشاك في رفض الخطوة .

ونور سلطان نزاربايف ألمع القادة السوفيت، وأبرز زعماء جمهوريات آسيا الوسطى تحدث علنا بعد مرور إثنتي عشرة ساعة على الانقلاب معلنا أن حالة الطوارئ لن تفرض على مدينة التفاح، إذ لا لزوم لاجراء من هذا النوع، ولم ينس تذكير أجهزة الدولة المركزية المتواجدة على أرضه باحترام الدستور وهيئات السلطة المحلية .

أما ليونيد كرافتشوك قائد الجمهوريات الثانية (أوكرانيا) حتى كانت معظم جمهوريات الدولة العظمى قد أعلنت عدم إستعدادها لاعلان حالة الطوارئ مما زاد الصورة العامة غموضا فوق الغموض الذي أضفاه أول مؤتمر صحفي عقدته لجنة الطوارئ، وكان في الخامسة والنصف من بعد الظهر .

نقل التلفزيون المركزي الظهور الأول لقادة الإنقلاب عبر شاشاته المنتشرة في عموم الاتحاد السوفيتي . دخل من يسمون بالانقلابيين أصحاب الوعد المقتدر باعادة النظام للدولة والمجتمع الى كل بيت سوفيتي، وحملت عشرات الأقمار الصناعية الصور المنبعثة من المركز الصحفي التابع لوزارة الخارجية الى القارات الخمس. لم تغفل الكاميرا وظيفتها العصرية، أي النفاذ الى الأعماق عبر اختيار اللقطات ذات التأثير الحاسم على المشاهد، ركزت عشرات العدسات بؤرها السحرية على يدي غياندي ينايف الراعشتين

وعلى وجهة المتجهم المتأثر على نحو ظاهر بمرض عصبي يبدو أنه كان يعاني منه منذ زمن .

ثم طافت على وجوه الآخرين الى أن إستقرت على وجه رئيس إتحاد الفلاحين كما لو أنها ترسم علامة إستفهام، من هو هذا الرجل وما الذي جاء به الى هنا، كانت الكاميرا تتجول على وجوه معلنة دون كلام بأن هؤلاء هم الحكام القدماء العائدون إلى السلطة، هم الذين يملكون قدرة الضغط على الزر إياه . . .

حتى تغدو عودة ستالين الى الكريملين هي الحقيقة الأولى والأخيرة في حاضرهم ومستقبلهم .

مع ذلك كان أصحاب الوجوه المعروضة على الشاشة صالحين لأن يجري إستخدامهم من قبل الكاميرا في إتجاهات متعددة، فهم منفرون بحكم السن والافراط في التجهم، وهم مترددون بحكم إرتعاش يدي زعيمهم، وقليلوا الحيلة بعد أن دعت دباباتهم يلتسين لإمتطاء صهوتها، وهي المنوط بها محاصرة البيت الأبيض الروسي لفرض أوامر لجنة الطوارئ عليه.

كان للظهور الباهت للجنة الطوارئ أثر فاعل في تبديد رهان جزء كبير من الشعب السوفيتي على من تطوعوا لإنقاذه. إن حالة الطواريء أو الانقلاب أو أي إجراء يتطلب إنزال الدبابة الى الشارع لا بد أن يولد في أعماق المواطن العادي شعورا بالرهبة من السلطة، وفي الوضع الذي أعلنت فيه حالة الطوارئ في موسكو حيث الانفلات المتمادي في مجال السيطرة المركزية للأجهزة الحكومية والحذر العام الذي إستولى على النفوس بفعل الحرية المستجدة يكون للتصرفات الأولية وقع خاص وعميق على الناس الذين يراقبون بدقة ما يجري حولهم ويتأهبون لإصدار الأحكام خلال إحساسهم بنتائج ما يرون .

كان إعلان حالة الطوارئ على إيقاع حركة الدبابات قد أثار شعورا أوليا لدى الناس بجدية ما يجري. كان شعورا فيه إمتزاج كامل بين التوق للنظام وحل المشاكل المتراكمة على مدى السنوات الخمس الماضية، وبين الخوف من ضياع الحرية والعودة من جديد الى سلطة غاشمة ربما توفر الخبز وربما تقطع دابر الجريمة إلا أنها بالتأكيد . . لن تواصل شهر العسل الذي إستمتع فيه الناس بحقوق جديدة لم يألفوها من قبل. كان في داخل كل إنسان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سوفيتي رغبة قوية بجمع الميزتين الجوهريتين في وقت واحد، سلطة قادرة وحرية كافية لذا حين أعلنت حالة الطوارئ فان الذين اجتاحتهم مشاعر الفرح كانوا يرون إحتمالا كهذا .

غير أن المشاعر تبدلت على نحو ظاهر بعد ساعات قليلة من وقوع الحدث الكبير، وتحديدا حين أقدم بوريس يلتسين على الدخول المبكر الى المواجهة مظهرا بكل بساطة وسهولة هشاشة الدبابة أمام الموقف الانساني الشجاع. كان باستطاعة وزير الدفاع يازوف أو رئيس الـ كي جي بي كربوتشكوف أن يحولا عرين يلتسين الى ركام في أقل من ثلاث دقائق، أو يرسلا مجموعات من الكوماندوز لتبديد شمل المتظاهرين خلف المتاريس التي تبدو كهياكل ورقية أمام إحتمال التدخل الجدي، وحين لم يفعلا ذلك فان التداعي المنطقي لمجرى الأحداث سيؤدي حتما الى كسر شوكة الدبابة، ومن يحركها لمصلحة ذلك الذي جازف بتحديها مسلحا باعتبارات عديدة تبدو القوة العسكرية أقلها فعلا وتأثيرا. هذا الكلام يمكن ان يكون إنشائيا او نظريا لو لم يحدث تجسيده العملي على أرض موسكو ظهيرة يوم الانقلاب، فما ان امتطى يلتسين واحدة منها ليعلن ندائه الديمقراطي من فوق برجها المرتفع حتى صعد الصبية الى باقي الدبابات في جميع أرجاء موسكو، ويقال ان بعض ضباطها وجنودها تعرضوا للضرب دون ان يأتي واحد منهم على أية حركة تنم عن الدفاع عن النفس .

إنها لحظة قد تمر زمنا كطرفة عين، الا أنها في العمق تحدد مصائر شعوب وأمم وكيانات. كانت تلك اللحظة قد إنبثقت من قلب شلال الزمن الدافق ظهيرة التاسع عشر من آب معلنة إندحار حتمي للقوة العملاقة أمام كلمة السر التي أشهرت في الوقت المناسب روسيا الديمقراطية .

نعود الى مؤتمر لجنة الطواريء عصر ذات اليوم، وبعد ان أثرت بنا الصورة الباهتة للقادة سمعنا قولا يشي صراحة بالتردد وقلة الحسم .

« إن الحياة الجديدة » عازمة على متابعة النهج الذي بدأه غورباتشوف عام ١٩٨٥، وأن ميخائيل سيرغيفيتش سيعود الى القيام بمهماته بعد تعافيه.

إن مقارنة بين البلاغ الصباحي الممتلىء عزما وتصميما على بسط سلطة الدولة وانقاذ المجتمع من الكارثة، وبين البلاغ المسائي الذي لم يقطع في شيء على الاطلاق تظهر على نحو جلي، إن ماجرى يوشك ان يتحول في نظر الناس الى مغامرة طائشة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان اناتولي لوكيانوف قد اتخذ قرارا بدعوة مجلس السوفييت الأعلى الاتحادي الى اجتماع طارئ يوم السادس والعشرين من آب، أي بعد أسبوع كامل من اللحظة الحاسمة للبلاد، والتي كان واضحا أن المهلة الزمنية للانعقاد اسبوعاً كاملا في ظرف يسجل فيه التاريخ بتوقيت الدقائق والثواني ستفضي حتما الى إستفزاز قائد المعارضة الذي ستدفعه هذه الخطوة « المريبة» الى رفع وتيرة معركته، إذ بعد ربع ساعة على الأكثر إتخذت هيئة رئاسة مجلس السوفيت الأعلى لروسيا قراراً بدعوة البرلمان الروسي الى الانعقاد في الحادي والعشرين من آب، اي بعد ثمان وأربعين ساعة .

إن المواجهة تتخذ طابعاً محددا بعد مرور إثنتي عشرة ساعة على إعلان حالة الطوارئء، وعزم قوي على المقاومة يظهره يلتسين، ومن يصطف ورائه، وتردد ظاهر يطبع جميع تصرفات لجنة الطوارئ التي اختفت عن الشاشة بعد ذلك المؤتمر مما خلق جوا من الشكوك حولها، إنها فيما يبدو غير قادرة على إكمال الطريق .

كان العالم شديد الحذر في تعاطيه أول الأمر مع الزلزال الذي وقع صباح هذا اليوم، وبصرف النظر عن الانطباع الأول الذي أثاره الرئيس ميتران حين خاطب الانقلابيين، مما دفع يلتسين الى إنتقاده معتبرا مجرد المخاطبة إعترافا علنيا «بحفنة المغامرين»، إلا أن المؤشر الدولي كان يظهر على نحو جلي صعودا متسارعا نحو إدانة لجنة الطوارئ، وابداء كل الدعم لرئيس روسيا كقائد ميداني لمعركة الحفاظ على التحولات الديمقراطية في البلاد. كانت الكلمة الفصل آنذاك لرئيس البيت الأبيض الأمريكي الذي اعتبر لجنة الطوارئ غير دستورية .

ماذا يجري بالضبط . . ؟ كنا نحن المقيمين في موسكو نسائل أنفسنا، ونسائل بعضنا بعضاً، نتصل بمن نعرف، ونستمع الى وسائل الاعلام. كل ذلك لم يهدئ من إضطرابنا ولم يجل ولو جزئيا الغموض المتلبد من حولنا. من الذي يحكم هذه الامبراطورية الآن . . .؟ لجنة الطوارئ ذات القدرة الماحقة؟ . . أم قيادة روسيا التي أخذت زمام المبادرة النضالية من اللحظة الأولى معتمدة على أمور إعتبارية ورمزية؟

من الذي يؤثر فعلا في مجرى أحداث الدولة السوفيتية وأجهزتها وأعلامها: الدولة السوفياتية أم الأمريكية التي تحرك جيش كاميراتها بحرية منقطعة النظير في جميع أنحاء

موسكو مع حق مكتسب جديد بتصوير أي مكان يخطر على بال حامل الكاميرا تصويره. إن البيت الأبيض الأمريكي أمر سفيره الجديد شتراوس بالتوجه الفوري الى موسكو لمعالجةالموقف، والدول الأخرى « المؤثرة » أمرت سفرائها بالدوام في البيت الأبيض الروسي تحت شعار التضامن مع الأشقاء الديمقراطيين، وتنفيذا لمهمة أكثر عملية أحصاء نبضات القلب الروسي وأنفاسه عن قرب. كانت كاميرات السي ان ان تساهم على نحو فعال في توجيه الشارع السوفيتي على نحو مباشر وشديد الفاعلية. لقد اكثرت من نقل صورة اليدين الراعشتين لقائد الانقلاب، وقبلها وبعدها صورة وقفة المجد الروسي ليلتسين على الدبابة .

كان التلفزيون الروسي يتزود بالأخبار الروسية من مصدرها الأمريكي، وكان رجال السي ان ان لا يبخلون على زملائهم الروس بلقطات إبداعية مذهلة تظهر عمق معاناة الناس عبر تركيز الكاميرا على المخازن الفارغة، وتلوين التوق الديمقراطي في النفوس عبر مشاهد مبتكرة لتظاهرة البيت الأبيض، حتى ان مراسلي السي ان ان كان باستطاعتهم إختلاق حدث جدي لمجرد وضع الكاميرا في زاوية معينة، والاعلان عن أن مظاهرة ستتجمع هنا للإطاحة بتمثال لينين، أو دزيرجينسكي أو غيرهما من رموز العهد (البائد).

كان يوما غريبا مشحونا بالتناقضات والمفاجآت. إنه فيلم غرائبي يعرض على شاشة موسكوالكبيرة، مع حلول القمة الرمادية حيث يتأخر غياب الشمس في آب لما بعد العاشرة مساء. سمع مواطنو موسكو بلاغا جديدا صادرا عن لجنة الدولة لحالة الطوارئ كان تضمنت كلاما كثيرا عن تفهم الشعب والتفافه حول الخطوة الباهرة، غير أن ما علق في الذهن من كل ما سمع تحذير لجنة الطوارئ قيادة روسيا من القيام بخطوات غير مسؤولة وغير عقلانية .

فما هو غير المسؤول وغير العقلاني ...؟

في حالة كهذه تنبثق الهواجس السوداء في النفوس. إن المدينة المليئة بالدبابات قد الحكومي والشعبي لا بد أن يكون قد وفر مناخا مواتيا لوصول السلاح الى أيدي الناس، ولم لا يوضع هذا الافتراض في مرتبة أقرب الى اليقين، لم لا يتخيل المواطن الخائف مثل المراقب المحايد إمكانية لجوء الحزب المنقسم على ذاته، والمدافع بيأس عن صلاحياته

الى إستخدام نفوذه السلطوي لدى المحافظين في الجيش والأمن والحصول على كميات من السلاح تكفي لتشكيل مليشيا خاصة تثبت وجود الحزب في الشارع كقوة مرهوبة الجانب، ثم لم نبعد إحتمال ان يؤدي تنامي المشاعر القومية في العاصمة المختلطة الى سعي كل شركة قومية لتوفيرسلاح كاف للدفاع عن النفس والمصالح، أمام إحتمالات الفلتان العام. لقد إرتسمت أمامي كل هذه الاحتمالات في عمق أول ليلة من ليالي الانقلاب، إرتسمت في مخيلتي بيروت حروب الحواري الطاحنة فيها، وآه ما أخطر.هذا النوع من الحروب، إنه غالبا ما يبدأ لأسباب غير معروفة، ويتوقف هكذا، وبين لحظة البداية والتوقف يموت من يموت ويدمر ما يدمر ويكون إعلاميو الحروب الأهلية قد إخترعوا تفسيرا راقيا لأحط مسلك إنساني الا وهو القتل الجماعي . . . تذكرت في تلك الليلة حادثة وقعت في بيروت كنا بمعية السيد ياسر عرفات وأبو الوليد وأبو ماهر اليماني وأنا . . . إندلع القصف بجوار نافذة عرفات كان قصفا جنونيا بالمدفعية، وصواريخ الأر بي جي، وإمتلأت السماء بشهب حمراء إذ أطلقت عدة طلقات لمضادات الطائرات ما في جوفها من رصاص للحظة خيل لنا بأننا حيال إنزال معادي في سياق عملية خاصة تستهدف المقر الذي نحن فيه .

تولى أبو ماهر اليماني استطلاع الأمر ميدانيا. بعد قرابة ربع ساعة إتصل ياسر عرفات عبر الهاتف العسكري مبلغا إياه أن إشتباكا عاديا يجري في منطقة ما من مناطق بيروت الغربية وانه يجري اتصالاته مع مشايخ الحارات المسلحة لوقف إطلاق النار. بعد قليل هدأ الحوار المسلح ولدقائق سجلنا مآثرة للرفيق أبو ماهر الذي نجح في مهمته على ما يبدو. عاد الرجل الى الغرفة التي غادرها قبل ساعة، وكان غارقا في ضحكة هستيرية، سألناه ما الأمر...؟

قال:

– صدقوني لم أعرف لماذا بدأ الاشتباك وكيف توقف ؟..

تخيلت موسكو على ذات الصورة مع فارق كبير وكارثي في الوقت نفسه . . .

كما تذكرت لقاء ضمني وصديقي جوزيف صباح مع الكاتب الروسي كاياكوف الذي كان قد نشر قبل سنة على الأقل رواية تخيل فيها حربا أهلية تقع في موسكو، وأفاض في تصوير تفاصيلها المحتملة. لقد قال لنا هذا الكتاب :

« كنت أضع في خلفيتي بيروت . . .

كنت خائفا على نحو عام. كان تخوفي نابعا من الحاح السؤال البديهي لو اشتعلت في البلاد حرب أهلية ماذا بوسعي ان أفعل من أجلي ومن أجل زملائي . . .كان الجواب المهدئ يكفي للحظة منا مثل الملايين يعيشون على هذه الأرض » .

غير أن خوفا أكثرعمقا سرى في داخلي، لحظة تلقيت إشارة من أحد رفاقي موظفي السفارة علمت منها أن إذاعة الحرية، إذاعة البيت الأبيض الروسي تتهم الفلسطينيين بتأييد لجنة الطوارئ، لحظتها تخيلت ميليشيات الديمقراطية تزحف باتجاه السفارة للإقتصاص من (أنصار الفاشية)، فكل شيء يمكن الحدوث في ظروف كهذه. إن الجو المشحون لا يحتاج لأكثر من شرارة صغيرة حتى يشتعل، ولا شك وبحكم التجربة في أن الوقود الفلسطيني أكثر وقود في الدنيا قابل للإشتعال السريع. كانت ليلة التخيلات السوداء والمرعبة، إستحضرت من الذاكرة ليالي رومانيا الطويلة التي تعرض فيها زملاؤنا هناك وطلبتنا الى إتهام مماثل « ليلة القبض على تشاوشيسكو ». كان إتهام أبنائنا بالإنضمام لبقايا المدافعين عن الحكم المنهار بمثابة إستباحة لدمهم من قبل من يرون في الدم الفلسطيني إغراء دائما للإستباحة . . .آنذاك حاولت كل ما في إستطاعتي حمل حراس الديمقراطية على التدخل من أجل وقف هذه الاستباحة . . لم يخطر ببالي آنذاك ان شيئا كهذا سيحدث معي ومع زملائي في موسكو وفي وقت قريب . .

لم يكن باستطاعتي، والوقت منتصف الليل، أن افعل شيئا سوى الاتصال الهاتفي باسرتي في عمان لاصطناع ثقة قد تهدئ من خوفهم البديهي نتيجة وجودي في بؤرة الخطر مع اتصال آخر بتونس أطب موقفا يعتبر ما يحدث في موسكو مجرد شأن داخلي لا علاقة لنا به . .

كان ياسرعرفات متجاوبا معي، لقد أرسل وعلى نحو فوري الصيغة المقترحة علينا إيصالها الى أعلى المستويات لدى الطرفين في أقرب فرصة، غير ان ما وصلني وكان معنونا باسم بيان صادر عن اللجنة التنفيذية بدا قليل الفاعلية بالقياس مع مهرجان التصريحات الذي إندلع في تونس، وفي كل مكان يتواجد على أرضه قادة فلسطينيون أو أشباه قادة. لقد وصلت تصريحات تبشر العالم بعودة التوازن الاستراتيجي المفقود، وتصريحات أخرى

تهنئ المناضلين التقدميين في العالم بنهاية المتآمر الأكبر ميخائيل غورباتشوف. كان الاعلام الغربي يركز على هذا النوع من التصريحات، فلقد كان هنالك من هو حريص حقا على إظهار الفلسطينيين بمظهر المعارض لموجة الديمقراطية العارمة التي تجتاح الديار السوفيتية كلها.

صبيحة العشرين من آب كنت قد أعددت رسالة للرئيس يلتسين، وأرفقت بها صورة من بيان اللجنة التنفيذية معززا بتصريح كان قد أصدره محمود عباس في القاهرة بعد لقاء السيد عصمت عبدالمجيد، وكلفت زميلي الدكتور موسى مبارك بايصال هذه الرسالة الى البيت الأبيض الروسي حتى لو كان الأمر ينطوي على مجازفة بحياته. وكلفت زميلا آخر بتسليم وزارة الخارجية السوفيتية نسخة عن الرسالة والوثائق المرفقة. كنا نسابق الزمن في ذلك الصباح المرعب، وكنا نحاول كتابة موقفنا على مسلة الحرية بأظفارنا.

بعد ساعة عاد الدكتور مبارك الى السفارة، كان وجهه طافحا بالسعادة فلقد وفرت له الصدفة نجاحا كبيرا في إداء مهمته . . . قال لي . . .

وصلت الى المتراس الأول . . سألني أحد المسلحين من أنت وماذا تريد ؟

أجبته . . وقد أخرجت البطاقة الدبلوماسية الحمراء . . أنني مستشار سفارة فلسطين في موسكو .

ما إن سمع المسلح عبارة فلسطين، حتى بدأ على وجهه إستغراب ظاهر ليقول باستفزاز . . أنتم مع الانقلابيين...

- إن في الأمر أساءة. إنني أحمل رسالة تأييد للرئيس يلتسين فأرجوك غاية الرجاء ان تسمح لي بإيصالها . .

قرأ الدكتور مبارك في عيون المسلح إرتيابا بالأمر فلم لا يكون رجل السفارة إرهابيا يريد سوءاً برمز الديمقراطية .

أمر الدكتور مبارك بالوقوف بعيدا عن المتراس بينما غاب المسلح عن الأنظار لاجراء مشاورات مع زملائه .

كان الخوف يزحف الى روح الفلسطيني المنتظر وراء المتراس حاملا رسالة الانقاذ أو الهلاك . . بعد دقائق . . لمح مبارك رجلاً يعرفه . . إنه البروفيسور قسطنطين

تروبتسوف. كان مسلحا برشاش صغير. سمح للفلسطيني أخيرا بالدخول الى البيت الأبيض الروسي، وتولى أحد أعضاء مكتب يلتسين إستقباله، وتسلم الرسالة منه وأمكن الى جانب ذلك الاتفاق على لقاء مع تروبتسيف معي في السفارة في أقرب فرصة.

كان الاعلام الروسي لا يزال يبث أخبار التأييد الفلسطيني للانقلاب مقترنة مع التأييد العراقي والليبي . . غير أن مخاوفي هدأت قليلا إذ أمكن ايصال الرسائل لأناس جديين وفعالين. لقد أقنعت نفسي آنذاك بأنني رفعت ساترا معقولا بيننا ولو لبعض الوقت من النار المشتعلة حولنا.

منذ ساعات الصباح الأولى العشرين من آب بدأ دفق الأخبار يسجل إنتصارات مدوية لمعارضي لجنة الطوارئ كان من تبقى من الجمهوريات قد حسم أمره باعلان مواقف، وإن كانت متباينة في القوة إلا أنها لا تصب في طاحونة الانقلابيين.

كان التردد الظاهر في قمع المعارضة قد وفر حوافز اضافية للناس كي يخرجوا من جديد الى الشارع ليعلنوا عن إدانتهم للانقلابيين وولائهم المتحمس لرمز المعارضة بوريس يلتسين . لقد تضاعف الحشد أمام البيت الأبيض الروسي، وتضاعف الالتفاف العالمي حول « المكافحين من اجل الحرية ». كانت تقارير الدبلوماسيين ورجال الاستخبارات قد قرأت فيما يبدو بعناية لدى العالم الخارجي مما جعل اليوم الثاني من أيام الانقلاب هو يوم الاغلاق الكامل على أي إحتمال بأن تجازف أية جهة دولية بالاعتراف بالوضع الجديد أو على الأقل الوقوف موقف المتفرج ازائه .

كانت إذاعة الحرية – المنطلقة من البيت الأبيض الروسي – تبث على نحو متواصل أخبار يصعب التحقق من صحتها حول مواقف القوى والجمهوريات من المحاولة الإنقلابية، وكانت توجه أصابع الاتهام لمن تريد. . كان أخطر إتهام وجهته هذه الاذاعة يطال شخص اناتولي لوكيانوف، لقد اتهم رئيس البرلمان الاتحادي بقيادة الانقلابيين، وسرّت دعوته مؤتمر نواب الشعب للانعقاد بعد أسبوع على أنها محاولة لكسب الوقت حتى يتمكن الانقلابيون من إحكام سيطرتهم على الأوضاع. ولا شك ووفق تطور الأحداث فيما بعد، فإن هذا الاتهام الاذاعي حقق مفعوله السحري اذ تضاعف التعاون بين قيادة روسيا ورئيس البرلمان الاتحادي الذي بدا حريصا على نفي التهمة باداء دورإيجابي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لمصلحة المعارضة، وهذه المرة بغطاء الوسيط وليس الطرف . . ظُهر العشرين من آب حدث إنعطاف هام في مجرى الأزمة إذ وجهت قيادة روسيا رسالة الى السيد لوكيانوف طالبته فيها تنظيم لقاء عاجل بين بوريس يلتسين وميخائيل غورباتشوف، وحددت مهلة زمنية لاتمام هذا اللقاء ٢٤ ساعة، كما طلبت إجراء فحص طبي للرئيس المعزول في القرم بمشاركة أطباء من منظمة الصحة العالمية. وكي لا يفهم بأن القيادة الروسية تتواضع في طلباتها على غورباشتوف، فانها لم تنس تجديد المطالبة بالغاء قرارات لجنة الطوارئ، وتدابيرها وحل هذه اللجنة ومسائلة أعضائها أمام القانون .

كانت قيادة روسيا قد إمتلكت زمام المبادرة على نحو فعال. لقد فرضت نفسها على الشارع كقيادة قادرة مصممة شجاعة . . فما أن تصدر تصريحا أو إشارة حتى تجد الملايين مستعدة للاستجابة، ولقد إكتمل نفوذ قيادة روسيا على الشارع الروسي العريض حين دعا بطريرك موسكو الكسي الثاني الى منح ميخائيل سيرغيفيتش فرصة الظهور العلني والاعراب عن رأيه فيما يجري. كان اليوم الثاني هو يوم الظهور الدرامي لاسم ميخائيل غورباتشوف كضحية بريئة تعرضت لخيانة أقرب المقربين. إن الرجال الذين شكلوا لجنة الطوارئ كانوا من صنع ميخائيل سيرغيفيتش كلهم، اتى بهم الى مواقعهم من أجل إحكام سيطرته على أجهزة الدولة ومراكز القوة فيها. لقد عمل طويلا وبكل ما أوتي من قدرات تكتيكية على فرضهم ليشكلوا فريق عمله الخاص، وذراعه الضارب في طول البلاد وعرضها، وحتى الآن لا يزال الشهيد الحي معزولا في فوروس، ولم يكن للاشاعات التي انطلقت للايحاء باحتمال قتله أي حظ من الرواج، غير ان غورباتشوف الشهيد لم يكن هكذا بالضبط في نظر قطاع لا بأس به من الناس في الشارع أو الدولة . . لقد بدأت الهمسات التي تشي بصلة ما بين الرئيس ومن بدا أنهم تمردوا عليه وعزله تنتشر في أوساط الناس، وحين يجري الحديث ولو همسا حول أمر كهذا فان الهامسين لا يعرفون قرائن استنتاجية تثبت ما ذهب اليه ظنهم، فما الذي يدعو الانقلابيين الى الإبقاء على حياته ؟ وأية اعتبارات أخلاقية أو حضارية يتمسك بها أولئك الذين أنزلوا الدبابات الى الشوارع .

لقد بدأت علامات إستفهام ترتسم حول دور ميخائيل غورباتشوف منذ اليوم الثاني للانقلاب، غير ان علامات الاستفهام هذه كانت محصورة في أضيق نطاق ممكن إذ أن احدا لن يستفيد من ترويج هذه الشبهة على نطاق واسع. لا شك في أن قيادة روسيا لم تبعد

إحتمال ضلوع غورباتشوف في حكاية لجنة الطواريء هذه. إن أي قيادة سياسية لا بد ان تضع احتمالا كهذا بالاجمال، وأن تفكر مليا في ظاهر ومقدمات تكسبه مصداقية معينة. كانت المقدمات متوفرةبقدر كاف من خلال فكرة الطواريء ذاتها. إن الشعوب السوفيتية لم تتعرف على كلمة طواريء منذ اللحظة الأولى التي سمعت بها عبر بلاغ اللجنة رقم واحد، لقد كانت مطروحة منذ اكثر من سنتين بل إنها كانت في أوقات ما مطلبا شعبيا لقطاع هام من قطاعات الشعب والدولة، ولقد جرى تداولها كمخرج مؤقت من أزمة السلطة الادارية مرات عديدة وبالحاح ملفت حين كانت الفوضى تتخذ طابعا خطرا، كان ميخائيل غورباتشوف على عادته يتخذ من فكرة الطوارئ سلاحا ذاحدين يستخدمه ذات اليمين وذات اليسار ويحقق من جراء ذلك مزايا تكتيكية هامة .

كان يعد المحافظين باللجوء اليها في وقت ملائم وعبر القنوات الدستورية كي يكبح جماح الحاحهم المتمادي على أمر إستخدام القوة لتثبيت سلطة الدولة والأجهزة، ومن جهة أخرى كان يستخدم الكلمة المرعبة لاخافة- الاصلاحيين - وترويض إندفاعاتهم المغالية بعيدا عن المدى الذي رسمه لسلطته وحركته .

كان في أعماقه كارها للفكرة، ومتخوفا منها (في بدايات عهده) فهي المدخل العملي لهيمنة المحافظين على البلاد وقد تكون المعضلة التي تطيح برقبته على نحو مضمون، غير أنه لم يكن ليستبعد احتمال اللجوء اليها على نحو مطلق. كانت الورقة الاضطرارية الأخيرة التي لن يجازف بها إلا حين لا يكون قد بقي لديه مخرج آخر. إن دراسة لطريقة تعاطي غورباتشوف مع فكرة « الطواريء» كانت كفيلة بإثارة الشكوك أو على الأقل هز اليقين ببرائته، ولا أظن أن قيادة روسيا التي كانت قد توغلت في صراعها المصيري مع غورباتشوف يمكن أن تبعد هذا الاحتمال عن تفكيرها أو خططها .

غير انها لا تجاهر بهذا الشك لحظة . . وهنا أجتهد بالتقدير التالي :

لقد تصرفت قيادة روسيا بدهاء إزاء هذا الاحتمال فلقد كانت حريصة على الافادة حتى القطرة الأخيرة من ظاهرة الشهيد التي لقيت تعاطفا معقولا داخل البلاد وتضامناً جبارا على صعيد العالم الخارجي. لقد كانت على يقين تام من أن رئيس الاتحاد السوفيتي - لن يخرج قويا من هذه اللعبة الخطرة أو بتعبير أكثر واقعية سيخرج بشيء واحد لمن يكون

ضروريا وإنما ضروريا لغيره . . . ألا وهو الشرعية الدستورية . . . إن إتهام غورباتشوف بالضلوع في« المؤامرة» يتطلب إتخاذ ذات الاجراءات التي ستتخذ ضد «الانقلابيين»وساعتئذ ستضع قيادة روسيا نفسها أمام مهمة شاقة وطويلة وتنطوي على مفاجآت قد تقلب مجرى الأحداث رأسا على عقب. اذن لم تفتح على نفسها أبواباً للمتاعب ومبررات جديدة للصراع، إن الطريقة الأسلم هي التقاط الثمرة الناضجة والتصرف بها على نحو هادئ، ومدروس، إن بوريس يلتسين ومن يصطف وراءه الذين تكرسوا والى غير رجعة كمنقذين للديمقراطية، وكمتصدين لبعبع العالم (المحافظين السوفيت) حققوا من وراء هذا الموقف التاريخي إنجازا هائلا بأقل التكاليف،فلقد وفرت لهم « مناورة العتاد الحي » موقعا ما كانوا ليحلموا ببلوغه عبر سنوات وسنوات من الكفاح والصراع فلم يضيعوا الفرصة بالتسرع أو الغوغائيةالتي لا بد وأن يتهموا بها لو تطاولوا على الشهيد غورباتشوف. إذن لا بد من التفكير باتجاه آخر، لا بد من توظيف الشهيد في لعبة السلطة القادمة. إن جاهزيته للتنازل أصبحت ممكنة، وحين يقدم على هذه الخطوة يكون يلتسين قد فاز على نحو مضمون ودون خدش للتقاليد الديمقراطية التي حارب من أجلها .

وتكاثرت النداءات الداعية لتمكين غورباتشوف من الظهور، وانحسرت أخبار لجنة الطوارئ الى أضيق نطاق ممكن، لم تعد موجودة في الحياة العامة للبلاد إلا عبر دباباتها المهملة في الشوارع وجنودها الذين لا يعرفون كيف يتصرفون، أما القادة فيبدو انهم وصلوا الى نقطة اللاجدوى، إنهم لم يعودوا قادرين على مخاطبة الناس بأي لغة.

لقدتحول الإتحاد السوفيتي في اليوم الثاني من أيام الانقلاب إلى ساحة مهرجان احتفالي لبعض الجمهوريات التي دعت برلماناتها لمناقشة الوضع المستجد، وبالطبع كان لشحوب صورة الانقلابيين أثر ظاهر في توجيه سيول الكلام نحو تمجيد الديمقراطية، ومقاومة النزعة الاستبدادية. لقد أظهرت جمهوريات البلطيق على نحو خاص أبتهاجها بسنوح فرصة تاريخية لجعل الاستقلال الكامل عن الاتحاد السوفيتي حقيقة فعلية، إذ أعلنت استونيا في اليوم الثالث إستقلالها التام، أما لينينغراد أو سانت بترسبرغ فقد تجلت معارضتها الحاسمة للانقلاب عبر أكبر تظاهرة عرفتها البلاد. إن لينينغراد هي المدينةالأكثر روسية. إنها تختلف عن موسكو كثيرا فلقد نجت من كارثة القسري التي تحولت معظم مدن الدولة العظمى الى تجمعات مختلطة الجنسيات وقوميات العالم الاشتراكي .

إن مدينة بطرس الأكبر، مدينة كاثرين وآثارها القيصرية، مدينة النسر الاسطوري ذي الرأسين منحت عمدتها سابتشاك لقطة تاريخية حين تصدر مهرجان الروح الروسية المنبعثة من تحت الرماد قاطعا عهدا لمواطنيه الروس على أن لا يروا دبابة واحدة في شوارع المتحف العملاق.

العقلاء من القادة رأوا في الانقلاب كوارث مؤكدة بحكم ردود الفعل المنطقية التي لا بد أن تترتب عليه، إنه يحمل إمكانية إطلاق رصاصة الرحمة على اخر مكامن القوة والتأثير في الدولةالعظمى « الجيش وأجهزة الأمن والحزب ». وحين يحدث ذلك فما الذي سيبقى للدولة، وعلى أي أساس يظل على قيد الحياة شيء اسمه الاتحاد السوفيتي. إن الجيش سيخرج بعد هذه المناورة الصاخبة والفاشلة مزعزعا تماما، سيغدو جيشا تضطرم في نفوس جنوده وضباطه مشاعر روسيا المنبعثة من جديد، وساعتئذ ماذا يفعل أبناء القوميات الأخرى ؟؟ هل هناك ضمانة مادية أو معنوية تبعد شبح التفكير بأن الآخرين أضحوا مستخدمين لدى قومية أخرى. إن تفكيرا كهذا لم يحدث من قبل، أو أنه كان ممنوعا بحكم المشاركة الأيدولوجية والكيانية ومجد الدولة العظمى، أما الآن من ذا الذي يستطيع إعادة الروح المحلقة في الفضاء الروسي غير المتناهي الى قمقم الأيدولوجيا، وقص الحلم المتلاشي بتغيير الكون وحمل هموم الآخرين.

إن إنهيار الاتحاد صار إحتمالا جديا، إنه أقرب الاحتمالات لذا إنصرف العقلاء الى التفكير في أمر إنقاذ ما يمكن إنقاذه. وتفكير بهذا الأفق المرتبك والمتواضع يحتم الذهاب الى فكرة كسب الوقت لتوفير تصفية تعاقدية للتركة الضخمة، أو الى الهرب بعيدا الى حيث الاستقلال القومي والاقليمي وليكن بعد ذلك ما يكون.

إنني واحد من الذين يعتبرون نور السلطان نزاربايف أكثر العقلاء إتزانا في الدولة العظمى التي يترنح قادتها كالسكارى تحت ثقل الضربات القاصمة التي ما ان يستفيقوا من واحدة حتى يواجهوا الأخرى. إن القائد الكازاخي الذي كان منذ زمن واحداً من أقطاب اللعبة الكبرى، وعمدة من عمد الحزب والدولة ينظر للأحداث من موقعه كرئيس لجمهورية رئيسية تمتد مساحتها لتزيد عن ثلاثة ملايين كيلومتر مربع، وتوفر له المنشآت النووية الموجودة على أرضها شراكة جدية في القرار السياسي، ورسم المصير الذي ستؤول اليه الدولة العظمى، إنه ينظر للحدث الجدي ويتعامل معه بهدوء وتبصر. كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقيس مدى خطواته بدقة متناهية، إنه في اليوم الثاني من أيام الانقلاب لم يجد ما يلوذ به لو اوقف إندفاعة العاصفة إلا الدستور كمرجع للبت في أمر حاضر ومستقبل البلاد مراهنا على البرلمان الاتحادي كآخر مظهر جدي من مظاهر وحدة الدولة .

بعد ظهر العشرين من آب أعلن عن إجتماع ضم قيادة روسيا، ورئيس مجلس السوفيت الأعلى الاتحادي وأسفر الاجتماع عن موافقة أناتولي لوكيانوف على سحب القوات من موسكو الى ثكناتها الاصلية.

تساءلت . . .هل ذلك يؤكد شبهة ضلوع رئيس البرلمان الاتحادي في العملية الانقلابية ؟ هل هو من أمر بإنزال القوات حتى أمر بسحبها . . هل الرجل خضع أخيرا لابتزاز الاتهام بقيادة المؤامرة فصار مستعدا للموافقة على أي شيء ؟!. . هل ستستجيب لجنة الدولة لاوامره كرمز للسلطة التشريعية والدستورية؟! أم أنها ستتجاهل هذا الأمر وتضع لوكيانوف فوق كومة يلتسين، ومن معه من أنصار الديمقراطية والدستور والتجديد؟! . . .الخ.

هل موافقة لوكيانوف على سحب الجيش من موسكو يمكن ان يدخل في لعبة توزيع أدوار أملت أهمية ظهور رئيس البرلمان الاتحادي على هذه الصورة الديمقراطية ؟ . . أم أنه شق لنفسه طريقا مختلفا؟! إن المحصلة الملموسة لخطوة لوكيانوف هذه، وبصرف النظر عن تفسيراتنا المتباينة لها في حينه جاءت لمصلحة يلتسين بالمطلق، إنها رفعت آخر غطاء شفاف تستر ورائه الانقلابيون. . ألا وهو غموض موقف البرلمان الاتحادي. بدا لي بعد ساعتين أن أمر سحب القوات لم يكن محل إجماع بين قادة الطوارئ، ما أن أعلن عن موافقة لوكيانوف على سحب القوات حتى عادت لجنة الطوارئ الى الظهور من جديد معلنة فرض حظر التجول على موسكو أثناء الليل. كان نائب وزير داخلية روسيا قد أمر بارسال طلبة المدارس الحربية بأسلحتهم الى موسكو لحماية قيادة روسيا فبدا لي وعلى نحو مبكر ان الليلة التي نتأهب لدخولها ستكون أكثر خطرا من تلك التي مضت . . إن إشتعال حرب الشوارع في موسكو أمسى احتمالا ممكنا بل وقريبا .

وفيما بعد وصل الى مكتبي السيد قسطنطين تروبتسيف . . إنه واحد من اكثر المستشرقين الروس حضورا في عالمنا العربي واكثرهم نشاطا في إتجاه إختراع مجالات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جديدة لعلاقات إجتماعية وثقافية واقتصادية بين العرب والروس في ظل الأوضاع الجديدة. إنه ذاته من ألقى محاضرة على مسامعنا في السفارة، وكان ممتلئا ثقة بحتمية إنهيار المحافظين وخروجهم نهائيا من الحياة السياسية. . كان ذلك قبل أكثر من سنة على وقوع الانقلاب .

ولقد كانت بيني وبين الرجل صلة مستديمة آخرها تأييدي له في موقعه الجديد كمدير مركز ثقافي عربي روسي لم ير النور لأسباب مالية .

لقد حرص هذا الصديق على تسجيل نقطة مبكرة في مرماي الخالي تماما من وسائل الدفاع. أبلغني بصريح العبارة بأن حضوره الى سفارة فلسطين ينطوي على مجازفة «قاتلة». إن الجو في البيت الأبيض ملبد تماما ضدكم وضد ليبيا والعراق. إن وضعكم كفلسطينيين هو الأخطر لأن هنالك جهات نافذة تستغل تصريحات قادتكم لمحو وجودكم من روسيا والاتحاد السوفيتي ».وجريا على مبدأ طرق الحديد قبل أن يبرد أمعن الرجل في توجيه ضرباته الموجعة الى روحي المتعبة آنذاك« ألم أقل لكم منذ حضوركم الى هذا البلد لماذا لا تقيمون علاقات وثيقة مع القوى الديمقراطية؟ لماذا لا تفتحون الأبواب على الجميع؟ لقد أمطرني تروبتسيف بعشرات « اللماذا»، ولكن على نحو تأبيني فيه ما يمكن أن تحمله الكلمات من لكمات .

إن سكوني بعدكل الذي سمعت لن يؤخذ على محمل البراعة الدبلوماسية أو الحنكة في مواجهة الأزمات، إنه سيكون وعلى نحو جلي بدافع من خوف او ممالئه لمنطق لا لزوم لممالئته حتى لو كان البديل هو الخطر.

كان معي آنذاك زميلي الدكتور موسى مبارك وكان هو من عرفني به منذ الأيام الأولى لوصولي الى موسكو قبل ثلاث سنوات .

قلت : أنني أشكرك على تمكين زميلي من إيصال رسائلنا الى القيادة الروسية إنني أتوقع منك موقفا كهذا بحكم العلاقات القديمة بيننا.

إنني أتطلع الى دور إيجابي تلعبه أنت ومن هم مثلك لتبديد أجواء العداء ضدنا في البيت الأبيض، وأنت تعرف جيدا من الذي يلبد هذه الأجواء أصلا وماذا يريد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إنني أسف لسماع كلمة (مجازفة قاتلة) في وضعك لزيارتنا فأنت من كان يعلمني حقائق التاريخ التي تظهر على نحو ساطع عمق العلاقة الروسية الفلسطينية منذ عهود القياصرة حتى الآن. مع ذلك فإذا كان الأمر الآن على هذا النحو فاسمح لي أن أوجه من خلالكم نصيحة لسادة البيت الابيض الروسي أن التاريخ لن يتوقف عند لحظة أو حدث.. إننا الفلسطينيون.. نشكل أحد مفاتيح السياسة والنفوذ في الشرق الأوسط. إن روسيا بحاجة لهذا المفتاح والاتحاد السوفيتي كذلك، وأظنك تعرف جيداً أن الأمريكيين ليسوا بعيدين عن هذا الفهم، أرجو أن توصل إلى من تستطيع الوصول اليه رسالتي التالية «إن ياسر عرفات لم يدلِ بأي تصريح لمصلحة الانقلابيين، إنه لم يفعل ذلك ليقينه بأن ما يجري هو شأن داخلي صرف يخص دولة صديقة وشعوبا صديقة.. أما الآخرون الذين قالوا أشياء غير مرضية فدعنا نعتبرهم خطباء في مهرجان بعيد. إنهم بعيدون عن دائرة القرار عندنا، ولا ضرورة لمحاكمة شعب ومؤسسة وفق أقوالهم».

كنت حريصاً خلال معالجة أزمتنا أيام الانقلاب على أن أزرع فكرة عملية وحيوية ومنطقية في رؤوس أصحاب مركز القوة الجديد. لم يكن لدي ما يؤثر على هذا الصعيد سوى الاكثار من التركيز على مسألة السلام في منطقتنا والدور السوفيتي أو الروسي المؤكد كشريك في الرعاية، لقد تحدثت آنذاك عبر ما توفر من منابر ووجهت رسائل عديدة أشير فيها إلى هذه النقطة ... إن أي خلل في علاقة الدولة السوفيتية مع منظمة التحرير لن يكون في مصلحة السلام وسيؤثر سلبياً على توازن وضع الراعي الثاني.

لم يكن المتصارعون على السلطة في وارد الانتباه لأمر من هذا النوع على الأقل خلال الايام الساخنة التي تتصاعد فيها حمى الاستقطاب الداخلي والامتثال المصيري، غير أن زراعة فكرة من هذا النوع على نحو ملح قد تؤتي ثمارها حين يصبح وضعنا في البلاد محل جدل وقرار، إنني الآن وزملائي في السفارة نعيش هذا الهاجس ونستغرق في التفكير والعمل من أجل تفادي دفع ثمن التصريحات المرتجلة التي صدرت عن ساحتنا لمصلحة الانقلاب. لم يكن أعضاء السفارة وحدهم من يستشعر الخطر ويعيش إحتمالاته لحظة

بلحظة بل أن معظم صحفيينا العرب المقيمين في موسكوا كانوا يشاركون به والعمل من أجل تفاديه .

لقد انطلق كثيرون منهم الى البيت الأبيض الروسي وفتحوا حوارات فعالة مع أقطاب المعارضة آنذاك ممن كانوا يسمون بقادة التيار الديمقراطي، كنت قد زودت معظمهم ببيان اللجنة التنفيذية وتصريحات العقلاء (على قلتها) فقاموا بتسليمها الى مجمع الدماغ المؤثر في تلك اللحظات، وكانوا يجدون تفهما لا بأس به لدى بعض الأقطاب، وكانوا قد حصلوا على كلام طيب لمصلحتنا من السيد شيفرنادزه الذي كان في تلك الأيام احدالنجوم اللامعة في سماء معركة الديمقراطية، وكلام مماثل من ياكلوفليف . . . وغيرهم.

أعود الى نقطة هامة وردت في حديث ضيفي حول ما وصفه بتقصيرنا في فتح الخطوط مع التيار الديمقراطي، هنا أوضح أمرا جوهريا . . .

« إن كلمة تيار ديمقراطي » توحي، للوهة الأولى، بأنها قوى جديدة كانت كامنة في أحشاء المجتمع السوفيتي، وما أن وجدت الفرصة حتى ظهرت الى العلن وبدأت العمل، إن الامر لم يكن هكذا على الاطلاق، إن التيار الديمقراطي هو بالضبط أفراد من صلب الحزب الشيوعي والدولة الشيوعية إختاروا الولاء للبريسترويكا في باديء الأمر، ثم طوروه الى ولاء آخر أي الى فكرة المزيد من الاصلاحات المتجاوزة كثيرا لأفاق بريسترويكا غورباتشوف، وعلى صعيد تكتيكي إختار رموز هذا التيار كتعبير قوي عنهم كفرس رهان يسيرون ورائه الى أمد ما.

إذن كان بديهيا أننا نعرفهم، ونقيم صلات معهم، كانوا موجودين في كل زاوية من زوايا الدولة، كان منهم أصدقاء شخصيون لي ولزملائي من أعضاء السفارة سواء في وزارة الخارجية والحزب ودوائر الثقافة والصحافة والاعلام. إن أغلب من نعرف في موسكو، كانوا يجاهرون بتأييدهم للتيار الديمقراطي: ألم يقل لي صديقي تشنيستوكوف وفي وقت مبكر أنه سيمنح صوته ليلتسين في أوج التحريض الحكومي ضده.

إن الذي حدث على صعيد الطبقة السياسية في روسيا والاتحاد السوفيتي هو أن الفرز أفقي والعمودي تم داخل الوعاء الواحد، وأن اللون الرمادي كان يضيق ويتسع وفق لعبة السلطة بمقاييسها البراغماتية، وليس وفق مقاييس أخرى أيدولوجية أو سياسية .

ألم يكن وزير خارجية الاتحاد السوفيتي شخصيا أحد رموز التيار الديمقراطي ؟؟ إنني أجزم هنا بعدم التقصير في إقامة الصلة مع هذا الجزء الحيوي من أجزاء الجسم السياسي الموسكوفي ويتوجب أن أشير هنا الى أمر آخر ينطوي على آفة من آفات التحول المفاجئ الى الحرية، إنها آفة الاكثار من الادعاء، والابتعاد كثيرا عن الموضوعية. حيث كان البعض محافظا أو ليبراليا أو معتدلا كل يغمز من قناة الآخر، أو يقلل من أهميته وجدوى الصلة به. وباختصار كان الجميع في حالة سباق محموم مع أوهام الوضع الجديد، وكان الاجانب مجالا حيويا للاستقطاب، وجمهورا مقربا لعرض القدرات حضارية التي سمح لها بالانطلاق أخيرا. كنت الاحظ في مرات عديدة أن الشخص واحد يمكن أن يكون محافظا وديمقراطيا معتدلا أو متطرفا حسب ما تتطلبه الظروف. إنها واحدة من آفات الحرية الممنوحة على نحو مفاجئ أو الديمقراطية المعطاة بقرار حزبي .

دخلت الليلة الثالثة. كانت وقائع النهار تنطوي على خطر إشتباك مسلح في الليل خصوصاً . وأن اتفاق لوكيانوف مع قيادة روسيا حول سحب القوات لم ينفذ، بل أن موسكو تمتلىء بأخبار تعزيزات جدية وحين تمعن النظر في أمر دعوة طلاب الكلية الحربية بسلاحهم للحضور الى موسكو فإن حرب الشوراع تبدو على وشك الاندلاع .

سمعت أصوات رصاص في أماكن متفرقة من موسكو. كانت ضئيلة تماما قياسا لحجم النار الكامنة في مخازن البنادق ورشاشات الدبابات ، ومع أن مقدمات النهار كانت كافية لمضاعفة الخوف إلا أنني لم أشعر بالقلق ذاته الذي شعرت به خلال الليلة الماضية ، ويبدو أن طاقتي على القلق أفرغت في تلك الليلة، أو أن وصول رسائلي الى من يهمه الأمر أراح نفسي وضميري ، فنمت ليلة هادئة .

كان زميلي خالد ميعاري يمضي إجازة في كييف ، إتصل بي من أجل الاطمئنان وإبداءالاستعداد للعودة الفورية الى موسكو، كي يكون الى جانبنا أيام المحنة . . سألته . .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

– ما الذي يجري في عاصمة الجمهورية الثانية . .؟

أجاب : «لا شيء ، لاشيء إننا نتابع الأخبار عندكم كما لو إننا نعيش في بون ». ان اللعب الجدي في موسكو فما أن يحسم الأمر هنا حتى يستقر تلقائيا في جميع المناطق، تلك هي طبيعة حال نجاح السلطة المركزية في إعادة هيمنتها .

لقد جاءت خطوة الطواريء بعد أن أضحى الاستقلال الذاتي للجمهوريات حقيقة واقعية، لم يكن ينقصها سوى التناظر الدستوري والسياسي، كان ذلك قيد الانجاز عبر الاتفاقية الجديدة التي كان مقررا لها أن توقع في العشرين من آب. تلك الاتفاقية، التي تغير على نحو جوهري طبيعية الروابط بين الجمهوريات، إنها تمنح سيادة لكل جمهورية، وسلطة مركزية على الجيش والسياسة الخارجية والأمن .

كان التفاؤل بقدرة هذه الصيغة على حماية وجود الاتحاد ظاهرا بل ومبالغا فيه، وأذكر أن المصادفة وحدها وفرت لنا نحن الفلسطينيين فرصة الاطلاع على أولى ثمرات إنجازها الأولى، ذلك حين جرى لقاء بين وفدنا البرلماني، وكان آنذاك برئاسة الشخصية الأكاديمية الفلسطينية المرموقة دكتور ابراهيم أبو لغد، والوفد البرلماني السوفيتي برئاسة السيد رفيق نيشاتوف رئيس مجلس القوميات في البرلمان السوفيتي، لقد قال لنا، وكان ذلك في العاشرة صباحا، يسعدني أن أزف إليكم بشرى إنجاز صيغة الاتحادالجديد . .

قدم وفدنا التهاني والامنيات، وتطوع أحدنا بطرفة ملأت ردهات الكريملين بالضحك الصاخب . .

«إذن إسمحوا لنا أن نتقدم بطلب ضم الدولة الفلسطينية لإتحادكم الجديد ». كان التفاؤل مبالغا فيه لأسباب عدة .. أولها . . اساءة مواقف العديد من الجمهوريات المؤيدة للمعاهدة الجديدة وهذه النقطة أوضحها أحد اصدقائي الاوكرانيين حين قال :

– إن غورباتشوف يفهم رود الفعل وفق ما يريد وليس وفق ماهي بالذات. أنه يظن أن جمهور المعاهدة الذي قال لها نعم في الاستفتاء هو جمهور وحدوي. إن الاوكرانيين مثلا قالوا نعم لأن المعاهدة قرأت على أنها خطوة نحو الاستقلال الكامل . . .

لم يكن غورباتشوف متنبها، فيما يبدو، الى أن تعاون قادة الجمهوريات في أمر الصيغ الوحدوية الجديدة المقترحة من جانبه. كان في جوانب معينة محاولة لكسب

الوقت من اجل الترسيخ المتدرج لاستقلالهم الذاتي، وفي جوانب أخرى لضمان الحصص في التركة الضخمة . . إن الاستقلال كالحب لا يشبع منه قد يستمتع شعب بطعم إستقلال جزئي إلا أنه لن يكف عن التطلع الى إكمال المتعة .

مع ذلك كانت أمام معاهدة الاتحاد الجديد فرص معتدلة للحياة، ولو الى حين، حتي تحت سقف التطلعات المتباينة الجمهوريات، والقراءات المتعارضة . . كانت هذه الفرص تتأتى من الحاجة الي المزايا المتوفرة عبر الصيغة الجديدة مثل الاتفاقية الاقتصادية التي تنظم أهم القنوات الحيوية بين الجمهوريات. كان أمام المعاهدة المعدة للتوقيع إحتمالات عديدة من ضمنها تأخير الانهيار لبعض الوقت، وهنا يحسن التذكير بمواقف القوى الرئيسة المتصارعة من هذه المسألة .

كان المحافظون يرون في المعاهدة الجديدة نهاية محققة للاتحاد السوفيتي. إنهم لا يستطيعون تخيل دولتهم المركزية، وقد أصبحت مجموعة جمهوريات ذات سيادة. إن تكريس هذا النوع عبر إتفاقية يراد لها أن يكتسب وضعا دستوريا سيجعل من الوشائج الوحدوية المتبقية مادة صراع وليس عامل تقارب أو توحيد فضلا عن أن إتحادا من هذا النوع يناقض، وعلي نحو بديهي، الرسالة التاريخية التي يحملها الحزب الحاكم، والتي بها ومن أجلها أقام هذا الاتحاد العملاق، وفرضه على العالم كقطب لا مجال تجاوزه في صنع مصير العالم بأسره .

أما الفريق الآخر، أو الفرق الأخرى، فقد كانت ترى في هذه الاتفاقية خطوة غير كافية نحو الاستقلال. كانت ترى فيها نوعا من الاحتواء المؤقت للنزاعات القومية المتنامية في البلاد، بل أن بعض صالونات هذه القوى، ذهب الى حد وصف الاتفاقية « كعملية التفافية بارعة توفر للمحافظين أبوابا كثيرة لإعادة سلطاتهم المطلقة في الوقت المناسب . »

كل شيء في هذه البلاد محل خلاف حاد، وبدا جليا ان محاولات إنقاذ الدولة من التفكك، والمجتمع من التمزق والتصارع لم تعد مضمونة النتائج .

وحين أعلنت حالة الطوارىء تبادر الى الذهن — فورا — أن الهدف هو المعاهدة فإن نجحت لجنة الطوارىء في إعادة السلطة المركزية لوضعها التقليدي فساعتئذ ، فإن السلطة القوية ستكون مالكة لقدرة كافية على تمزيق المعاهدة لو رغبت، أو إدخال تعديلات عليها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تجعلها بمثابة تعزيز للوحدة وليس خلخلتها . . . أما لو منيت هذه اللجنة بالفشل فإن أولى (ضحايا) المغامرة ستكون الوحدة .. أي في محصلة الأمر الاتحاد كدولة .

في اليوم الثالث من أيام الانقلاب، يوم الحادي والعشرين من آب جاءت التطورات جميعها لتكرس قيادة روسيا كطرف منتصر. كانت الليلة المنصرمة قد شهدت إشتباكا محدودا، أفضى الى سقوط عدد من القتلى ، تبين فيما بعد أنهم ثلاثة ، كان ضروريا فيما يبدو لمنح معركة الحرية نكهتها المميزة، ويتوفر لبرلمان روسيا الذي إنعقد في الساعة الحادية عشرة والنصف بداية درامية، إذ وقف النواب دقيقة صمت تكريما لأرواح شهداء الحرية.

كان التراخي في عقد مؤتمر نواب شعب الاتحاد السوفيتي قد وفر لبرلمان روسيا هيمنة معنوية على الحياة السياسية في البلاد. كان لحظة إنعقاده بمثابة الطلقة الأخيرة التي أودت موضوعيا بحياة لجنة الطوارئ، وادعاآتها بقيادة البلاد. إن الشعب يرى مؤسسة دستورية تأخذ بيدها زمام المبادرة في أخطر الظروف، ولا يرى على الطرف الآخر إلا الغموض وعلامات الاستفهام .

لقد إمتلأ الشارع الموسكوفي بأخبار من نوع ، إستقالة رئيس الكي جي بي، وإنتحار وزير الدفاع، وهرب وزير الداخلية، وإنهمكت مكاتب هؤلاء القادة العظام في اعداد بيانات التكذيب. كانت صورة مزرية لوضع لجنة الطوارىء ظهيرة اليوم الثالث حيث بدا على نحو قطعي. ان المغامرة دخلت طور التصفية ،تحدث بوريس يلتسين أمام برلمان روسيا ، كرر إدانته للجنة الطوارئ، وأعلن عن أنه أخذ على عاتقه إدارة القوات المسلحة الموجودة على أرض روسيا .

كان بوريس يلتسين يعرف بالضبط ماذا يريد من كل كلمة ، كل خطوة يخطوها في تلك الأيام المصيرية ، لقد وقف أكفأ الضباط القادة الى جانبه، وتردد أن شاباشنيكوف الذي صار فيما بعد وزيرا للدفاع، وهو الآن القائد العام للقوات السوفيتية المنتشرة على أراضي الكمنولث ، أعرب عن استعداده لقصف الكريملين إذا ما واصل الانقلابيون نشاطهم .

عقب إعلان يلتسين عن تسلمه قيادة القوات المسلحة المتواجدة على أرض روسيا إرتسم سؤال موضوعي وجوهري. . ماذا تبقى إذن للجنة الطوارئ، ثم ما هو مصير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ميخائيل سيرغيفيتش القابع حتى الان في إستراحة على شاطئ البحر الاسود .

كان العد التنازلي بالنسبة للجنة الطوارئ قد بدأ واقعيا منذ إخفاقها في معالجة ظاهرة يلتسين، ظهيرة اليوم الأول للانقلاب ، اما الان وقد دخل اليوم الثالث فان هذا العد التنازلي آخذ بالتسارع . لقد أعلنت وزارة الدفاع السوفيتية عن سحب قواتها الى المواقع التي انطلقت منها صباح التاسع عشر من آب، بعد ذلك، رفعت القيود التي فرضت على إصدار المطبوعات، وأخيرا أعلن قائد حامية موسكو ان لا جدوى من مواصلة العمل بقرار حظر التجول على العاصمة.

في تلك الأيام العاصفة ببساطة كان في غيبوبة أو في أفضل الحالات، كان ينتظر حسم الأمر من قبل لجنة الطوارئ. كان لهذا الحزب العملاق أن يتسلم زمام قيادة الشارع ولو جزئيا لو أنه إتخذ موقفا علنيا مؤيدا للجنة الطوارىء ، يوفر لها غطاء سياسيا وتنظيميا وذراعا فعالا بكسر حدة التواجد الصارخ للدبابة في شوارع العاصمة، غير انه لم يفعل شيئا من ذلك، مما زاد الغموض والبلبلة حول لجنة الطوارئ ذاتها والموقف الحقيقي للحزب منها .

في اليوم الثالث توجه الرجل الثاني في الحزب فلاديمير ايفاشكو لمقابلة لجنة الطوارئ، طالبا تأمين لقاء له مع ميخائيل سيرغيفيتش، وبعد ذلك بساعات، عقد الكسندر دزاسوخوف مؤتمرا صحفياً باسم سكرتارية اللجنة المركزية، أدان فيه محاولة إقامة نظام إستبدادي في البلاد .

لقد قوبل موقف الحزب باستخفاف شعبي ظاهر بدا عبر إدانته المتأخرة للانقلاب كما لو أنه إتخذ خطوة كهذه، بدافع من محاولة سقيمة للنجاة من المعضلة. إن حزبا لا يزال يحتفظ في سجلات عضويته بثمانية عشر مليونا فقد ما كان قد تبقى له من رصيد شعبي ضئيل جراء طريقته في التصرف حيال الانقلاب، لم يستطع ان يكون مناصرا شجاعا ولا معارضا محترما. لقد تجمع عشرات من الناس أمام مقر اللجنة المركزية في وسط العاصمة حيث إشتهر ذلك المكان منذ عشرات السنين كفرقة عمليات للحركة على نصف الكون ، وسمعت أن بعض القادة الذين مروا من هناك بمحض الصدفة أو حاولوا محاورة المتظاهرين قد تعرضوا للضرب والاهانة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال أيضا أن الذي حال دون إحراق المباني الضخمة هو عمدة موسكو بوبوف لسبب يتعلق بعجز موازنة العاصمة عن تغطية نفقات إصلاح المباني الضخمة فيما بعد .

لقد افرغت المباني المكتظة بآلاف القادة الحزبيين من قبل أفراد الشرطة، ووضع على الأبواب التي ولجها على مدى سبعين سنة أشهر الأسماء اللامعة في التاريخ المعاصر . بضعة غرامات من الشمع الأحمر .

لقد تساءلنا آنذاك: ألم يكن باستطاعة حزب الثمانية عشر مليون عضو أن ينظم مظاهرة تضم بضعة آلاف لمنع الاستيلاء على المقرات ؟؟ .

يبدو أنه كان عاجزا حتى عن شيء بديهي كهذا. لقد أظهرت « أيام الانقلاب » كل الأمراض المستشرية في الجسد الكبير. كان جسما منهكا بلا رأس ولا أذرع ولا أرجل . . كان جثة تنتظر من يوفر لها جنازة . .

إن الذين يملكون قدرات على العمل والحركة حسموا أمرهم باختيار مواقع جديدة لهم أما في مركبة يلتسين النشطة والواعدة، واما في عالم البزنس والوظائف السهلة المريحة، أما الآخرون فقد كانوا بمثابة جنود وجدوا أنفسهم على نحو مفاجئ على أرض معركة لا يعرفون عن تضاريسها شيئا، والأنكى من ذلك، كانوا بلا قائد فمن هو الذي سيحمل الراية في حزب وضعه هكذا..!

« أمين عام محتجز في القرم وتحوم حوله شبهات التواطوء مع الانقلابيين، ونائب الأمين العام حولته لجنة الطوارئ الى رقم هامشي في معادلة الأرقام الحاسمة » ..

ومكتب سياسي لا يضم عضوا جديا واحدا . . . بحكم تركيبته الغورباتشوفية الجديدة كاطار تمثيلي للأحزاب في الجمهوريات .

نعم لم يكن باستطاعة أي قائد في الحزب الشيوعي أن يتسلم زمام المبادرة فالحزب لم يعد متماسكا بالقدر الذي يوفر إنضباطا كافيا واداء منسجما متكاملا .

كان بعد ظهر اليوم الثالث هو يوم الحجيج الى فاروس حيث لا يزال غورباتشوف هناك. لقد توجه اليه اناتولي لوكيانوف رئيس البرلمان الاتحادي، ومعه مفاتيح لجنة الطواريء ديمتري يازوف وزير الدفاع وفلاديمير كربوتشكوف رئيس الـ كي جي بي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما زلت أحتفظ بالشريط المصور لعودة غورباتشوف الى موسكو، كما لا أزال أذكر تلك الانطباعات التي حفّزت في ذاكرتي خلال متابعة المشهد . . . فتح باب طائرة الايروفلوت وظهر ميخائيل غورباتشوف ، كان يرتدي ملابس الاجازة . . قلت للساهرين معي آنذاك « لا أحد يعرف هل هذه ملابس الاجازة التي إنتهت أم التي ستأتي » . . لقد كان واضحا لنا نحن الذين نعيش في موسكو أن ما حدث لا بد أن يفضي حتما الى نهاية وشيكة لرئيس البريسترويكا ، أما مشهده وهو يهبط سلم الطائرة فقد أوحى لي بلقطة فنية تصلح في سياق رواية . . .

« إنه نزول عن القمة الى رصيف الشارع »

كانت أنباء ما حدث في القرم خلال الساعات القليلة الماضية قد وصلت الى موسكو قبل وصول بطلها. كنا نعرف ونحن نتفرج على لقطة الهبوط من الطائرة ونتندر على واقعة ابتعاد العدسات عن سيدة البريسترويكا الأولى رايسا ماكسيموفنا ان رأسي لجنة الطوارئ قد اعتقلا يازوف وكريوتشكوف وأن باقي السادة لاقو أو ينتظرون المصير نفسه، كان بمثابة نهاية درامية لنفوذ المحافظين، وإضعافاً محققا بل وربما مميتا لنفوذ غورباتشوف. لم يحظ العائد بأي مظهر من مظاهر التكريم الاحتفالي ، كان وصولا عاديا، علل في حينه « بسبب التعب الجسدي » والنفسي للسيدة رايسا وحفيدتها الصغيرة اتستارزيا .

في اليوم الثاني ظهر ميخائيل سيرغيفيتش في مؤتمر صحفي عالمي إنتقد فيه مؤيدي الانقلاب في العالم مختصرا إياهم بالرئيس صدام حسين والعقيد معمر القذافي، وحين لم يشر لا من قريب ولا من بعيد للفلسطينيين، أو لبعض منهم تنفست الصعداء .

كانت ليلة غورباتشوف، هي تلك الليلة التي واجه فيها نواب روسيا ،لقد استعيد مشهد يلتسين وهويقف منتصب القامة فوق برج الدبابة ولكن من زاوية أخرى .

فقد أظهرت الكاميرا هذه المرة ضآلة غورباتشوف وهزال موقفه . . كان يكيل مديحا أقرب الى النفاق الساذج لأولئك الذين انقذوا الديمقراطية، وعلى رأسهم بالطبع سيد الجميع بوريس يلتسين، وكان قد إنزلق الى مهاوي النقد الذاتي حيث لا مناص من ذلك لتفسير ما أصطلح على وصفه آنذاك بخيانة الزملاء . . وكان قد بالغ كثيرا في الهجوم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على المحافظين، مما رسم علامات استفهام جديدة حول أمر ضلوعه معهم ، اذ ان المغالاة في الهجوم حملت شبه التنصل وإعادة التهمة. كانت نهاية غورباتشوف نهاية الرجل الذي ملأ الدنيا وشغل الناس سنوات طويلة حفلت بأعمق وأخطر التحولات على صعيد العالم كله .

لقد كان بوريس يلتسين يصدر الأوامر لميخائيل سيرغيفيتش أمام ملايين السوفيت الذين يتابعون لقاء الرئيس الشرعي مع القائد الفعلي للمعركة، ويراقبون باستمتاع، غورباتشوف كجنرال يلقي خطابا في جنود الآخرين ، لقد أمره يلتسين وبأشد الكلمات فظاظة أن يتلوا مقاطع من محضر قيل أنه تسجيل لاجتماع مجلس الوزراء ، أثناء الانقلاب، وأمره بتوقيع مرسوم يقضي بتعليق نشاط الحزب الشيوعي. حاول إظهار قدر من التردد إلا أنه أذعن أخيرا للصوت العميق الحاسم الهابط على أذنيه من المنصة العالية.

ماذا بقي لمخيائيل سيرغيفيتش بعد كل الذي حدث في تلك الليلة الطويلة والعميقة، لقد أضحى الجيش تحت أمرة غيره والحزب في ذمةالتاريخ . أما معاهدة الاتحاد التي كانت له ولدولته بمثابة طوق النجاة الأخير فلا أحد يعرف ما هو مصيرها .

في اليوم الثاني نظمت جنازة لقتلى معركة الحرية،وقف غورباتشوف مع الجماهير إنتظارا لاطلالة القيصر الجديد، وحين ظهر يلتسين كانت أكف ميخائيل سيرغيفيتش تنتظم في التصفيق مع مئات الأكف المحتفلة بإنتصار روسيا والديمقراطية بقيادة بوريس يلتسين .

منذ يومين وميخائيل سيرغيفيتش يحاول إصطناع مكانة معنوية له ، لقد أكثر من إصدار المراسيم والأوامر غير أنه كان عارفا تماما لحقيقة الحقائق « إنه يعيش بقوة الدفع ليس إلا»، إنه على رأس الدولةالى حين إستكمال عناصر تتويج يلتسين كرئس جديد للاتحاد السوفيتي ، وإن لم يكن ذلك ممكنا بحكم عوامل معينة ، فرئيس لروسيا الجديدة .

يوم آخر فيه بعض الخطر

يوم الخامس والعشرين من آب تجمع عدد من الناس أمام مقر سفارة دولة فلسطين بموسكو، ،كانوا قد قطعوا المسافة بين وزارة الخارجية وسفارتنا وهم يرفعون العلم الروسي ثلاثي الالوان الاحمر، والازرق ، الأبيض وحين وقفوا أمام اليافطة المعدنية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المكتوب عليها باللغة العربية والروسية (سفارة دولة فلسطين) فردوا العلم الاسرائيلي الذي كان مخبأ وراء سترة أحدهم .

كان منظموا المظاهرة حريصين على أن يظهروا للروس وجها روسيا وللفلسطينيين وجها إسرائيليا . . هكذا بدا لي من لعبة الاعلام .

تناهت الى مسامعي أصوات هتافات، وحين نظرت عبر الشرفة رأيت المتظاهرين يقفون وراء السور المعدني . . أما طلبتنا وأعضاء السفارة الذين قرروا حماية بيتهم بأجسادهم وقبضاتهم العارية فقد بدوا متحفزين للاشتباك.

كان لا بد في هذا الموسم الديمقراطي الصاخب من أن نعرض بعضاً من ديمقراطيتنا وحضارتنا، فجازفت بالخروج من المبنى والتوجه الى حيث المتظاهرين. . تعالت الهتافات الساخطة لمجرد إقتراب « الجسبارين باسول» من الحشد، وحين تأكد قادة التظاهرة بأن في الأمر حوارا هتف أحدهم . . . لا تصغوا له « إنه إرهابي » .

طلبت من المتظاهرين إختيار وفد منهم لحوار هادىء، وعرضت تقديم الشاي والقهوة لمن يرغب . . .

إنبرى أحدهم . . أخرج من جيبه ورقة وشرع في القراءة: يوم كذا قال فلان الفلاني من قيادة منظمة التحرير كذا . . وكذا ويوم كذا . . .الخ . كان زميلي خالد مستشار السفارة يترجم خطاب المتظاهر بعناية ، فلقد كانت سنواته العشر في موسكو كفيلة بتمكينه من اللغة الروسية .

حين أكمل المتظاهر خطابه المعد سنحت لي الفرصة كي أتحدث ، كنت قد كونت فكرة محددة« إن الذي أعد هذا الخطاب ليس مجرد متظاهر إنه جهاز يملك أداة المتابعة»، مع ذلك تحدثت مهدءاً . . أعربت عن أن سفارة دولة فلسطين موجودة في موسكو من اجل الحوار. . وأسلفت لموقف الرجل الذي جاء متظاهرا من اجل الديمقراطية، وقبل أن أفوه بكلمة واحدة صفعني باتهام حاسم بالارهاب . . وتساءلت إذا كان العرس في روسيا فلماذا تبدو الزفة اسرائيلية .

كنت ألاحظ تأثيرا متباينا يرتسم على الوجوه، فأولئك الذين بعثوا من قبل جهات أقل براءة، كانوا يصغون لمجرد التظاهر بالتأدب، أما البعض الاخر فقد راقه الكلام فيما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يبدو. تفرقت المظاهرة بسلام وغنمت جراءها موعدا من أجل مقابلة صحفية مطولة مع الجريدة المستقلة، وهي إحدى أهم الجرائد المقروءة ذات الميول الصهيونية الواضحة .

إن مظاهر الاحتجاج على تصريحات بعض القادة أضاءت أمامي وأمام زملائي أعضاء السفارة ضوءاً أحمر لم يكن الأمر متعلقا بالخوف على صيغة التمثيل الفلسطيني في العاصمة موسكو، وإنما مما هو أعمق وأكثر شمولا من ذلك .

كانت إسرائيل على خط الأزمة الأخيرة، ولم لا تكون؟ لم لا تدخل الأبواب المفتوحة على مصراعيها ؛ كانت البريسترويكا قد وفرت لها دخولاً مريحا الى المجتمع السوفيتي، غير أن هذا الدخول كان محاطا ببعض الحذر وبعض التحفظات المظهرية على الأقل ، أما الآن فتبدوا الأمور أكثر إنفتاحا ، فلقد خصص التلفزيون الروسي الليلة الماضية قرابة نصف ساعة لاحد الاسرائيليين كي يتحدث الى الشعب ، ورغم إنشغال المواطن الروسي والسوفيتي عموما بمصيره إلا أن المتحدث الاسرائيلي وهب مشاهديه عبئا جديدا « التخلص من الفلسطينيين وقطع العلاقة معهم نهائيا » .

إن دعوة كهذه بدت كعزف نشازٍ خارج عن النوتة الموسيقية المعمول بها آنذاك. لقد قوبلت بقدر من الاشمئزاز ربما لسبب فني صرف يتعلق بالتوقيت، وضخامة الجرعة اليهودية للمواطن الروسي الذي يقف على مفترق مصيري، غير أن مؤشرات كهذه لا بد أن تبعث الخوف في نفسي .

قمنا بجهد معقول لحصر خسائر الطوفان الداهم. أمكن لنا إيصال بعض الأخبار الايجابية الى جهاز التلفزيون والراديو. كنا سعداء ونحن نسمع خبرا عنا ولو أنه كان يأتي دائما في أوقات يصل فيها المشاهدون أو المستمعون الى أقل من الثلث « شيء أفضل من لا شيء » . كنا نقول ذلك لأنفسنا ونواصل محاولة ثقب الجدار بإبرتنا الصغيرة هنا أسجل لزملائي في السفارة، ونشطاء إتحاد طلبتنا مأثرة مجيدة، لقد وفروا نظاما أمنيا حذرا وفعالاً لحماية السفارة، كان نظاما يعتمد على الذكاء إذ لم يكن لدينا أية قطعة سلاح من أي نوع ، كما إنتشروا كالنار في المؤسسات والتجمعات وخلال الأسبوع الأول الذي تلا الانقلاب أمكن لنا وعلى نحو معقول ان نوصل كلمتنا الى الشعب الذي أنهكته البريسترويكا وأعماه الأعلام المدروس عن رؤية صداقته القديمة بقدر كاف من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموضوعية ، لقد تحولنا في أيام قليلة الى وضع آخر شديدالإختلاف ، كل شيء من حولنا يتغير بسرعة خرافية .

في تلك الأيام توفيت أم رامي حرم المرحوم العميد محمد الشاعر ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في أواخر السبعينات، وأوائل الثمانينات. كنت وأسرة الفقيدة وزملائي نتقبل العزاء في منزل العائلة الفلسطينية الصغيرة، حين لمحت رجلا يرتدي سروالا من الجينز وقميصا مليئا بشارات أمريكية ، همس في أذني أحد الزملاء معرفا الرجل، كما علمت آنذاك كان موظفا مرموقا في جهاز اللجنة المركزية للحزب. سألته مازحا لم ترتدي هذا الزي الغريب أجاب وقد ظهرت على وجهه مسحة حياء « كي أعبر الحواجز » .

سألت نفسي اذا كان هذا هو وضع حزب الثمانية عشر مليون عضو فكيف سيكون وضع أتباعهم في أي مكان ؟؟

كنت خائفا آنذاك من دفع ثمن الماضي. أن « كذابي الزفة » الذين صارت لم سطوة هائلة على الشارع في غياب إستقرار السلطة يواصلون لعبة هدم القديم وإدانة كل ما يشير اليه جملة وتفصيلا. ولا شك أن حركات التحرر وما كان يسمى القوى التقدمية والديمقراطية واليسار سجلت على نحو قاطع على ذمة العهد البائد ، إن الذي يملك حق الفرز وإصدار الاحكام ليس موضوعيا على الإطلاق ، كانت أيام شديدة القسوة. إن التعبئة السوداء تشمل العرب جميعا، كان التلفزيون السوفيتي وشقيقه المدلل الروسي يبث بين وقت وآخر معلومات عن الديون المعدومة على العرب بتعليق مختصر . . « أضخم ديون خارجية ولا أمل بسدادها »، حيث يقال للمواطن الروسي أن الديون المترتبة على العرب تبلغ عشرين مليار دولار تجري على الفور عملية حسابية تفرز رقما فلكيا للروبلات المهدرة التي لو لم تذهب للعرب ، ما كان في البلاد أزمة إقتصادية من أي نوع. إن المواطن العادي ومهما بلغت موضوعيته في رؤية الأمور لا بد أن يتأثر بهذه اللقطة العميقة، لا بد أن يسائل نفسه لماذا ؟ وأين المردود ؟ وبالطبع لا يغفل هذا الاعلام (الذي كان في يوم ما صديقا للعرب وقضاياهم) عن إيراد لقطات تكميلية أخرى عن ثروات العرب الخيالية، وتخلفهم الخرافي وخذلانهم للصديق وقت الضيق. كانت موجة عارمة من التضليل والتزوير وتوظيف الحقائق باتجاهات مرسومة، فماذا اذن يتعين علينا أن نعمل ؟ كان أصدقاؤنا الذين لا يزالون يتجرأون على إشهار معرفتهم بنا ينصحوننا بطرق باب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاقتصاد فهو وحده من يعدل الموازين، ويعيد الحب الى القلوب والجيوب ، إنها نصيحة صادقة غير أنها ،حين تدرس على نحو أكثر عمقا، تبدو في غاية التعقيد .

نعم إن الاقتصاد هو مركز التأثير الأعمق في الحياة المعاصرة من كل جوانبهاغير أنه في الوقت ذاته لا يملك قدرة التأثير السريع والواسع إن الملايين التي أدخل الى وعيها مصطلح إقتصاد السوق والاستثمار ، البزنس تريد أن ترى نتائج سريعة ، وأنىً لنا نحن العرب من تحقيق هذا النوع من النتائج ما دام حجم التبادل الاقتصادي فيما بيننا لا يجاوز العشرة بالمئة من حجم التبادل العام على إمتداد الوطن الكبير .

مع ذلك حاول بعضنا ان يطرق هذا الباب. لم يكن سهلا فقد كانت المعوقات القانونية حاسمة في أمر الحد من طموح المستثمرين ، كما كان الاحتكار جاهزا على الدوام لحجب أفضل المبادرات وأكثرها وعدا للمستقبل.

لقد مشينا طويلا بمحاذاة الحائط كما يقولون. كان لا بد من كمون مؤقت وحركة حذرة حتى نجد أبواب جديدة ندخل منها الى حظيرة التأثير الأفضل في الوضع الجديد ، ومن يبحث يجد . . .

إنتهى الاتحاد السوفيتي وأنزل العلم الأحمر عن ساريته العالية المثبتة منذ سبعين سنة على قبة الكريملين الخضراء . لقد جاهد غورباتشوف منذ عودته الكسيرة من القرم لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وابتدع معاونوه صيغا مختلفة لمنع تمزقه أو على الأقل لتوفير روابط حد أدنى بين الجمهوريات . . . تم الغاء مؤتمر نواب الشعب لمصلحة اطار تمثيلي يضم مندوبين عن الجمهوريات، كما تم إستحداث مجلس أعلى للدولة يضم رؤساء الجمهوريات المستقلة تحت رئاسة غورباتشوف ، أما معاهدة نوثوانماريفو التي إبتلعها الانقلاب، وردود الفعل عليه قد أصبحت مجرد بنود لا حياة لها، إنها لم تعد تصلح لشيء إلا لتوفير بصيص أمل ضئيل للغاية يفرض لغورباتشوف رئاسة شكلية ليس أكثر .

كان يلتسين يواصل زحفه على روسيا، يستولي على ممتلكاتها قطعة، قطعة يصادر أشياء للدولة السوفياتية، ويرفع العلم الثلاثي الألوان عليها . كان قد نفض غبار المتاحف عن النسر مزدوج الرأس ليعيد لقبه كرمز جديد لروسيا، وحين كان يظهر غورباتشوف في الكريملين مستقبلا ضيفا أو قائما بعمل أي شأن من شؤون رئاسة الدولة العظمى ، كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يبدو لمن يعرف مجريات الأمور أن الرجل يقيم على نحو مؤقت، أو أنه ضيف غير مرغوب فيه من قبل الساكن الجديد. كانت نهاية ميخائيل غورباتشوف باهتة مزرية ، كان صعبا عليه توفير إنتقال هادىء للعرض فلقد كان خصمه اللدود يلتسين حريصا على أن يطرد الرجل من ذاكرة الروس قبل أن يطرده من ردهات الكريملين .

في الثامن من كانون أول ديسمبر وقع الزلزال الأخير الذي سحب الأرض على نحو نهائي من تحت أقدام ميخائيل غورباتشوف ، إذ لم يعد له أي مبرر للبقاء في موقعه ، فلقد أعلن السلافيون عن ولاء إتحادهم الجديد الذي يضم روسيا وسبلاروسيا وأوكرانيا، وبعده باسبوع إلتحقت باقي الجمهوريات بالاتحاد الجديد مشكلة إتحاد كمنولث الدول المستقلة، لم يعد أمام ميخائيل غورباتشوف أي حيز للحركة فأعلن إستسلامه ليقدم الحقيبة الدبلوماسية للرئيس يلتسين . . . ومضى . . . وبعد . . .

ثم . . . ماذا . . . ؟

ذات يوم دعي رؤساء البعثات الدبلوماسية العربية الى إجتماع مع السيد كولوكولوف نائب وزير خارجية روسيا الاتحادية ، كانت الوزارة ذات الاسم الجديد قد إتخذت لنفسها مقرا مؤقتا ريثما يتم الانتقال النهائي الى المبنى التاريخي الذي كان « قبل أيام قليلة يحمل اسم وزارة خارجية الاتحاد السوفيتي » .

كان المقر المؤقت هو مبنى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي ، أما المكتب الذي تم استقبالنا فيه فقد كان يخص سكرتير اللجنة المركزية لشئون العلاقات الخارجية. لقد زرته من قبل حين كان ساكنه هو الرفيق اناتولي دوبرفين، كما زاره الكثيرون من زملائي أيام عهد بوناماريوف الزاهر، أما زيارتي هذه بمعية الأخوة السفراءالعرب فقد كانت الثانية خلال شهر. لقد زرته لاجراء محادثات مع نائب الوزير في الفترة الفاصلة بين الانقلاب، ورحيل غورباتشوف. كنت بمعية وفد من اللجنة التنفيذية يضم السادة محمود عباس وياسر عبدربه وسليمان النجاب ، ، إن الأخير يمثل الحزب الشيوعي عندنا ، كان المناضل الذي أمضى عمره مسجونا أو ملاحقا، ولكنه يركض وراء حلمه ببناء دولة الشغيلة على أرض فلسطين يتحسر على كل ما يرى من معالم شيوعية دارسة على أرض عاصمة الوطن الأممي الأعظم. كنا نجد في حالة « النجاب » إغراءاً مستمرا لابتكار لقطات فنية لوصف ما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حدث للرفاق السوفيات، وما سيحدث لنظرائهم في بلادنا. ومن قبيل التطرف إخترعنا رواية غريبة إذ قلنا للمناضل الشيوعي أن الروس الجدد إخترعوا جهازا وثبتوه على باب مبنى اللجنة المركزية ووظيفة هذا الجهاز أن يضيء إشارة حمراء كلما مر من أمامه شيوعي . . فضحك المناضل المخضرم من الطرفة، غير أنه أطلق تنهيدة عميقة وهو يقول «شر البلية ما يضحك» .

أعلمنا السيد كولوكولوف رسميا بإنهاء الاتحاد السوفيتي، وإنبعاث جمهورية روسيا الاتحادية المستقلة، وتحدث لنا بضع كلمات عن إتحاد كومنولث الدول المستقلة وأعلن أن الدولة الروسية تعتبرنا جميعا سفراء لدولنا لدى الدولة الجديدة ولا حاجة لأي واحد منا تجديد أوراق الإعتماد .

كان بيننا سفراء عرب جدد جاؤوا الى الاتحاد السوفيتي، وقبل أن يقدموا أوراق إعتمادهم المعنونة باسم غورباتشوف إنتهت الدولة وذهب الرئيس ... سأل هؤلاء لمن تم تقديم أوراق الإعتماد اذن؟ لم يكن لدى نائب الوزير جوابا محددا فلاذ بالمخرج الدائم من حالات كهذه . . . إنتظروا سنتصل بكم .

أعربنا لنائب الوزير عن حرصنا على توطيد العلاقات مع روسيا، وسائر جمهوريات الكومنولوث، وغادرنا المكان الى سفارتنا كي نواجه اليوم التالي وضعا جديدا .

سأحاول في سطور قليلة أن أقول شيئا يتعلق بالوضع الجديد الذي نجم عن إنهيار الاتحاد السوفيتي، وسأجتهد بتقديم بعض الملاحظات فيما يخص علاقتنا الراهنة والمستقبلية مع هذا الوضع .

دعونا نفكر بهدوء وواقعية ونسأل أنفسنا السؤال التالي : على أي أساس تقوم علاقتنا كعرب بالدول الأخرى . . . هل ننظر لهذه الدول من منظار وزنها ونفوذها الدولي أم من منظار حجم مصالحنا في هذه الدول .

إن الدبلوماسية العربية لم تضع جوابا دقيقا عن هذا السؤال بما يخص الاتحاد السوفيتي في أوج قوته، ولا فيما يخص ما تمخض عنه بعد إنهياره. لقد جنحت بعض دولنا فيما مضى الى المغالاة في الاعتماد على «الحليف الاستراتيجي» مثلما جنح البعض الآخر الى مغالاة في الاتجاه الآخر، أي المعاداة والمقاطعة ، ولقد بينت في أحد أجزاء هذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكتاب بعض النماذج التي تشير الى هذه الظاهرة الغريبة في تشكيل العلاقات والسياسات تجاه هذا الكيان العملاق .

وما رأيته أثناء عملي في موسكو وتحديدا في حقبة الاحتضار الأخير للدولة العظمى ولّدَ لدي إنطباعا بأننا نعيد إرتكاب الخطأ مرة أخرى. . . لقد ظهر العرب إستخفافا إستفزازيا بالاتحاد السوفيتي المتأزم، فانخفض التنسيق السياسي معه الى أضيق الحدود، وحين تهبط حرارة العلاقة السياسية فإن النتيجة المنطقية لذلك ان تتجمد العلاقات على جميع المستويات الأخرى .

إن أية دولة صغيرة كانت أم كبيرة زراعية أم نووية غنية أم معدمة تظل في خريطة الكون رقما ينبغي ان ينظر اليه بجدية، وأن يجري التعامل معه باحترام فما بالك حين يكون الأمر متعلقا بكيانات موجودة على ساحة تقدر بسدس الكرة الأرضية ، أننا وبعد إنهيار الاتحاد السوفيتي نواجه خمسة عشر دولة جدية تعيش جميعا تلك الازمات المنطقية والبديهية التي يمليها التشكل الجديد أو الانتقال الى وضع كياني جديد ، إن هذه الحالة تتطلب تواجدا أكثرتركيزا في الكم والنوع على أرض هذه الكيانات ، إن الدول التي تحترم نفسها ومصالحها تتواجد الآن في ذلك الجزء من العالم ، بهمة مضاعفة ودأب لا تردد فيه. انها حريصة على تشكيل علاقاتها منذ البداية ، أي أنها حريصة على زرع بذور مصالحها القادمة في الوقت المناسب .

إن الأزمة ليست قدرا أبديا للكيانات المنهارة أو التي قيد التشكل.... ولنأخذ مثلا روسيا ونقرأ بعضاً من صفحات تاريخها، إن هذا الكيان العملاق الذي عاش منذ الأول مصارعا أقداره الصعبة محاربا قسوة المناخ وصامدا في وجه عزلة الجيران المتنائية عن رعبهم المستديم من صحوته ونهوضه. . . والذي كما قال لي أحد أبنائه الأذكياء « لم يعرف الاستقرار الاقتصادي يوما في حياته الطويلة » ، إن هذا الكيان يظل بمواصفاته البديهية ركنا دائما من أركان الحياة الحضارية على سطح المعمورة قد لا تتخذ بسذاجة عن طاقاته النووية الهائلة، غير ان بوسعنا الحديث بشقة عن ثرواته الانسانية والارضية التي تظل بكل المقاييس مميزة بتراثها ، ووعودها . . .

قال لي وطني روسي . . .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بوسع هولندا مثلا أن تصرف أرقاما فلكية على نموها الاقتصادي وعلى أرصدتها وعلى تجاربها، ولكن هل بوسعها أن تعرض صفحة واحدة من كتاب يتفوق على تولستوي او بوشكين او ديستويفسكي !!!

إن روسيا الواقعة في أسوأ أزمة مستفحلة لا بد وأن تصحو يوما . . . إنها الآن في طور البحث عن الطريق الجديد بعد أن أغلقت الطرق القديمة لقد بهرتها بدع الغرب . . فركضت ورائها قليلا أو كثيرا، وحين اكتشفت أن الجري وراء السراب لن يفضي لغير التعب . . بدأت تفكر بالتوازن إنها بصدد إكتشاف معادلتها الأخيرة أي أنها ربما تكون في سبيلها الى حسم اشكالها السردي ،« الحيرة بين مادية الغرب وورومانسية الشرق » بأعتناق روسيا الاصيلة قد تطول الأزمة. وقد تحتدم وقد تلد أزمات كارثة تضع الكيان الروسي العملاق على حافة حرب أهلية طاحنة . .. غير أن ما تبقى أن يظل ماثلا قي الذهن هو أن روسيا الجديدة تظل مالكة لقدرة التأثير على الحياة الدولية في كل الحالات . . . إنها لن تظل مسجونة وراء قضبان الأزمة. إن حاجتها للتنفس والغذاء والمياه ستحملها اليوم أو غداً وبعد غد الى الانطلاق، ولن يكون إنطلاقها القادم موضعيا ولا متواضعا . . إن وعاء الدولة العظمى لا يزال على حاله والعلاقات الغارقة لهذه الدولة مطبوعة على خريطة العصر دون أن تمس في الجوهر « روسيا وريثة الاتحاد السوفيتي »تحتل مكانه على مقعد مجلس الأمن، وتمتلك القدرات ذاتها على صعيد الردع النووي والتضيع الحربي، ثم إنها بالنسبة لنا جار قريب وشريك في الثقافة والتاريخ . . .إن روسيا الارثذوكسية لا تتوج بطريركها دون مباركة القدس وروسيا الاسلامية تحج الى مكة والمدينة مشيا على الاقدام منذ صدر الاسلام . . . إن شراكة روسيا في عملية السلام في الشرق الاوسط تبدو اكثر الوشائج آية وسطحية في علاقاتنا بها قياسا للوشائج التاريخية والثقافية .

والى جوار روسيا هنالك أرض الحضارة الاسلامية الأكثر غنى . . آسيا الوسطى .. الأرض التي إنطلق منها الفاتحون ليضعوا بصماتهم على معظم أنحاء أرجاء الكون ، ومنها ظهر العلماء والمفكرون . . . الخوارزمي ، إبن سينا ، الترمذي ، البخاري . . . وعشرات بل مئات مثلهم من منارات الابداع العلمي والحضاري . . ثم اليست آسيا الوسطى هي أحد المفاصل الحضارية في التاريخ على صعيد الاقتصاد . . إنها حامية طريق الحرير الذي لا يستطيع أحد الجزم بعدم عودته ثانية الى الوجود كنواة لرافد إقتصادي كوني جديد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تبقى ان نكون في روسيا واكرانيا وبيلاروسيا وأرمينيا . . في كل جمهورية من جمهوريا الكمنولث كي ننزع بذور مصالح جديدة لنا، والتواجد لا يعني زيارات الوفود او التبرع ببعض المساعدات أو التظاهر الاحتفالي بمناسبات التاريخ وانما بأساليب وصيغ عصرية أكثر عمقا وتكاملا ورسوخاً، إن دول العالم تتواجد هناك من أجل إقتناص الفرص الطازجة . . . تركيا وإيران تتنافسان على إمتدادهما الحيوي في آسيا الوسطى .

تركيا الأطلسية تطرق باب التعاون الاقتصادي، وايران الثورة تدق أبواب التواصل العقائدي، ونحن العرب نتحرك بتردد وإرتباك وغالبا ما نتذكر وجود هذه الكيانات حين تقدم على إرتكاب خطيئة من نوع فتح « خط طيران ينقل المهاجرين اليهود من باكو الى تل أبيب، أو استعدادجمهورية كيرغيزستان الاسلامية لافتتاح سفارة لها في أورشليم القدس...

حين أبرمت حكومة أذربيجان إتفاقية فتح خط جوي من باكو الى تل أبيب، وكان ذلك أيام الاتحاد السوفيتي أرسل السفراء العرب مندوبا لمقابلة رئيس أذربيجان –كان المندوب المنصف الماب سفير الجامعة العربية بموسكو رحمه الله. لقد عرض مندوبنا مرافعة تاريخية هائلة أدارت رأس عام المسلمين على أذربيجان / الرئيس مطالبوف / وعاد الى موسكو حاملا معه تعهد الرئيس بوقف الخط . . . فرحنا كثيرا بالانجاز النوعي ، دام فرحنا أياماً قليلة، فلقد عرفنا أن الوعد بوقف الخط كان مجرد مجاملة مندوب العشرين دولة عربية ، التقيت بأحد السياسيين الآذريين وسألته.. لماذا كنتم أول جمهورية سوفياتية تقيم خطاً مباشرا مع تلك أبيب ....؟

أجاب : وما الذي يزعجكم في الأمر ؟

شرحت له «ما يزعج »، ثم سألته لماذا إذن يتعهد الرئيس بوقف الخط ولا يفعل ..؟

أمطرني الرجل بوابل من النقد كان شديد القسوة في إظهار مدى إحباط الآذريين من العرب الذين وقفوا متفرجين أثناء حربهم مع الأرمن . . وقال خلاصة أثرت في كثيرا :

«لقد تحدث مندوبكم مع الرئيس عن التاريخ ، أما الاسرائيليون فقد تحدثوا عن اليوم والغد بلغة الاقتصاد والبذل ... لذا جاءت الحصص منطقية ... كان لكم الوعد ... وكان لهم خط الطيران » . . . !!!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفهرست



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الف يوم في موسكو

صدرت خلال السنوات الأخيرة كتب عديدة عن البيريسترويكا، وما أعقبها من تفكك سريع للاتحاد السوفييتي، ونهاية دراماتيكية للحرب الباردة بين المعسكرين: الاشتراكي والرأسمالي، بأقلام كتاب ومحللين وسياسيين من كلا المعسكرين.

ورغم ذلك فإن الحاجة إلى كتابات عما جرى في الساحة السوفييتية وانعكاساته على الساحة الدولية، ومنها منطقة الشرق الأوسط، برؤية عربية تظل قائمة وملحة، وبخاصة إذا ما استندت إلى معرفة شمولية بأوضاع الدولة السوفييتية (السابقة)، نابعة من المعايشة والقراءة الموضوعية لتلك الأوضاع.

ولعل كتاب (ألف يوم في موسكو) لنبيل عمرو، يعد واحداً من الكتب المهمة التي تلبي هذه الحاجة، لكون مؤلفه قد عايش جانباً كبيراً من الأحداث عن كثب، وشهد معظم فصولها من الداخل، بحكم عمله سفيراً لدولة فلسطين في موسكو بين عامي ١٩٨٨-١٩٩٣.

إن هذا الكتاب ليس توثيقاً لتلك الأحداث، بل قراءة خاصة (من منظور فلسطيني / عربي) لموضوعات سياسية خبرها الكاتب من موقعه الدبلوماسي. وقد عمد إلى تقديم قراءته باسلوب شيق بسيط... مبتعداً عن المغالاة في التحليل والتنظير.

الناشر

الناشر: دار الشروق للنشر والتوزيع
عمان - الأردن
التوزيع: المركز العربي للمطبوعات
بيروت - لبنان

تصميم الغلاف: موسى عسّاف